نقد علم الاجتماع

البرجوازي المعاصر



سلسلة الأفكار

تأليف: س. ي. پوپوف
ترجمة: نزار عيون السود
تقديم: د. طيب تيزيني







سلسلة الأفكار

نقد علم الاجتماع البرجوازي المعاصر

تأليف : س. ي. پوپوف

ترجمة : نزار عيون السود

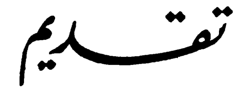
تقديم : د. طيب تيزيني

طبعة ثانية



طبعة أولى ١٩٧٣

طبعة ثانية ١٩٧٤



تقديم

لقد تحول الحديث في عصرنا عن قضايا آلعلوم آلانسانية الى مسألة تحتاج حذراً وتيقظاً فائقين . ذلك لأن هنالكمحاولات واسعة النطاق لإفقاد هذه العلوم مقومات وجودها الأولية افقاداً نهائياً .

ان هذا الاتجاه نشهده في بلدان العالم آلراسمالي ، وخصوصا تلك التي قطعت اشواطا كبيرة في التقدم الصناعي التكنيكي . هاهنا برزت وتبرز مدارس ومذاهب تطرح نفسها على أنها فتح جديد في اطار علم الاجتماع والعلوم الانسانيةالاخرى، والحقيقة ان هذه الظاهرة ، ظاهرة الانتاج الخصب والمتعدد لتلك المدارس والمذاهب ، جدير بالباحث والسياسي ان يوليها أهمية مبدئية خاصة .

فأصحاب تلك المدارس والمذاهب يرون في انتاجهم لها دليلا عميقاً على خصوبة وتقدم المجتمع الراسمالي الذي يعيشون فيه. ان ظاهرة التعدد هذه لا يمكن في حقيقة الامر فهمها واستيعابها على نحو دقيق الا اذا وضعت في اطارها ضمن البناء الاجتماعي الاقتصادي والسياسي الايديولوجي القائم في بلدان العالم الراسمالي المتطور .

ففي أواخر القرن التاسع عشر أخذت مجموعة من البلدان الراسمالية تدخل في مرحلة انتقالها الى الحلقة القصوى في تطورها ، حلقة الاستعمار . لقد ترتبت على هذه العملية جملة من المسائل والأمور التي أخذت تغير الصورة الايديولوجية السابقة في حياة المجتمع القائم .

فلقد قامت الثورات البرجوازية في العالم الحديث ، واضعة نصب أعينها ، ضمن أمور اخرى ، تكنيس الايديولوجية الاقطاعية الكنسية من الوجود ، وخلق ايديولوجية تتضمن العلم والثورة الاجتماعية ركنين اساسيين لها .

ولا شك ان الطبقة البورجوازية كانت في عملها ذاك تنطلق من واقع الحال آنذاك . ان وقوفها ضد الطبقة الاقطاعية والعالم القديم المهترىء بأكمله اقتضى منها : (١) ان تبحث لنفسها عن حلفاء وجدتهم في شخص الطبقات الكادحة من فلاحين فقراء وحرفيين ، و (٢) أن تخلق لنفسها أيديولوجية تستخدمها سلاحاً حاداً في معركتها الطبقية ، هنا نشهد نشوء المفكرين الماديين والعقلانيين العظام إمثال بيكون وديكارت وديدرو وهولباخ الخ ...

ان هذه المرحلة كانت في الحقيقة مرحلة الصعود الثوري التقدمي للطبقة البورجوازية الاوروبية ، مرحلة كان على هذه الطبقة ان تنجز فيها ثورة ثقافية الى جانب ثورتها الاجتماعية ، وهي قد فعلت ذلك .

الا ان هذه المرحلة كانت قد انحسرت مع توطيد السلطة

السياسية للطبقة البورجوازية فانكفأت هذه الاخيرة الى العدو الطبقي السابق ، الاقطاع مادة اليه الايدي ضد الحليف السابق، الجماهير الكادحة ، بدءاً من هذه المرحلة ومع دخول المرحلة الاستعمارية اصبحت تلك الطبقة في مصاف الرجعية التاريخية . فلقد فقدت آفاق تطورها باتجاه تقدمي ، وبذلك انفكت الاواصر بينها من جهة وبين الفكر التقدمي عموماً . بل اكثر من ذلك ، ان هذا الفكر اصبح خطراً على وجودها . ليس العلم ، وانما اللاهوت ، وليس الطبقات الكادحة والتقدم الاجتماعي ، وانما الطبقات المتجاورة تاريخياً والمحافظة الاجتماعية الاقتصادية : هذا التحول شكل وما يزال يشكل قانونية حتمية في عملية التحول في اطار المجتمع الرأسمالي الاستعماري الحديث .

ما موقع علم الاجتماع في اطار هذا التحول الكبير ؟ لا شك انه من الخطأ المعرفي والخطر الاجتماعي التسرع في الحكم ، كأن نقول مثلا ان هذا العلم قد اصبح يتحرك كلياً ضمن ترسانة المجتمع الاستعماري الحديث وفي خدمته . ذلك لأن هنالك واقعاً ينبغي اخذه بعين الاعتبار العميق ، وهو ان الصراع الطبقي هنالك يستثير بالضرورة وضمن ظروف ذاتيةمعينةصراعاً ايديولوجيا . فهنالك اذن اتجاه آخر في اطار علم الاجتماع ، اتجاه اشتراكي ثوري . بالاضافة الى ذلك ينشأ ضمن علم الاجتماع البورجوازي اتجاه عقلاني نقدي ، بالرغم من أن هذه العقلانية والنقدية تظلان تتحركان في اطار المجتمع البورجوازي الاستعماري . من هنا علينا ان ننطلق في فهمنا لإشكالية علم الاجتماع البورجوازي في ظروف التحول الاستعماري .

كيف لنا ان ننقد هذا العلم ؟ في البدء سوف نرى انفسنا ملزمين بوضع قوسين على جانبي مفهوم العلم ذاك . فلقد اصبح من معطيات العلوم الانسانية الثورية المعاصرة ان العلم الاجتماعي هو ذاك الذي يكون قادرا على استبصار قوانين التطور الاجتماعي وان هذا الاستبصار لن تقوم به وتقدمه سوى الطبقة الاجتماعية المؤهلة لحل اشكالية النظام الرأسمالي الاستعماري من جذوره .

على هذا النحو ينبغي علينا ان ندرس ما يسمى حاليا بعلم الاجتماع البورجوازي المعاصر .

ان أزمة هذا النظام تجد تجسدها الايديولوجي النظري في هذا العلم . والملاحظ ان ممثليه يدركون ان المسألة الاكثر أهمية في كيان هذا العلم هي الاحاطة ١ً ـ بالجزء على حساب الكل وهي ٢ً ـ الرفض المبدئي للنظرية ، للايديولوجيا .

ومن الضروري ان نكشف ما يكمن خلف هذا الامر . ان الاخذ بالجزء على حساب الكل يعني ان نرفض على سبيل الدجل العلمي والابتعاد عن الواقع القائم كل محاولة للتطلع الى العلاقات الاجتماعية الناظمة للاجزاء الخاضعة لدراستنا . وكذلك حينما نرفض الايديولوجيا ، فاننا نكون ، بالرغم من اننا نمارس دائما وبقليل او كثير من الوضوح ايديولوجية ما ، نعمل من اجل الابتعاد عن الوصول الى نتائج بحث اجتماعي شاملة ، تمس كلية النظام الاجتماعي القائم .

بالاضافة الى ذينك الجانبين من المسألة . نجد ان الاشكال الاخرى من علم الاجتماع البورجوازي المعاصر تلجأ إما

الى الأنا او الى الارادة أو الى الوعي أو الى الدين الخ .. معتبرة ذلك منطلق الوجود الاجتماعي الانساني الذي يحتم على الباحث الاجتماعي التقيد به في بحثه .

والجدير بالذكر ان جموع النظرياتالاجتماعيةالبورجوازية قد غطست حتى العظم في تجريبية ضحلة تنكر بشكل يدعو الى الدهشة كل اشكال التنظير الاجتماعي . والحق انها ، من حيث هي جوانب رئيسية في الوعي الاجتماعي البورجوازي المعاصر ، لا يمكنها الا ان تكون في هذه المواقع . هذا بغض النظر عن مواقع علماء اجتماع بورجوازيين تتميز بالطموح في الاستقلال بشكل من الاشكال عن الايديولوجية البورجوازية في شكلها المعاصر .

ان النقد الذي يوجه لعلم الاجتماع البورجوازي المعاصر ينبغي ان يلح على كشف الجذور الاجتماعية الموضوعية والاخرى النظرية المعرفية الذاتية التي تكمن وراءه . وهذا النقد لكي يكون فعالاً بناءاً - أي لكي يكون ثورياً ، لا يمكنه الا ان يطرح الوجه الآخر من علم الاجتماع المعاصر ، الوجه العلمي المادي التاريخي . ان الخلافات والحوارات البناءة وغير البناءة منها الدائرة في أوساط العلماء الثوريين ، الاشتراكيين العلميين لا يمكن ان نعتبرها الا احد اشكال النمو ، وان كان معقداً ومتشابكاً ، في اطار علم الاجتماع المادي التاريخي .

ولا شك انه ليس صحيحاً ان نتبع نقد علم الاجتماع المعاصر برفض مطلق له . ان هذا الموقف يتعارض بالاصل مع مفاهيم علم الاجتماع المادي التاريخي . فضمن ذلك العلم ينبغي

ان نميز بين التأويل والتفسير الايديولوجيين الذي يقوم بهما عالم الاجتماع وبين الوقائع والاحصائيات والمعطيات العامة التي يقدمها في اطار هذا التأويل والتفسير . فنحن ولاشك مدعوون لأن نأخذ الكثير من هذا الطرف الثاني ، رامين - بالطبع بعد دراسة متفحصة - بذينك التأويل والتفسير باعتبارهما حصيلة الوجود الطبقي المتجاوز مكثفاً ومقدماً بصورة ايديولوجية .

هذه هي القضايا التي رغبنا في اثارتها في معرض الكتابة السريعة عن هذا الكتاب المثير . والحق ان هذا الأخير سيملأ فراغاً قائماً في قطرنا وفي الوطن العربي ، وان كان ذلك على سبيل الاثارة الفكرية والتحريض على التفكير في مجمل القضايا المتعلقة بعلم الاجتماع والعلوم الانسانية عموما .

لقد دخلت الوطن العربي منذ سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية أشكال من علم الاجتماع البورجوازي الاستعماري ، تشترك في كونها تركز اولا بأول على الموقف التجريبي المبسط في ملاحقة الظواهر الاجتماعية ، مبعدة من حسابها الاطار النظري الشامل الذي يحتويها ، وكنا قد شهدنا انتشار مثل هذا التفكير التجريبي الاجتماعي في جمهورية مصر العربية بشكل خاص .

واذا تقصينا بواطن الامور في الوطن العربي كجزء من « العالم الثالث » ، ندرك مدى الاخطار الكبيرة التي تنبعث من مثل ذلك التفكير الاجتماعي . ذلك لأن هذا الوطن الذي يعاني من « بعثرة فكرية » او مما نسميه ب « النزعة التجريبية او اسلوب الخطأ والصواب » ، سوف يجد نفسه مرة اخرى محاطاً

بأبعاد ذلك التفكير الاجتماعي التجريبي الوافد من اوربا الاستعمارية مُسياءاً اليه حتى الحد الاقصى .

فالقضايا المطروحة في اوروبا الاستعمارية على بساط البحث الايديولوجي تختلف عما هي عليه في الوطن العربي . هذا بالرغم من ان هنالك ما يمكن اخذه علاماً مشتركاً بين الطرفين ، وهو انسداد الأفق التاريخي . انسداد الآفاق امام المجتمع الاستعماري، وكذلك امام المجتمع المتخلف . وهذا يعني بالنسبة الينا ان من يدعو الى الفكر الاجتماعي التجريبي في الوطن العربي ، يكرس على نحو او آخر الصعوبات القائمة هنا على طريق خلق رؤية ايديولوجية ثورية تأخذ بعين الاعتبار مقولة الثورة الاجتماعية والثورة الثقافية والوحدة القومية .

فانطلاقاً من ذلك الفكر الاجتماعي التجريبي يجد الانسان نفسه مرغماً على رفض هذه « الكليات » المطروحة في الوطن العربي . بدعوى هذا يقودنا الى متاهات ميتافيزيقية .

ان علم اجتماع حقيقي في الوطن العربي لا يمكن ان يكون الا ذلك العلم القادر على الاجابة عن مشكلات التحول الثوري فيه . وعلم من هذا النمط يشترط بدوره منا آن نوحد توحيدا عميقا بين الكل والجزء ، بين الطبقة والمجتمع ، وبين الايديولوجيا والعلم .

وما أحسب هذا الكتاب الا اشعاعة على هذا الطريق . فتثوير مجتمعنا بمؤسساته الثقافية والتعليمية ينبغي أن يستثير بالحد الادنى آفاق البحث العلمي الثوري مُخضعين له كل تلك

المؤسسات . وهذا يعني ولا شك ربط العلم بالانتاج الاجتماعي الشامل ربطاً جدليا عميقاً .

ان ترجمة هذا الكتاب ، التي قام بها الاستاذ نزار عيون السود ، تدخل ولا شك في نطاق المساهمة في خلق تراكم ثقافي ثوري في وطننا يؤدي في نهاية المطاف الى وضع حلول دقيقة خلاقة للمشكلات العلمية والاجتماعية والقومية المطروحة لدينا .

وبطبيعة الحال ، يظل الحوار العلمي الثوري اسلوب العلماء الثوريين . ولذلك فنحن نجد انفسنا نتوجه بالشكر للاستاذ المترجم على جهده هذا ، آملين ان يثير كتابه هذا حواراً خصيباً لدى المفكرين العرب .

د. طيب تيزيني



مقدّمة

عن الاتجاهات الرئيسية في علم الاجتماع البرجوازي

دخل مصطلح علم الاجتماع Sociologie اللغة العلمية في منتصف القرن الماضي ، على يد الفيلسوف الفرنسي أوغوست كونت (١٧٩٨ ــ ١٨٥٧) ، وقد صاغه كونت من كلمتين : Societas اللاتينية وتعني « مجتمع » و Logos الإغريقية وتعني « علم » . وقد عنى كونت بهذا المصطلح العلم الذي يدرس المجتمع البشري ، أو العلم الذي يدرس تركيب وديناميكية المجتمع .

ولكن كونت لم يخلق علم الاجتماع ، فالمشكلة الاجتماعية ظهرت بظهور الفلسفة كجزءٍ لا يتجزأ منها . ونجد في اعمال الفلاسفة الذين عاشوا في عصور النظام العبودي تلميحاً وحدساً عن نشأة المجتمع ، وبنيته واسباب تطوره . كما اهتم مفكروا البرجوازية الصاعدة في القرن الثامن عشر بقضايا علم الاجتماع ، وقدّم الديمقراطيون الثوريون ابحاثا قيمة ودراسات جيدة للمشاكل الاجتماعية .

اما المؤسسان الحقيقيان لعلم الاجتماع وواضعا أسسه العلمية فهما كارل ماركس وفريدريك انجلز ، اللذان بسطا وعمّما المادية ، لأول مرة ، على شرح وتفسير الظواهر الاجتماعية ،

وقضيا بذلك على المثالية في جحرها ، وكما قال لينين : « إن ماركس هو أول من وضع علم الاجتماع على قاعدة علمية ، محدداً مفهوم التشكيلة الاجتماعية ـ الاقتصادية ، كمجموعة العلاقات الانتاجية الحاصلة ، ومبيناً أن تطور مثل هذه التشكيلات عملية حتمية تاريخية »(١) . وهكذا كان ظهور الفهم المادي للتاريخ ، او المادية التاريخية ، يعني ظهور علم الاجتماع بشكل او بأسس علمية ، وكان هذا منعطفاً ثورياً في علم الاجتماع ككل .

اما كونت فهو لم يخلق علم الاجتماع ، كما يزعم الباحثون الاجتماعيون البرجوازيون ، بل كان مؤسساً للوضعية ورائداً للاتجاه الوضعي في علم الاجتماع . وقد حسب كونت انه اكتشف « القانون العظيم والرئيسي للتاريخ الانساني » : قانون المراحل الثلاثة التي يمر بها الفكر الانساني حتماً . وبما ان كونت مثالي ، ويعتبر الوعي الانساني القوة المحركة للتاريخ ، إذن فهذه المراحل الحتمية الثلاث لتطور الفكر هي جوهر العملية التاريخية . فما هي هذه المراحل ؟

دعا كونت اولى هذه المراحل : **المرحلة اللاهوتية** ، وتمتاز ـ حسب رأيه ـ بسيطرة رجال الدين والكنيسة . وتبحث الاحداث والظواهر في هذه المرحلة ، من وجهة نظر دينية ، وينظر اليها بمنظار ديني . أما المرحلة الثانية فهي : **المرحلة الميتافيزيقية او الفلسفية** . وفيها يسيطر الفلاسفة محاولين الكشف عن جوهر الاشياء واسباب الظواهر . الا انه من المستحيل

---

(١) لينين . المؤلفات الكاملة . ج ١ ص ١٣٩ . « الطبعة الروسية » .

– كما يرى كونت – الوصول الى الجوهر او السبب الرئيسي ، فالانسان – برأيه – لا يتمكن من الوصول الى الجوهر الحقيقي للاشياء ، كما انه محدود ، يدرك الجوانب الخارجية والظاهرة للاشياء عن طريق حواسه وانطباعاته . واطلق كونت باختصار اسم الفلسفة الميتافيزيقية على الفلسفة التي تقول بإمكانيةالمعرفة الحقيقية للعالم . اما نقيض الفلسفة فهو العلم – كما يرى كونت – القادر على إعطاء معرفة ايجابية وضعيفة . ودعا كونت المرحلة الثالثة والأخيرة لتطور الانسانية : **المرحلة الوضعية** ، وهي مرحلة العلم والعلماء .

قدّر اوغست كونت – عالي التقدير – دور العلم في حياة المجتمع ، واعتبره قوة عظمى تساعد الانسان على التنبؤ بسير التاريخ وتجنب الحوادث غير المرغوبة . غير أن كونت ، في الوقت نفسه ، دعا الى اللاادرية ، وحدد العلم فيأطر ضيقةمن «التجربة» الذاتية المحضة ، وقلّم بذلك اجنحة الفكر الانساني ، وعرقله عن الوصول الى الحقيقة الموضوعية ، وادراك العالم كما هو موجود . وفي هذا يكمن جوهر الوضعية كإتجاه رجعي ذاتي مثالي في الفلسفة وعلم الاجتماع ، تحجب فيه اللاادرية براية العلم المغتصبة .

إن العنصر الايجابي في تعاليم كونت هو بلا شك ، إقراره بالطابع الحتمي لتطور المجتمع ، وهذا ما يميزه عن الاجيال اللاحقة من علماء الاجتماع البرجوازيين ، الذين دأبوا بتصميم ، على إقصاء فكرة الحتمية والمنطقية من علم الاجتماع . غير ان كونت كان بعيداً جداً عن الفهم العلمي لقانون ومنطق التاريخ ، فهو لم

يعترف بأن قوانين التطور التاريخي ذات طابع موضوعي ، وان هذه القوانين هي ، قبل كل شيء ، قوانين تطور العلاقات المادية الاجتماعية التي تحدد كل النواحي المتبقية في حياة المجتمع ، بما فيها الايديولوجيا . ووقف كونت أيضا موقفاً معارضاً من الديالكتيك ، وكان المنهج التاريخي غريبا عنه ، فكما يرى كونت — تعتبر المرحلة الوضعية Positivisme المرحلة الاخيرة لتطور المجتمع ، وخاتمة التاريخ .

وقد صور كونت المجتمع البرجوازي ، وكأنه حامل للنظام العقلي ، وأن كل ما يسيء فيهالى التجانس (الهارمونيا) الاجتماعي كالنضال الطبقي مثلا ، هو لا قانوني ولا عقلي . كما نشر كونت التعاليم القائلة بأن على العمال انيستكينوا ويذعنوا للراسماليين، وأن يطيعوا قساوستهم « الوضعيين » . لهذا كانت افكار كونت الاجتماعية والسياسية ذات طابع رجعي ، وكانت موجهة ضد النضال التحرري للبروليتاريا . وقد نقد مؤسسا الشيوعية العلمية ماركس وانجلز نظرية كونت نقداً مريراً .

بدأت الروح الرجعية لعلم الاجتماع البرجوازي تقوى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . وهذا راجع للأسباب العميقة للنظام الاقتصادي والسياسي ، حيث غدت الراسمالية في هذه المرحلة نظاما عالميا . فبعد ان وصلت البرجوازية الى السلطة السياسية وبدأت تقوي سيطرتها الاقتصادية ، أصبحت في غنى عن الافكار التقدمية الموجهة ضد الاقطاعية . واهتمت (في تلك المرحلة) بالافكار « التي تحميها » والتي تدعي خلود نظام الاستغلال الراسمالي وثباته . وفي هذا الوقت ايضا نضجت

واتضحت التناقضات الداخلية لأسلوب الانتاج البرجوازي في البلدان الرأسمالية المتقدمة . وبدأت الأزمات الاقتصادية الاولى تهز العالم . وخرجت الى ساحة التاريخ العالمي قوة جديدة عظيمة هي البروليتاريا ، التي وجدت في الماركسية إيديولوجيتها العلمية .

وغدت الحرب ضد الماركسية و « إسقاط » أفكار الاشتراكية العلمية من اكبر مهمات الايديولوجيا البرجوازية ، بما فيها علم الاجتماع البرجوازي . وامتازت مرحلة الانتقال الرأسمالية – من ما قبل الاحتكارية الى مرحلة الامبريالية – بالقوة المتزايدة الرجعية للايديولوجيا البرجوازية . اما في مرحلة العهد التاريخي الجديد الذي بدأته ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى ، فقد بدأت البرجوازية الامبريالية بحشد القوى لمحاربة أفكار الماركسية اللينينية – التي تحولت الى واقع مادي في الدولة السوفيتية ثم في النظام الاشتراكي العالمي . وغدت معاداة الشيوعية أساساً عاما وعصبا داخلياً للفلسفة وعلم الاجتماع البرجوازيين وللاقتصاد السياسي والتاريخ ، بل للايديولوجية البرجوازية بشكل عام .

يعاني الفكر الاجتماعي البرجوازي المعاصر ازمة حادة ، فهو فقير بجوهره ، رغم تنوع الاتجاهات واختلاف المدارس فيه ورغم بريقها الخارجي ، ولا غرابة في ذلك ، فمهمة هذا الفكر ليست دراسة الحياة الاجتماعية بشكل موضوعي بل تحريفها وتشويهها . وكماهو معروف لكل مسألة حل معين ، والحقيقة ، في هذا المعنى ، ذات مدلول واحد . أما الحلول الكاذبة ، واشكال التحريف

فيمكن ان تكون عديدة ومتنوعة . وهو سبب من اسباب البريق الخارجـــي والتنوع والغنـــى في الفلسفة الاجتماعية وعلـــم الاجتماع البرجوازيين المعاصرين .

وترى البرجوازية في علم الاجتماع وسيلة هامة من وسائل التبرير الايديولوجي لمصالحها الاقتصادية والسياسية ، لـــذا فهي لا تضن بالمال والامكانيات من أجل حل وتقويـــر المشاكل الاجتماعيـــة .

ومما يميز تطور علم الاجتماع البرجوازي ، اعتبـــاراً مـــن عشرينيات هذا القرن ، زيادة دور الابحاث التجريبيةوالتطبيقية . وكثير من هذه الابحاث مهيأ لتقديم التوصيات العملية للاحتكارات والمنظمات السياسية للدولة البرجوازية .

ويمكن بسهولة ، كشف الجذور الطبقية لعلـــم الاجتماع البرجوازي المعاصر ، الذي ينفذ المتطلبات الاجتماعيةللامبريالية . ولكن يجب ان لا ننسى أن علم الاجتماع البرجوازي المعاصر يرتكز على جذور فلسفية ، فهو كزهرة عقيمة ، او كشجرة لبـــلاب تتسلق شجرة المعرفة النامية لحياة المجتمع المعاصر . ان كـــل نظرية اجتماعية برجوازية معاصرة تعتمد على ميزة ما من ميزات الواقع ، ولكن هذه الميزة ، عندما تتحول الى مطلق ويصيبهـــا التضخيم والمبالغة الميتافيزيقية ، تؤدي الى الفهم الخاطىء للميزة نفسها ، وللصورة كلها ككل اجتماعي . وتتطفل كل نظرية اجتماعية برجوازية لتحرف قضية هامة ما من قضايا الحياة الاجتماعية المعاصرة . اذن لا تقتصر مهمة النقد الماركسي على دحض الطابع

الرجعي للنظريات الاجتماعية البرجوازية فقط ـ لاشك ان هذا الدحض ضروري الا انه جزء من المهمة ـ فالنظرية الماركسية ـ اللينينية ، أثناء نقدها للنظريات المعاكسة ، مدعوّة ايضا الى تقرير وحل تلك القضايا ، التي عرضها ايديولوجيو البرجوازية فقرروها وحلوها بشكل خاطىء . وهذا مبدأ من أهم المبادىء التي تعتمد عليها الماركسية اللينينية العلمية في نقدها للايديولوجية البرجوازية .

وعند نقدنا لعلم الاجتماع البرجوازي ، نصطدم بمهمة عسيرة ذات طابع منهجي علمي ، نصطدم بضرورة تصنيف الاتجاهات الرئيسية لهذا العلم . فعلم الاجتماع البرجوازي المعاصر هو مزيج لعدد كبير من الاتجاهات والمدارس والنظريات المختلفة ، التي لاتشبه أنهاراً تصب في شاطىء معين ، ولا يمكن رسمها بدقة على خارطة ، بل هي أشبه بشلة من الخيوط المتشابكة ، ويرجع ذلك الى ان علم الاجتماع البرجوازي لا يعتمد التتابع ولا الدقة الفكرية . فمثلا يمكن للاصطفائيين ان يجمعوا بسهولة بين عناصر من مختلف المدارس والاتجاهات المتباعدة . لهذا فأي تصنيف للاتجاهات الرئيسية في علم الاجتماع البرجوازي يحمل طابعا تقريبا ونسبيا .

هناك بالطبع خصائص عامة واتجاهات تميز علم الاجتماع البرجوازي . وسنورد هذه الخصائص والاتجاهات في الفصول القادمة . كما يوجد ميزات عامة ، يمكن على أساسها تصنيف الاتجاهات الاساسية في هذا العلم . واذا أخذنا بالمبدأ التاريخي ، نجد انه قد ظهرت في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن

العشرين ، في علم الاجتماع البرجوازي ، المـــدارس والمذاهب الرئيسية التالية :

١ ـ **المذاهب البيولوجي** : ويضم هذا المذهب النظريات الاجتماعية التي تحاول شرح تركيب وقوانين تطور المجتمـــع الانساني بمساعدة المفاهيم المأخوذة من البيولوجيا . وبتعبيـــر آخر ، يستبدل ممثلو هذا المذهب قوانين الشكل الاجتماعـــي لحركة المادة ــ (وهو الشكل الاعلى والاكثر تعقيدا من اشكال حركة المادة) ــ بقوانين الشكل البيولوجي لحركة المادة ــ (وهو الشكل الادنى والأبسط من أشكال حركة المادة) ــ إن هـــذا الأسلوب الذي هو عبارة عن نشوء للفلسفة الآلية الميكانيكية ، يستخدمه ايضا ، وبشكل واسع ، باحثون إجتماعيون لا يمتون بصلة الى المذهب البيولوجي .

ويخلو المذهب البيولوجي من التجانس ، ويتألف من عدة مدارس اهمها :

آ ــ **المدرسة العضوية** : ويؤوّل ممثلو هذه المدرسة تركيب المجتمع الانساني بالقياس الى الكائن الحي البيولوجي . حتى ان بعضهم يذهب الى ابعد من ذلك ، فيساوي بين التركيب العضوي الاجتماعي (المجتمع) وبين التركيب العضوي للكائن الحي . ويعتبر العالم الانكليزي سبنسر هـ. (١٨٢٠ ــ ١٩٠٣) مؤسسا للمدرسة العضوية في علم الاجتماع البرجوازي . وقـــد قارن البنية العضوية الاجتماعية بالبنية العضوية الحيـــة للانسان ، واكد سبنسر أن الكائن العضوي الحي والمجتمع هما في البدايـــة

عبارة عن وحدة آليات Aggregates ، ثم تنمو مجموعة هـذه الآليات وتصل في بعض الحالات الى النمو والكبر آلف مرة . وقال سبنسر إن تركيب هذه الآليات ، يكون بسيطاً جدا ، في البداية، لكنها تتعقد في ظروف نموها على حساب تمايز الاجزاء . وفي الوقت نفسه تنمو العلاقـات والتبعيات المتبادلة بيـن اجزاء التراكيب العضوية ، وتتم عملية التكامل فيما بينها . وبتنفيذ كل جزء لوظائف معينة خاصة به ، يتعلق بالاجزاء الاخرى ، ولا يمكن استبدال هذا الجزء بأجزاء اخرى .

وأعلن سبنسر ان المجتمع الانساني كالجهاز العضوي الحي ، له غطاء جلدي هو الجيش ، وله نظام الاوعية الدموية ، وهـي طرق المواصلات والاتصالات ، وله نسغه الغذائية ، وهي دورة البضائع الخ ... واعتبر سبنسر الرأسماليين كمنظمين للانتاج، يؤدون دوراً حساسا وتنظيميـا في المجتمع يشبه دور الجهـاز العصبي في الكائن الحي العضوي .

صحيح ان سبنسر لم يساو ، بشكل كامل ، بين البنيـة الاجتماعية والبيولوجية ، واعتبر الفرق الرئيسي بينهمـا ان الناس لا يفقدون فرديتهم ، ولا يمكن للكل ـ للمجتمـع ـ ان يبتلعها ، في حين أن الخلايا والاجهزة الحية لا تملك مثل هـذه الفردية . ولكن بشكل عام ، افترض سبنسر ان قوانين التطور تؤثر تأثيرا مماثلا تماما في مختلف مجالات الوجود ، وان التطور الاجتماعي لا يختلف ولا يتميز بشيء عن التطور في عالم النبات والحيوان ..

كان سبنسر من انصار التطورية لكنه فهم التطورية ، بشكل

ميتافيزيقي. فالتطور ـ كما يراه سبنسر ـ عملية كمية فقط، خالية من القفزات ، ومن التوقف في التدرج ، تؤدي الى زيادة او نقصان الشيء والقوة . واكد سبنسر ان الوضع الطبيعي لأي نظام او جهاز بما فيه البنيان الاجتماعي ـ هو **التوازن** ، وأن اختلال التوازن هو وضع مؤقت وشذوذ لا يلبث التوازن ان يحل محله.

وانطلاقا من هذه النظرة ، اعتبر سبنسر الصراع الطبقي والثورة خروجا عن الوضع الطبيعي او مرضا في البنية الاجتماعية. وقد عارض سبنسر ، بشدة ، الاشتراكية وسمّاها « نظام العبودية المقبلة » ، التي لا يمكن ان تستقر طويلا ، وستحل محلها « الحرية » و « العدالة » ، وسيعود المجتمع الى الوضع « الطبيعي » الذي يقصد به البناء البرجوازي .

وتتداخل عند سبنسر عناصر الآلية (الميكانيكية) وعناصر المذهب الطبيعي المبتذل مع المثالية . اما من الناحية الفلسفية ، ومن حيث آراؤه الفلسفية ، فهو وضعي ولا ادري ، لقد نفى سبنسر إمكانية معرفة الاشياء ، واعترف بوجود قوى سرية لا يمكن معرفتها وإدراكها الا في حالة دينية .

هذا ، ولا تلاقي المدرسة العضوية ، بالشكل الذي عرضه سبنسر ، قبولا كبيرا لدى علماء الاجتماع البرجوازيين المعاصرين. الا ان مدرسة التحليل البنيوي الوظيفي تستخدم بعض افكارها المهمة .

ب ـ ومن النظريات الاجتماعية ذات الاتجاه البيولوجي نظرية **الداروينية الاجتماعية** ، الى تنقل آليا الى المجتمع بعض

قوانين التطور البيولوجي التي اكتشفهـا داروين . ويعتبر الداروني-ون ـ الاجتماعيون الحرب الطبقية نوعا من انواع « الصراع من اجل الوجود » القائم في العالمين النباتي والحيواني، يؤدي الى انتصار البنيات الاقوى ، اما الظلم الاجتماعي واللامساواة في المجتمع فهي ـ برأيهم ـ نتيجة « للاصطفاء الطبيعي » أي يعتبرونها وضعا طبيعيا ودائما في المجتمع .

ومن اجل مضاربات اشد واقوى ، يستعمل بعض علماء الاجتماع البرجوازيون المنجزات الحديثة في علم الوراثة ، واكتشافات المعبرين الماديين عن الوراثة ، فيفسرون التاريخ بالمعلومات الوراثية التي تحتويها الصبغيات ، وعن ذلك ينتج ان اللامساواة الاجتماعية واستغلال الانسان للانسان ظاهرة طبيعية وابدية .

جـ ـ ولعل **العرقية** Racisme من أكثر المدارس ، ذات الاتجاه البيولوجي ، رجعية في علم الاجتماع ، وتنطلق النظرية العرقية من فرضية غير علمية تدعي عدم تكافيء الاجناس وتفوق بعضها على بعض من الناحية العقلية والسيكولوجية . وتعتبر الصراع الخالد الابدي بين الاجناس الجوهر الرئيسي للتاريخ الانساني ، كما تحاول العرقية وضع الاسس لاثبات ضرورة سيطرة الجنس « الاعلى » على الاجناس « الدنيا » وقد لعبت النظرية العرقية دور المبرز الايديولوجي للسياسة الاستعمارية ، التي تطمح الى اخضاع الشعوب والقضاء على الأحرار .

وسنتحدث عن **المالتوسية الجديدة** ، التي تعتبر من

النظريات البارزة في الاتجاه البيولوجي لعلم الاجتماع ، بالتفصيل فيما بعد .

٢ ــ **المذهب الجغرافي :** أقدم مذهب في علم الاجتماع البرجوازي . ويعتبر مؤسس هذا المذهب ، عادة ، المفكر الفرنسي مونتسكيو (١٦٨٩ ــ ١٧٥٥) . يؤكد مونتسكيو ان المناخ والتربة وحجم الارض ، وغيرها من العوامل الجغرافية ، تحدد قوانين الامم وأخلاقها . كانت هذه النظرية ذات طابع تقدمي ــ في حينها ــ حيث وُجهت ضد المفهوم الديني للتاريخ وضد الايديولوجية الاقطاعية عامة . ولكن لا يمكن اعتبار الحتمية الجغرافية ، التي نادى بها مونتسكيو ، تعبيراً عن وجهة النظر المادية في مسألة التقدم الاجتماعي . فقد بقي مونتسكيو في المواقع المثالية في فهمه للتاريخ ، ويرى ان القوانين والاخلاق (وهي التي تنشأ بتأثير وسط جغرافي معين) هي القوة المحركة الرئيسية للتاريخ .

ويعتبر بَوْكَلْ ــ الباحث التاريخي ــ الاجتماعي الانكليزي ــ من ابرز ممثلي الاتجاه الجغرافي ويرى ايضا ان الوسط الجغرافي هو المؤثر الرئيسي على الخصائص النفسية والخلقية للناس ، واما القوة الرئيسية المحركة للتاريخ فهي الافكار (هنا يأخذ « بَوْكَلْ » براي كونت) .

ويتمثل الاتجاه الجغرافي في علم الاجتماع البرجوازي المعاصر بنظرية « السياسة الجغرافية او سياسة الارض Geopolitics » وهي من أكثر النظريات رجعية ، وقد حاولت

هذه النظرية تدعيم سياسة الامبريالية العدوانية ، ورُقّيت الى رتبة الشريعة الرسمية للهتلريـــة . وقد نمت وانشرت هـــذه النظرية في الولايات المتحدة الامريكية والمانيا الغربية بعد الحرب العالمية الثانية . ويرى انصار هذه النظرية في الصراع من اجل « المجال الحيوي » القوة المحركة للتطور التاريخي ، ويقوم هذا الصراع عن طريق الحروب واحتلال اراضي الغير . ويستخدم انصار « سياسة الارض » ايضا أفكار المالتوسية الجديدة وغيرها من النظريات الكاذبة ذات الاتجاه البيولوجي في علم الاجتماع .

٣ ـ **المذهب السيكولوجي** : ينطلق هذا المذهب الاجتماعي من ان العنصر الاول والمؤثر في حياة المجتمع يرجع الى نفسيـــة أفراد منفصلين او فئات اجتماعية . فهو ذو اتجاه مثالي واضح: العنصر الاجتماعي ينحصر في العنصر النفسي ويذوب فيه .

ويمكن تقسيم النظريات النفسية للمجتمع ، اصطلاحا ، الى مجموعتين رئيسيتين :

آ ـ الاتجاه السيكولوجي الـذاتي في علم الاجتمـــاع :

ويؤمن انصار هذا الإتجاه بـــأن سلوك الانسان في المجتمـــع ، والتنظيمات الاجتماعية كلها ، مشروطة ومتعلقة ، بشكل مباشر، بخصائص ومميزات النفسية الانسانية ، ومن أمثلة هذا الاتجاه: الفرويدية ، والنيوفرويديه (الفرويدية الجديدة) المطبقة فـــي شرح الظواهر الاجتماعية .

خرج الطبيب النفساني النمساوي زيجموند فرويد بنظرية

تقول : ان الوعي الانساني تحدده الرغبات الباطنية اللاواعية والغرائز ، وأهم هذه الغرائز الغريزة الجنسية : الليبيدو ، اما الفرويديون الجدد فيقولون بأن دوافع السلوك الانساني لاتحددها الغريزة الجنسية فقط ، بل كل الغرائز : غريزة الأبوة والأمومة، وغريزة السعي نحو الغذاء والحصول عليه ، وغريزة النزاع ، وغريزة الحرص ، وغريزة الخضوع للاقوى ، وحفظ النفس الخ ... ويؤكد انصار الفرويدية الجديدة ان هذه الغرائز بتحديدها لسلوك الناس ، تؤثر ، وبشكل حاسم ، على سير التاريخ ، فمثلا ، يعتبرون ان اسباب الحروب هي وجود غرائز المنازعة والاعتداء عند الانسان .

ان عيب الفرويدية الرئيسي هو مسخها للنفسية الانسانية وتحويلها الى حقل مستقل تماما ومعزول كليا عن الوسط المادي، وتقليل اهمية دور النشاط العصبي العالي وتفكير الانسان . ويصرح انصار الفرويدية الجديدة ، بأن مجموعة الغرائز اللاواعية لا تخضع للتحليل العلمي ، ومع ذلك فهذه الغرائز ، وهي التي لا شيء يحددها ، هي نفسها تشكل السبب العميق والحقيقي للسلوك الانساني . ويستطيع الانسان المتحضر ان يضغط على غرائزه ، ولكن لمرحلة معينة ، تظهر بعدها هذه الغرائز ، عاجلا ام آجلا ، وتخرج من اعماق اللاوعي او تتحول الى مختلف انواع الامراض النفسية والانفعالية العصبية .

وليست الفرويدية الجديدة الا ضرب من ضروب اللاعقلية، فهي تنفي دور العقل وتعتبر النفسية الانسانية قوة لا يمكن ادراكها ولا يمكن ادارتها او تسييرها . وبما انه من المستحيل

تغيير طبيعة الانسان ، ومن غير الممكن اعادة تربية الانسان او اصلاحه ، اذن يمكن القول سلفا ، ان كـل المحاولات المبذولـة لتغيير النظام القائم ، او لإنقاذ الانسانية من الصراعات الطبقية وحروب الإبادة واللامساواة الاجتماعية فاشلة ولا معنى لها ، وفي هذا الاستنتاج يكمن جوهر الفرويدية الاجتماعي السياسي الرجعـــي .

اما علم النفس الحقيقي ، الذي يستند الى اسس علمية ، فهو لا ينفي وجود مختلف انواع الغرائز والرغبات الكامنـــة في اللاوعي ، لكنه يعطيها الشرح المادي ، فعالَم الانسان الداخلي المعقد ، ونفسيته بطبقاتها المتباينة ، يحددها في نهـــاية الامر ، الواقع الحقيقي ونظام العلاقات المادية الاجتماعية . وكما أشار لينين الى استنتاج الماركسية « بأن تبعية سير الافكـار لسير الاشياء مطابق فقط للسيكولوجيا (علم النفس) العلمية »(١) .

ب ــ وأما المجموعة الثانيـــة مـــن النظريات النفسية ، ويسمونها أحيانا ((**المدرسة السيكولوجية**)) فهي تنظر للظواهر الاجتماعية نظرتها للظواهر السيكولوجية ، وتعترف بسيكولوجية الفرد كحقيقة واحدة . ويُعتَبر اصحاب هذا الرأي ، من الناحية الفلسفية ، مثاليين ذاتيين ، يُذيبون العالم الموضوعي كلـه في وعي الذات . وهذا هو حال كثير من ممثلي الاتجاهات الاخرى في علم الاجتماع البرجوازي المعـــاصر : كالاتجاه البيولوجـي والجغرافي وغيره ... ومع اعترافهم بأنه « عاملاً » ما مثـــل

---

(١) لينين : الاعمال الكاملة ج ١ ، ص ١٣٧ . « باللغة الروسية » .

السكان ، أو الوسط الجغرافي ، أو التكنيك ، هو اساس الحياة الاجتماعية ، فهم في الوقت نفسه ، يعتبرون ان هذا العامل لا يوجد بشكل موضوعي ، بل يوجد فقط في وعي الذات المدركة . وكما يقول الباحث الاجتماعي الامريكي آ. إينكيلس : « سيبقى التحليل الاجتماعي الصحيح لكثير من القضايا إما مستحيلا او ناقصا مشوها الى ان نبدأ باستخدام وتطبيق النظرية السيكولوجية والمعلومات النفسية، ونوحدها مع النظريات الاجتماعية والمعطيات الاجتماعية . وإني أؤكد ، فعلا ، أنه لم يقم في يوم من الايام اي تحليل اجتماعي مهما صغر دون استخدام نظرية سيكولوجية معينة» (١) .

ولعل إينكلس مصيب من ناحية واحدة فقط ، هي تقريره وإثباته لواقع انتشار الآراء النفسية في علم الاجتماع البرجوازي المعاصر . وبالواقع ، فإن جميع علماء الاجتماع البرجوازيين ، المنتمين الى المثالية الذاتية ، يأخذون بالنزعة النفسية السيكولوجية Psychologisme بالمعنى العريض لهذه الكلمة ، دون النظر الى تعدد مدارسهم واتجاهاتهم الاجتماعية .

اما اذا اخذنا النزعة النفسانية ، بمعناها الضيق او ما يدعى بالاتجاه البسيكولوجي ، فيمثله في الوقت الراهن علم النفس الاجتماعي البرجوازي ــ العلم الذي يقف في منعطف علمين : علم النفس وعلم الاجتماع . إن ممثلي علم النفس الاجتماعي البرجوازي يؤولون ويفسرون السيكولوجيا الاجتماعية، اي الخصائص السيكولوجية للطبقات والأمم والطوائف والفئات

(١) « علم الاجتماع اليوم : قضايا وآفاق » . موسكو ، ١٩٦٥ ، ص ٢٧٢ . « باللغة الروسية » .

الاجتماعية ، بشكل مثالي . فهم ينفون تعلق علم النفس الاجتماعي بالعلاقات الاجتماعية المادية ، كما انهم بعيدون عن المدخل التاريخي المحدد في تحليلهم للخصائص النفسية للفئات الاجتماعية .

ويمكن اعتبار **علم الاجتماع التجريبي** نوعا من انواع الاتجاه السيكولوجي ، وقد تحول هذا العلم (السوسيولوجيا التجريبية)، اعتبارا من السنوات العشرين لهذا القرن ، الى مدرسة رائدة في علم الاجتماع لبرجوازي . غير ان علم الاجتماع التجريبي يتميز . بخصائص مميزة . لهذا يفردون هذا العلم عادة ، في اتجاه خاص مستقل .

يعاني علم الاجتماع التجريبي ، في الوقت الحاضر ، أزمة عنيفة ، ويرى علماء الاجتماع البرجوازيون مخرجاً منها في محاولاتهم خلق نظريات اجتماعية عامة لا تخضع للتجريبية ، او لا تلتزم بمنطق الحقيقة Factologie ، ومن هذه النظريات ، نظرية تصعد الى مرركز الصدارة وهي مدرسة **التحليل البنيوي** الوظيفي .

ويعتبر قسم كبير من علماء الاجتماع البرجوازيين ، التكنيك والتنظيم الاجتماعي أساسا للتطور ، ويؤول بشكل مثالي وميتافيزيقي ، بعض خصائص الثورة العلمية ـ التكنيكية . وفي هذه الناحية ، تتحد تصورات ونظريات كثيرة مثل : « الثورة الصناعية الثانية » و « ثورة المديرين » و الناحية ، تتحد تصورات ونظريات كثيرة مثل : « الثورة الصناعية الثانية » و « ثورة المديرين » و « المجتمع الصناعي الموحد » و « مرحلة

النمو الاقتصادي » الخ ... ويؤلف مجموع هـذه النظريات اتجاها رئيسيا في علم الاجتماع البرجوازي ، سندعوه اصطلاحا بعلم الاجتماع الصناعي او الصناعية
La Sosiologie Industrielle, Industrialisme

وسنبحث بشيء من التفصيل النظريـات الاجتماعيـة البرجوازية ، التي تحاول الكشف عن التركيب الاجتماعي للمجتمع المعاصر . ويشترك في وضع هذه النظريات ممثلو مختلف المدارس والاتجاهات الاجتماعية ، لكنهم يصلون غالبا الى نتائج متشابهة، وهذا يقدم لنا اساسا لأن ندعوها بنظريات البنية الاجتماعيـة Theories des sociales structures ، كقسم خاص في علـم الاجتماع البرجوازي المعاصر .

واهم الاتجاهات في علم الاجتماع البرجوازي المعـاصر ، حسب رأينا هي : علم الاجتماع التجريبي ومدرسة التحليـل البنيـوي ـ الوظيفـي ، وعلـم الاجتمـاع الصناعـي ، ونظريات البنية الاجتماعية ، والمالتوسية الجديدة ، وسندرس هذه الاتجاهات في الفصول القادمة .

الفصل الأول

علم الاجتماع التجريبي

ينسب نشوء المذهب التجريبي Emperisme الى العشرينيات من هذا القرن . حيث ظهرت في تلك الأعوام ، في الولايات المتحدة الأمريكية ، أعمالا تمثلت فيها الخصائص النموذجية والمميزة لعلم الاجتماع التجريبي . ففي الأجزاء الخمسة من كتاب « الفلاح البولوني في أوروبا وأمريكا » ، أجرى مؤلفا هذا الكتاب و. توماس و ف. زنانيتسكي تحليلا مفصلا لحياة الفلاحين البولونيين المهاجرين الى الولايات المتحدة الامريكية . واستخدما في دراستهما ، بشكل واسع معلومات واقعية ، ووثائق شخصية، ومراسلات أجريت مع — ٢٨ — عائلة بولونية ، كما استعملوا السير الذاتية لبعض الافراد ، والاستجوابات وما شابهها ..

وقد كانت هذه الطريقة في البحث ، جديدة بالنسبة لعلم الاجتماع البرجوازي . وقد درس عدد كبير من الوقائع ، المحدودة الزمان والمكان ، ولم توضع استنتاجات عامة ، تتعلق بالنواحي الرئيسية لقوانين حياة المجتمع . كما اتبعت اجراءات خاصة وتكنيك للبحث يشمل : الملاحظة ، المقابلة ، الاستمارات، دراسة الوثائق ، التجربة والصياغة ، المعالجة الإحصائية للمواد

المجمعة ، ووضع المدارج والخطوط البيانية وغيرها ...

إن مثل هذا البحث هو بحث محدد ، بمعنى انـه يتعلق بالنواحي الخاصة والجزئيات المنفصلة للكل الاجتماعـي ، اي للمجتمع ، ويسمي الباحثون الاجتماعيون البرجوازيون هـذا البحث بالبحث التجريبي نظرا لأنهم ينطلقون فيه من التجربـة ويعتمدون على الوقائع .

وقد نُوديَ بهذه الطريقة كطريقة علمية صارمة لا تخضع لتأثير إيديولوجيـة ما أو فلسفة ، وكمـا قال انصار هـذا الاتجاه : إن ولادة السوسيولوجيا التجريبية هـي بمثابة تكون ونشوء المدخل العلمي لدراسة المجتمع . الا ان هذه الادعاءات لا اساس لها اذ لا يمكن فصل علم الاجتماع عن الفلسفة ، كما أن السوسيولوجية العلمية الحقيقية ترتكز على المادية لا علـى المثاليـة .

لم ينشأ علم الاجتماع التجريبي من الفراغ ، بل تأثر وتشرب تقاليد ثلاثة إتجاهات مثالية رئيسية على الاقل : علـم النفس الاجتماعـي البرجـوازي ، وفلسفة الوضعيـة الجديـدة Neopositivisme والبرجماتية Pragmatisme . إن علـم النفس الاجتماعي البرجوازي ، في دراسته لسيكولوجية الجماهير والجماعات والطبقات ، لا يعترف بأولوية الوجود الاجتماعـي ودوره المقرر بالنسبة للوعي الاجتماعي ، وكذلك ينطلق علـم الاجتماع التجريبي من أولوية الوعي ، ويعتبر الحوافز والعلل الفكرية سببا نهائيا للاعمال الانسانية ، ولهذا فإن دراسة واقع إجتماعي ما ، كفعالية فرد ما أو مجموعـة أفراد ، تنحصر في

ـدراسة الحوافز الفكرية لهؤلاء الافراد والخصائص النفسية لهذه المجموعة من الافراد .

إن الصلة بين علم النفس الاجتماعي البرجوازي ، والسيوسيولوجيا التجريبية قوية لدرجة دفعت بعض الباحثين الى المطابقة بينهما واعتبارهما علما واحدا(١) .

كما توجد قرابة داخلية متينة بين علم الاجتماع التجريبي والوضعية الجديدة ، حيث يؤكد ممثلو علم الاجتماع التجريبي ان على علم الاجتماع ان يبحث في الوقائع والوقائع فقط،ويصعب الاعتراض على هذا الامر ، فالوقائع هي كالهواء للعالِم ، وهي اساس لكل علم ، غير ان ممثلي السوسيولوجيا التجريبية ، شأنهم شأن الوضعيين الجدد ، يعالجون مفهوم « الواقع » بروح المثالية الذاتية Idealisme subjective ، فالوقائع حسب رأيهم ، خالية من اي محتوى موضوعي ، فهي «معطيات التجربة» فقط ، او « لغة العلم » أي مجموعة الأحاسيس الانسانية ، او تصاميم وتراكيب منطقية .

إن مثل هذا الاقتراب « العلمي الصارم » و « والوضعي »، يؤدي إذا ما نفذناه بتسلسل منطقي ، الى وحدانية الأنا Solipsisme ، اي يؤدي الى مقدمة غير منطقية سخيفة عن وجود ذات واحدة عارفة مدركة يذوب العالم الموضوعي كله ، في أحاسيسها وانطباعاتها .

وبتأثير الوضعية الجديدة ، يفصل التجريبيون ، بصورة

---

(١) أنظر ب.د.باريغين . السيكولوجيا الاجتماعية كعلم . لينينغراد ١٩٦٥ . « باللغة الروسية » .

مصطنعة ، الخاص والفردي ، عن العام وبعض الوقائع عن الكل .

كما أنهم لا يأخذون الوقائع بصلاتها العامة ، ولا كإبراز لطبيعة حياة المجتمع وسير عملياته العميقة ، بل كمجموعة منضدة بشكل آلي ، من الاوضاع المسجلة والمنفصلة للمادة المدروسة . لهذا فإن المنهج التجريبي لا يعطي أكثر من وصف ، او تقرير مبسط عن الوقائع والحوادث المنفصلة ، والمدروسة الملاحظة بشكل مباشر . وفي أفضل الاحوال يؤدي الى صياغة ما يسمى « بالقانون التجريبي » . ويعني الباحثون الاجتماعيون البرجوازيون بالقانون التجريبي ما سجل أثناء الملاحظة من انتظام وتكرار لظواهر معينة ، اما الصلة السببية بين هذه الظواهر فتبقى غير معروفة . ولكن اذا بقيت الصلة السببية والاستنتاجية للظواهر غير معروفة ، فكيف يمكن القول ان هذه الظواهر تعبر عن قانونية ؟ إن الصلة السببية والاستنتاجية هي أساس القانون ، والقانون هو تعبير عن الصلات العامة والضرورية ، وهو علاقة بين حقيقتين . ويعتبر المذهب الوضعي الجديد أن كلاً من مفهومي « جوهر » و « ضرورة » تجريد « ميتافيزيقي » لا علمي ، ولا يخضع للاختبار التجريبي . وفي هذه الحالة ليس « القانون التجريبي » قانونا ، في التصور الصحيح الديالكتيكي المادي لهذه المقولة .

وكما يرى الوضعيون الجدد ، فإن المفاهيم العامة مثل : « قانون التطور الاجتماعي » ، « الطبقة » ، « الامة » ، « الرأسمالية » ، « الاشتراكية » و «الديمقراطية» ، «الفاشية» ، و « الحرب » وغيرها لا تخضع للاختبار التجريبي ، ولا تحس بها الذات ، بشكل مباشر ، لهذا لا يمكن التثبت من صحتها او بطلانها ، ومن الواجب ، حسب رأيهم ادخالها في مجموعة

« المفقودة المعاني » . إن الحقيقة الواقعة تفرض علينا القول بأن منطق الوضعية الجديدة لا معنى له ، اذ يطمح الى إفراغ الفلسفة وعلم الاجتماع من مضمونهما الحقيقي .

وقد خضعت الابحاث التجريبية ، أخيراً خاصة تلك الابحاث التي أُجريت في أمريكا ــ لتأثير الفلسفة البرجماتية Pragmatisme وهي فلسفة تستخف بالنظرية وتحتقرها ، وتفسر مبدأ « نفعية » الحقيقة ، بابتذال وتشويه ، وتطري التطبيقية الضيقة (البراكتيسزم Practisisme)

وتؤدي التجريبية الى إفراغ السوسيولوجيا كعلم ، من مادتها وموضوعها . ويرى ب. لازارسفيلد العالم الاجتماعي الامريكي الكبير ان السوسيولوجيا ــ خلافا للعلوم الاجتماعية الاخرى ــ ليس لها موضوع دراسة محدد ودقيق . ومهمة السوسيولوجيا الرئيسية ــ حسب رأيه ــ هي وضع التكتيك والطرق والاساليب للأبحاث التجريبية التي يمكن استخدامها في أي علم اجتماعي : كالاقتصاد والحقوق وعلم السكان الخ ... إن لازارسفيلد وغيره من انصار علم الاجتماع التجريبي قدموا اشياء كثيرة الفائدة ، كوضع الطرق الاحصائية والرياضية لدراسة المواد الواقعية ، الا ان محاولتهم لحرمان السوسيولوجيا ، كعلم ، من مادة البحث الخاصة بها مغرقة في الخطأ .

ويظهر الاتجاه نحو توزيع علم الاجتماع على المواد ، في تفكك وتفتت المذهب الاجتماعي الواحد الى عدد كبير من « السوسيولوجيات » لا تتصل الواحدة منها بالأخرى مثل : السوسيولوجيا الصناعية والسوسيولوجيا السياسية ،

وسوسيولوجيا الحقوق ، والتربية ، والعائلة ، والدولة ، والطب ، وسوسيولوجيا الأمراض النفسية و « المجموعات الصغرى » منها الخ ... ففي أمريكا ، يوجد اكثر من مائة نوع من أمثال هذه « السوسيولوجيات » .

والشيءالوحيد والموحد لكل هذه الانواع من «السوسيولوجيا» المبعثرة هي طرائقية الابحاث التجريبية . ويصف علماء الاجتماع البرجوازيون الابحاث ويعتبرونها إجتماعية لا على أساس موضوعها بل حسب طرائقية البحث . الا ان هذا التصنيف خاطىء من الاساس ، اذ تختلف العلوم بعضها عن بعض لا بطرائقها ، بل بموضوعها ، قبل كل شيء ، وبمادة بحثها .

وتحمل بعض الابحاث التجريبية ، لباحثين برجوازيين إجتماعيين ، طابعا تطبيقيا بحتا ، وتجرى بناء على توصيات وطلبات الاحتكارات والشركات التي تهتم بأوضاع أسواق الترويج ، وأذواق المشترين ، وتأثير الدعاية ... الخ ... وليس من المنطق ، طبعاً ، نفي القيمة التطبيقية لهذه الابحاث ، ولكن لا يوجد أي اساس لاعتبارها أبحاثاً سوسيولوجية ، اذا اخذنا بالمفهوم الصحيح ، او بالنظرة الصحيحة لمادة السوسيولوجيا كعلم عن القوانين العامة لتطور المجتمع .

ويولي الباحثون الاجتماعيون البرجوازيون الاهتمام الكبير بدراسة الرأي العام ، ومشاكل التصويت وأمزجة الناخبين . وتنشأ في أمريكا ، وغيرها من البلدان الراسمالية معاهد خاصة للرأي العام ، تخدم حاجات الاحزاب السياسية البرجوازية والاجهزة الادارية ، كما تنفذ هذه الابحاث التوصيات والطلبات

الاجتماعية المباشرة للبرجوازية وأجهزة السلطة الاحتكاريـة ، التي تهتم ـ حفاظا على سلطتها وسيطرتها ـ بالأمزجة السياسية لجماهير الشعب الواسعة .

وعدا عن الوظيفة الإعلامية او دراسة الهزآت السياسية (السيزموجرافيا)(١) ، التي تحاول حـدس وتخمين الهزآت الداخلية لسخط الشعب ، هناك كثير من الابحاث المشابهة تخدم هدف الاستدرآج السياسي المباشر لجماهير الشعب ، بشكل ملائم للبرجوازية الاحتكارية .

وعلى أساس مثل هذه الابحـاث ، التي تبدو ملموسـة ومحددة جيدا ، وواقعية صحيحـة ، توضـح استنتاجـات استغلالية مفرضة ، مفعمة بروح الدفاع وآلمنافحة عن البرجوازية والعداء للاشتراكية والشيوعية . فمثـلاً ، يعترف البـاحث الاجتماعي المعروف د. ريسمان في كتابه « وجوه في ازدحـام . طريقة شخصية لدراسة الطباع الانسانية والسياسية » ، بأن الهدف النهائي والاخير للابحاث السوسيولوجية المحددة التـي تجري في امريكا هو وضع « رقابة على الافكار » ورقابة علـى طباع الناس وسلوكهم .

ويحاول ريسمان ، باستخدامه طريقة الاستجواب واعتماده على الوقائع فقط ، كما يزعم ، إدخال فكرة زائفة عن الاستثنائية الامريكية ، وبآن واحد يعلن أن الماركسية هي « ايديولوجيـة القرن التاسع عشر المندثرة » ، وحسب قوله « حققت آمريكا ،

---

(١) السيزموجرافيـا : دراسة الزلازل وتسجيلهـا ، والمقصود هنا الهزات السياسية (المترجم) .

خلال السنوات الأخيرة ، كثيراً من المهمات العامـــة للسياسة الاوروبية اليسارية التقدمية . وخصوصا ، فقد حصلت على تأمين الحقوق الاجتماعية ، ومراقبة الاعمال التجارية واعـادة توزيع الارباح والرفاهية . ونتيجة لهذا كله ، فلن يبحث الامريكيون بعد الآن عن نموذج لتحقيق طوباوياتهم وخيالاتهم السياسية في بلدان أخرى »(١) .

وعندما نأخذ بعين الاعتبار مثل هذا التحكم بالوقائع ، علينا ان نذكر كلمات لينين الرائعة عن أنه « اذا أخذنا الوقائع ، بكليتها وبصلاتها ، فهي ليست شيئا « عنيدا » فقط ، بل بالتأكيـــد شيئا مقنعاً ايضاً . أما اذا اخـذناهـا بشكل جزيء وناقص ، في لا تتعدى اللعبة او ما يشابهها »(٢) .

ومع هذا فمن الخطأ اعتبار جميع الباحثين الاجتماعييـن التجريبيين دعاة للامبريالية ، واعداء الداء للشيوعية . فبينهم كثير من الناس الشرفاء المبتعدين ـ ذاتيا ـ عـن السياسة ، والمقتنعين بصدق ، ان ابحاثهم ذات صفة حيادية بعيدة عـــن اية ايديولوجية . وكثيرا ما تضم مؤلفاتهم ، التي تحروا فيهـــا الدقة والمستوى العلمي الرفيع ، المعلومات الموضوعية الا انهـا « موضوعية في القليل النادر لصالح التحزب والميل عن الموضوعية في الكثير »(٣) كمـــا تقول الباحثة الاجتماعيـــة السوفيتيـة اندريفا غ. م.

---

(١) D. Riesman. faces the growd. new haven. 1965. P. 40, 42

(٢) لينين المؤلفات الكاملة ج ٣٠ ص ٣٥٠ . « الطبعة الروسية » .

(٣) غ.م.أنوربيفا « علم الاجتماع التجريبي البورجوازي المعاصر » موسكو ١٩٦٥ ص ٢٩ .

ويكمن ميل هذه الابحاث عن الموضوعية وبعدها عنها . في محاولتها التعويض عن دراسة القضايا والمشاكل الملحة للتطور الاجتماعي المعاصر بدراسة تفاصيل منفردة ، وقضايا جزئية .

هذا وهناك كثير من الابحاث التجريبية، لباحثين اجتماعيين. برجوازيين ، تتضمن توصيات عملية من اجل « تحسين » بعض جزئيات المجتمع الرأسمالي ، ووصفات لعلاج بعض قرحاته ونواقصه . كما ان هناك عددا غير قليل من الباحثين «التجريبيين» السوسيولوجيين ، المؤيدين لفكرة الاصلاحية البرجوازية . فيوجهون اهتمامهم لدراسة الظواهر ، التي يعتبرونها شاذة عن الوظيفة « الطبيعية » للبناء الرأسمالي ، وعند بحثهم لأسباب الاجرام والدعارة وغيرها من ظواهر « السلوك الشاذ » عند الفرد ، يَدَّعون ويتخذون دور معالجي ومطببي عيوب الرأسمالية ونواقصها ، التي لا تعالج ، والمتصلة مباشرة بجوهر الرأسمالية نفسها .

ويحتوي كثير من هذه الابحاث ، بغض النظر عن قصد مؤلفيها ، على مادة واقعية غنية ، تفضح وتفند خرافة الطابع « الشعبي » و « الانساني » للبناء البرجوازي . ومن هذه الابحاث الكتاب الذي وضعه **كيفوفير** السيناتور الامريكي و **تيل** . وكيفوفير هذا هو عضو مجلس الشيوخ الامريكي ، ورئيس اللجنة الفرعية ، التي شكلها المجلس الامريكي، لبحث قضايا الاحتكارات. ويبحث الكتاب نشاطات الاحتكارات المنتجة للأدوية ، كما يحتوي على معلومات واقعية صادقة توضح وتبين الارباح الخيالية التي تجنيها الاتحادات الاحتكارية لانتاج الادوية ، من المرضى ومن

آلام الناس ومعاناتهم ، دون أي رقيب او محاسب .

وصرح ممثلو احتكارات انتاج الادوية ، امام اللجنة الفرعية التي يراسها كيفوفير ، بأنهم يحددون أسعاراً للادوية ، تؤمن لهم « ارباحا جيدة ! » تتراوح نسبتها بين ٣٣٪ الى ٣٨٪ ، والفقراء مرغمون على شراء الادوية بأغلى الاسعار . وقد اثبتت اللجنة ، خلال بحثها ، أن احتكارات الادوية كثيرا ما تنتج وتبيع في الاسواق مستحضرات ذات تأثير شيء ومميت على صحة الانسان.

ويخرج كتاب كيفوفير هذا عن إطار الأبحاث التجريبية البحتة ، فيستخلص النتيجة التي يعبر اسم الكتاب عنها : « سلطة الاحتكارات في أيد قليلة في امريكا » . وقد جاء في مقدمة الكتاب : « في حياتنا اليومية ، تأخذ الاحتكارات أتاوتها ، متسللة الى الجيوب بهدوء ، وسالبة قسما من أموالنا وارزاقنا . وأما الباقي ، فيوزع ، بالنسبة لكثير من الناس ، من اجل تلبية المتطلبات الضرورية الملحة الحياتية » . وقد جهد كيفوفير من اجل كشف مكائد الاحتكارات ، ولكنه كان يسير وراء هدف طوباوي خيالي هو : « تحسين » وإصلاح الراسمالية ، عن طريق حماية الاقتصاد الامريكي والمستهلك من سلطة الاحتكارات المطلقة .

ومن الانواع الخاصة في علم الاجتماع التجريبي ، اتجاه يسمى السوسيولوجيا المجهرية « الميكروسوسيولوجيا Microsociologie » او يطلق عليه احيانا اسم « القياس الاجتماعي[1] Sociometrie . وفيه تؤخذ مجموعة من

---

(١) القياس الاجتماعي Sociometrie : طريقة تحديد العلاقات الاجتماعية أو الشخصية بين أعضاء الجماعة . وهي وسيلة لتحديد الاجتذاب والاعراض في داخل الجماعة – عن : معجم مصطلحات علم النفس . محمد مصطفى زيدان ، أحمد محمد عمر . القاهرة . مكتبة الانجلو – مصرية . (المترجم) .

الافراد ، كموضوع للدراسة في الميكروسوسيولوجيا ، وتقسم هذه المجموعة ، من اجل دراستها ، الى قسمين : آ - البنية الماكروسكوبية (الكبيرة) Macrostructure ، او الملاحظةالمباشرة لتوزع الافراد في الخارج (في الاتساع) مثل : (وجودهم في أماكن عملهم ، أماكن سكنهم ، وما شابهها . . .)

ب - البنية المجهرية (الميكروسكوبية) Microstructure

او العواطف والأحاسيس التي لا يمكن ملاحظتها بشكل مباشر ، ويحسها الفرد تجاه بقية أفراد المجموعة (المشاركة الوجدانية ، والميل الطبيعي ، أو النفور الغريزي ، الألفة والمودة ، أو الكراهية ... الخ ..) .

ومهمة الميكروسوسيولوجيا (علم الاجتماع المجهري) - حسب رأي أنصار هذا الاتجاه - هو إيجاد التوافق والتطابق بين البنية الماكروسكوبية (الكبيرة) والبنية الميكروسكوبية (المجهرية) ، اي وبشكل مبسط ، توزيع الافراد في الانتاج ، والصف المدرسي ، وأماكن السكن والمطعم الخ ... ، بشكل يكون فيه كل إنسان محاطاً بأفراد يشعر بالميل الطبيعي Sympathie والتعاطف نحوهم . ويقول مؤيدو هذه المدرسة : إن فعالية ونشاط المجموعة تكون أعلى ، عندما يكون الانسجام اكبر بين البنية الماكروسكوبية والبنية المجهرية . ومن اجل تأكيد هذه الفرضية اجرى مؤسس علم الاجتماع المجهري د. مورينو عددا من التجارب ، موزعاً افراد مجموعة ما حسب ميولهم وتعاطفهم . وقد حقق ، نتيجة لهذه التجارب ، بعض الارتفاع في انتاجية العمل في المعمل ، وتحسين النظام ورفع نسبة النجاح في الصف ...

وقد وضع د. مورينو تكنيكاً معقداً لبحث البنية المجهرية Microstructure ، وآتبع مدارج خاصة للقياس الاجتماعي ، من اجل التوزيع المناسب للافراد في المجموعة . وقد أحدث هذا التكنيك تأثيراً ايجابيا مشهورا في التجارب النفسية ، وعرض مورينو هذا التكنيك كطريقة عامة في علم الاجتماع ، وكأنه ، بهذه الطريقة ، يستطيع حل جميع التناقضات والتصدعات في البناء البرجوازي . وفي هذه الحالة ، يكتسب القياس الاجتماعي Sociometrie صفات الطوباوية (الخيالية) الرجعية . ويكمن النقص الجذري ، لعلم الاجتماع المجهري ، او القياس الاجتماعي في الفرضية المثالية القائلة بأولوية « البنية المجهرية » او العلاقات النفسية بين الناس تجاه « البنية الماكروسكوبية » (المرئية بالعين المجردة) للمجتمع . وان واقعا (ماكروسكوبيا) – مرئيا بالعين المجردة – مطلقاً ، كانقسام المجتمع البرجوازي الى طبقات متناحرة ، لا يمكن ان تغيره اية طريقة من طرق « البنية المجهرية الميكروسكوبية » ، بل العكس صحيح ، فالكيان الاجتماعي ، قبل كل شيء ، وانتساب الفرد الى هذه الطبقة او تلك من طبقات مجتمعه ، يحدد العالم النفساني للشخصية ونظرتها الاجتماعية .

وهنا يبرز سؤال : ما هو الموقف الذي يجب أن تتخذه السوسيولوجيا الماركسية من علم الاجتماع التجريبي ؟ يمكن الاجابة على هذا السؤال مبدئياً بأن السوسيولوجيا التجريبية ، هي ، بلا شك ، إتجاهاً رجعيا في علم الاجتماع البرجوازي، يخدم المصالح الاقتصادية ، السياسية والايديولوجية للبرجوازية الاحتكارية . فعلى الماركسي أن يفضح ويفند ، بجرأة ، ادعاءات الباحثين الاجتماعيين – التجريبيين الرجعيين ، وفي الوقت

نفسه ، عليه ان لا يهمل المفيد من أعمالهم .

والمقصود هو : أولا : يمكن للمعلومات الواقعية القيمة ، المجمعة في الابحاث التجريبية ، أن تساعد على دراسة الحياة المعاصرة للمجتمع الرأسمالي ، في حال الادراك النظري الصحيح لها.

ثانيا : يمكن اقتباس الكثير من الطرق التقنية الفنية عن السوسيولوجيا البرجوازية التجريبية بشرط توفر المدخل النقدي لها .

وثالثا واخيرا : لا يمكن للماركسي ان يمر عرَضاً أمام تلك القضايا المطروحة في أعمال الباحثين الاجتماعيين البرجوازيين ، رغم أنها مقررة عندهم بشكل خاطىء . وقد تكلمنا آنفا عن خطأ وعدم جواز تقسيم السوسيولوجيا كعلم الى «سوسيولوجيات» عدة لا تربط بينها وذات آستقلال ذاتي . ولكن يجب ان لا نغفل عن ان علماء الاجتماع البرجوازيين يأخذون على عاتقهم حل مسائل تتعلق بنواحي هامة ومجالات ضرورية في الحياة الاجتماعية، ويقودون عملية وضع علم الاجتماع على جبهة عريضة . إن التقرير الخاطىء لهذه القضايا في السوسيولوجيا البرجوازية ، لا يعفي الماركسي ، بل على العكس ، يفرض عليه الاعداد الموضوعي لجميع هذه المسائل .

ويحاول علماء الاجتماع البرجوازيون ان ينسبوا الى انفسهم الاولوية في تنظيم واجراء الابحاث السوسيولوجية المحددة. غير أن الوقائع تثبت عكس ذلك ، اذ لا يمكن تصور السوسيولوجيا العلمية بدون إجراء التجارب والابحاث المحددة الملموسة بصورة مستمرة منتظمة ، وقد تأسس علم الاجتماع الحقيقي أو المادية

التاريخية منذ مائة سنة ونيف ، واستخدم مؤسسا الماركسية ، بشكل واسع ، الابحاث الاجتماعية المحددة ، بما فيها السوسيولوجية ايضا . وتبرز وحدة المدخلين ، المحدد الواقعي والنظري ، لدراسة الواقع الاجتماعي في لاعمال والنماذج الكلاسيكية مثل : « وضع الطبقة العاملة في انكلترا » لانجلز ، و « رأس المال » لكارل ماركس ، و « تطور الراسمالية في روسيا» للينين وغيرها ...

ويوسع الماركسيون ، ومن بينهم السوفييت ، الابحاث والدراسات السوسيولوجية الملموسة ، وينشروها ويطوروها ، معتمدين على التقاليد الفنية للماركسية في حقل الابحاث المحددة الملموسة ، ومستخدمين ، بشكل عملي ، افضل الموجود من هذه الابحاث في السوسيولوجيا التجريبية في الغرب .

وحتى الآن لم يُجمع الماركسيون المعاصرون ، على رأي واحد حول مادة علم الاجتماع الماركسي . فيعتقد القسم الاكبر من الفلاسفة السوفييت ان السوسيولوجيا الماركسية هي نفسها المادية التاريخية ، وأن الابحاث والدراسات السوسيولوجية الملموسة هي طريقة او اداة تستخدمها المادية التاريخية ، وتتحول المادية التاريخية بدونها (بدون هذه الابحاث) الى نظام جامد من المقولات المنفصلة عن الحياة . في حين يرى بعض الماركسيين، من السوفييت وغير السوفييت ، أن المادية التاريخية ليست سوى أساساً نظريا للسوسيولوجيا الماركسية ، التي هي علم مستقل مختلف عن المادية التاريخية . ورأينا نحن ان وجهة النظر الاخيرة ضعيفة الاساس ، فهي ، شئنا ام ابينا ، تتطابق وتتوافق مع مطامح المنظّرين الغربيين البرجوازيين ، في فصل

السوسيولوجيا عن الفلسفة ، وفي تحويل السوسيولوجيا الى علم خاص كليا ، اقرب الى العلوم التكنيكية ، يدرس « الهندسة الاجتماعيـــة » .

ولا يُفرّقون دائما ، عندنا ، بيـن الابحاث الاجتماعيـــة الملموسة ، والابحاث السوسيولوجية الملموسة ، في حيـــن ان المفهوم الاول (الابحاث الاجتماعية الملموسة المحددة) اوسع حجما من الثاني ويشمله كنوع ، أولون من آنواعه والوانه . وبتعبيـر آخر ، كل دراسة سوسيولوجية هي دراسة اجتماعيـــة وليس العكس . وتُجرى الـــدراسات الاجتماعية المحددة الملموســة وُتطبق في كل العلوم الاجتماعية : كالاقتصادية ، والحقوقيـة ، والتاريخية واللغوية وما شابهها ، وتتعلق بكل نواحي حيـــاة المجتمع ومجالاتها . اما الدراسات السوسيولوجية المحددة فهي حسب راينـــا ، دراسات وأبحاث واقعية ، تدرس الظواهـر الطبيعيةالعامة (أيالسوسيولوجية) لحياةبنواحيهومجالاتهالمستقلة المنفصلة . واذا لم نضع مثلهذا الحد المرن،والذييصعبتمييزه، فإننا نذيب السوسيولوجيا في العلوم الاجتماعية الاخرى ، وهذا يعود بالضرر على السوسيولوجيا ، بقدر ما يعود بالضرر نفســه على العلوم الاجتماعية الاخرى ايضا ، ومع هذا فقد شاعت ، في المدة الاخيرة ، عدوى تسمية مختلف انواع الابحاث الاجتماعية بالابحاث السوسيولوجية ، كالدراسات التي تبحث ، مثلا ، في إنارة مكان العمل في المصانع ، او اتجـــاه مواكب المسافريـن في وسائل المواصلات المدنية وما شابهها . وهنا يجب الاعتراف بأن هذه الابحـــاث ضعيفة القيمـــة ، لا تمت بصلـــة مبـــاشرة بالسوسيولوجيا .

ومن الظواهر العرضية التي تستحق الذكر ان التجريبية الضيقة « الزاحفة » تتعرض اكثر فاكثر ، ويوما بعد يوم ، للنقد من جانب علماء الاجتماع البرجوازيين أنفسهم . وهذه بلا شك ، علامة أكيدة ودليل واضح - على - على أزمة السوسيولوجيا البرجوازية التجريبية ، التي لا تستطيع تقرير المشاكل الجذرية للتطور الاجتماعي المعاصر .

وفي المؤتمر السوسيولوجي العالمي السادس ، المنعقد في إيفيان ، دعا جميع علماء الاجتماع البرجوازيين في خطبهم وكلماتهم ، التي ألقوها في الاجتماعات العامة ، الى توحيد الدراسات والابحاث التجريبية في نظرية سوسيولوجية عامة . الا أن مصيبتهم تكمن في عدم قدرتهم ، لأسباب طبقية وفلسفية ، على الارتفاع الى مستوى النظرية العلمية . وما يدّعون بأنه نظرية سوسيولوجية عامة ، ليس الا بديلا مشوها لصورة الحقيقة الواقعة .

ومنذ زمن ليس بالقصير ، حاول عالم الاجتماع الامريكي المشهور ر. ميرتون ، القضاء على ضيق أفق التجريبية وقصورها ، ويعتقد ميرتون أنه ، حتى الآن ، لم تخلق النظرية السوسيولوجية الشاملة العمومية ، وأن إحدى مراحل خلق مثل هذه النظرية ، يجب ان تكون ، حسب رأيه ، نظريات « المرتبة الوسطى » او « المستوى المتوسط » ، التي تتمتع بدرجة كبيرة من الشمول ، ويمكن ان تكون حلقة وصل بين الوصف التجريبي البسيط ، وتثبيت الوقائع من جهة ، وبين النظرية السوسيولوجية العامة الشاملة من جهة اخرى .

ويعرض ميرتون ، كمثال لمثل هذا التعميم المرحلي المتوسط ، الوضع التالي : « نسبة حوادث الانتحار عند الكاثوليك ، أقل منها عند البروتستانت » . ما سبب هذه الظاهرة ؟ يقرر ميرتون ان الكاثوليك يتمتعون بتماسك اجتماعي كبير أكثر من البروتستانت . ما سبب هذه الظاهرة ؟ يقرر ميرتون ان الكاثوليك يتمتعون بتماسك إجتماعي كبير اكثر من البروتستانت ، ويتضح هنا ان القيمةالادراكية لمثلهذا التعميم، قليلة وضعيفة ، ولا يمكن بالتالي ان تسمى نظرية حتى من « المستوى المتوسط » .

هذا ولا يمكن قطعاً ، رفض إمكانية ، بل وضرورةالتعميمات المرحلية في السير من دراسة الوقائع الى وضع نظرية عامة . الا ان المواقع الفلسفية الثابتة ، التي ينطلق منها علماء الاجتماع البرجوازيون ، تعيقهمعن فهم ديالكتيك إدراكالظواهر الاجتماعية، فهم ، عادة ، يضعون تجريدات شكلية لمفاهيم ، رغم انها تتمتع بحجم عريض اي تضم دائرة واسعة من المواد المتجانسة ، الا أنهم يعممون ، في هذه المواد ، دلائل ثانوية غير جوهرية . في حين ان التجريد العلمي الحقيقي هو مفهوم ليس عاما فقط ، بل وبالتأكيد ، غني المضمون ايضا ، بعكس الدلائل الجوهرية والضرورية للمواد . والسوسيولوجيا الماركسية بالذات هي التي وضعت نظام المفاهيم والمقولات العلمية ، التي تعكس القوانين ، اي الصلات والعلاقات العمومية والجوهرية الضرورية للمجتمع ، مأخوذة في تطورها التاريخي .

ويخطىء ميرتون في اعتقاده ، بأن من الممكن السير من

الوقائع الى صياغة نظرية من « المستوى الوسطي » ، ثم منها الى وضع نظرية سوسيولوجية عامة ، دون استخدام اية نظرية عامة . فهو لا يعي الترابط الديالكتيكي بين العمومي والخصوصي والفردي في الادراك . ان الادراك لا يضم الطريق الاستقرائي inductif فحسب (من الوقائع الى النظرية العامة)، ويضم ايضا ، وفي الوقت نفسه ، الطريق الاستنتاجي Déoluctif (من النظرية العامة الى الوقائع) . وهذا يعني ان العالِم عند دراسته وتعميمه للوقائع يستخدم ، ولا يمكنه ان لا يستخدم ، المقدمات النظرية العامة ، والمنهجية الفلسفية Methodologie التي تساعده على حل المتاهات المعقدة للوقائع التجريبية، وينطبق قانون الادارك هذا على كل بحث او دراسة .

ولا يستطيع علماء الاجتماع التجريبيون ـ المعادون للنظرية، التهرب من هذا الامر ، وهم ، كالعادة ، خاضعون لتأثير فلسفة الوضعية الجديدة . أما ميرتون فيستخدم في أبحاثه ودراساته، التجريبية ، فكرة ما يدعى بالتحليل البنيوي الوظيفي ، موضوع دراستنا في الفصل القادم .

الفصل الثاني

التحليل البنائي - الوظيفي (الوظائفي)

تشغل مدرسة التحليل البنيوي ـ الوظيفي حيزاً كبيراً في علم الاجتماع البرجوازي المعاصر . ويحاول ممثلو هذه المدرسة وابرزهم الامريكيان : ر. ميرتون وتولكوت بارسونز خلق نظرية سوسيولوجية « جامعة شاملة » ، يمكن أن تكون دليلا ومرشداً للابحاث التجريبية الملموسة .

ويحاول انصار هذه المدرسة تحليل المجتمع ككل ، لا بعض خصوصيات الحياة الاجتماعية وتفاصيلها ، مستخدمين بذلك المفاهيم ، بنية Structure ، و وظيفة Function ونسق أو نظام Systeme ، كمقولات رئيسية .

وينظرون الى المجتمع الانساني كنسق له بناءه المحدد .

ان نقطة الانطلاق في آراء بارسونز هو مفهوم ، نسق الفعل الاجتماعي Systeme of social action ويقول بأن تفاعل الافراد يحدث بشكل يمكن معه اعتبار هذه العملية كنظام يخضع للتحليل النظري ، ويطبق بنجاح في مختلف أنواع الانظمة في العلوم الاخرى.

ويرى بارسونز ان عنصر كل نسق إجتماعي هو الشخصية الانسانية كوجه فاعل أو « كبعض الجوهر » ، والميزة الرئيسية لهذه الشخصية تكمن في الطموح لتحقيق اهداف معينة ، وفي التأثير الانفعالي بالمواضيع والظواهر المحيطة .

ويعرف بارسونز البنية بأنها : مجموعة علاقات الافراد ـ البارزين الثابتة والقياسية نسبياً . الا ان الصفة المميزة لأنظمة الفعل الاجتماعي والبنى الاجتماعية ، كما يؤكد بارسونز ، تكمن في أن الفاعل ، او الشخصية الانسانية ، لا تشترك ، في أكثر الاحوال ، « كجوهر كلي كامل » ، بل تنفذ فقط ، وبشكل جزئي ، **دوراً إجتماعياً معيناً** . ولهذا يقول بارسونز بأن البنية الاجتماعية هي نسق العلاقات القاسية المتماثلة ونظام الافراد ـ البارزين الذين ينفذون ، نسبياً ، الادوار لبعضهم بعضاً . وهكذا فمفهوم الدور يجمع بين الشخصية الانسانية ، كوحدة سيكولوجية ، وبين البنية الاجتماعية المعينة .

ولا يقتصر استخدام مفهوم « الدور الاجتماعي » ، في الواقع ، على مدرسة التحليل البنيوي ـ الوظيفي ، بل تستخدمه ايضا مختلف مدارس علم الاجتماع البرجوازي المعاصر . ويؤكد علماء الاجتماع البرجوازيون ان المجتمع يفرض على الانسان الادوار الاجتماعية ، ويتحول الفرد بذلك الى ممثل على المسرح الاجتماعي. فقدكتب عالم الاجتماع الالماني الغربي المشهورر. دارندوف R. Dahrendorf « ينتظر من المستشار العلمي ، والمحاسب ، والحرفي في المصنع ، وعضو المجلس الانتاجي نوع معين من النشاط ذو قوة الزامية . وما لوائح (قوائم) التوقعات هذه الا الوحدة

الاولية للبنية الاجتماعية الانتاجية ، ونسمي هذه التوقعات بالادوار الاجتماعية »(١) . ثم يتابع حديثه فيقول ، بأنه لايوجد فرد ، من وجهة نظر السوسيولوجيا ، بدون أدوار اجتماعية فالانسان « النظيف » لامندوحة له من التعلق والانجذاب والارتباط بالمجتمع ، الى ان يتحول الى انسان اجتماعي Homo Sociologicus عن طريق الادوار التي يقوم بها . وفي الحالة المعاكسة ، يتحول الفرد الى عدم ، لا شيء ، الى صفر (على الشمال) . ويضيف دارندورف قائلا : يمكنك ان لا تتنهد ، وان لا تتغنى بعيني عشيقتك ، ولكنك في هذه الحالة ستتوقف عن القيام بدور العشيق .

يحاول علماء الاجتماع البرجوازيون ، بواسطة مفهوم « الدور الاجتماعي » ، استغلال طبيعة الانسان الاجتماعية . ولا يمكن بالطبع ، اعتبار محاولتهم هذه ناجحة. لأنهم ، وقبل كل شيء ، يعالجون مفوم « الدور الاجتماعي » معالجة مفرقة في التجريد والشكلية . فالدور الاجتماعي ، حسب مفهومهم ، خال من الطابع الطبقي لطبيعة الانسان الاجتماعية . في حين ان الماركسية اثبتت ان جوهر الانسان هو مجموع العلاقات الاجتماعية ، وهذه العلاقات الاجتماعية تحمل ، بالتأكيد ، طابعا طبقيا في المجتمع الطبقي . كما أن مفهوم «الدور الاجتماعي» ، عند علماء الاجتماع البرجوازيين ، مطبوع بطابع الفلسفة الجبرية . صحيح ، حقا ، أن الانسان كائن اجتماعي ، متصل مباشرة بالمجتمع الذي يقدم

---

(1) R. Dahrendorf : socialstruktur des Betriels. Wiesbaden. 1959 S. 16

له طلباته ، وبعبارة اخرى ، على الفرد أن يأخذ الضرورة الاجتماعية بعين الاعتبار ، وأن يراعي ، في تصرفاته ونشاطه ، متطلبات الضرورات الموضوعية . ولكن من اكبر الخطأ ، تصوير الانسان ممثلا يلعب دوره ، او يلعب دورا ، حسب السيناريو المعد سابقا . وبالواقع فالناس ليسوا ممثلين فقط ، بل هم ، وقبل كل شيء ، صانعو ومؤلفو تاريخهم الخاص . كما يقترن الفهم الذاتي الارادي للفرد ، في السوسيولوجيا البرجوازية ، بعناصر الفلسفة الجبرية ، وبالحط من نشاط الفرد ودوره في الخلق والابداع التاريخيين .

وهكذا نرى ان المجتمع الانساني ، حسب راي بارسونز ، هو

نظام مستقل يؤدي وظيفته على حساب موارده الذاتية ، ومن ناحية اخرى ، ينظر بارسونز الى المجتمع الانساني نظرته الى نظام قائم ومؤلف من مختلف المجتمعات الوطنية ؛ كل منهما يشكل نظاما مستقلا نسبيا . وفي المؤتمر العالمي الرابع للسوسيولوجيا ، القى بارسونز كلمة بعنوان « نظام المجتمعات المعاصرة » . وعرض في هذه الكلمة فكرة رئيسية ، مفادها ان هناك نظام ـ واحد للمجتمعات المعاصرة ، هذه المجتمعات التي تميل نحو الوحدة والتكامل على اساس تكامل القيم المميزة الخاصة بهذه المجتمعات . وقدم بارسونز للسوسيولوجيا البرجوازية الدارجة ، نظرية عن تقارب Convergenes الانظمة الاجتماعية ـ الاقتصادية المتباينة (المتناقضة) . وسنتحدث عن هذا فيما بعد .

يرى بارسونز ان لكل نظام اجتماعي اربعة مستويات من التنظيم ،

١ - **المستوى الأوليّ او المستوى التكنيكي** ، يتميز بتفاعل العناصر المباشر ٢ - **المستوى الاداري** ، الذي ينظم تفاعل العناصر في المستوى الأولي ٣ - **المستوى التأسيسي Institutionnel** »

يدير ويقود قضايا النظام والترتيب الاعلى (مثل : مجلس المدراء في الوحدات الاحتكارية) . واخيرا ٤ - **المستوى المتعلق بالأوساط السياسية العليا** . وفي حال وجود مثل هذه التنظيمات . يقوم المستوى الاعلى بوظائف مراقبة ، وملاحظة وتنظيم المستويات الادنى منه .

وهكذا اقتربنا هنا ، الى اهم قضية من قضايا التحليل البنيوي - الوظيفي وهي مفهوم « الوظيفة Fonction » حيث أن المجتمع ، حسب وجهة نظر انصار هذه المدرسة ، هو نظام يؤدي وظيفة . ولكن ، ما المقصود من « الوظيفة » ؟ بالنسبة لهذا السؤال ، لا يوجد وضوح كامل ، لدى ممثلي هذه المدرسة. فهم يعترفون بأن هذه « الوظيفة » مفهوم غامض ومبهم للغاية . ولن يؤخذنا العجب من هذا الامر ، اذا علمنا ان انصار هذه المدرسة من الباحثين الاجتماعيين ، يحاولون في نظريتهم ، الجمع بين المفهوم البيولوجي والمفهوم الرياضي « للوظيفة » .

توصل ميرتون ، من خلال بحثه للمعاني المختلفة لاصطلاح « وظيفة Fonction » الى أن المهم في التحليل الوظيفي كنظرية سوسيولوجية ، هو المفهوم الرياضي لهذا الاصطلاح ، ولكن الاهم بالدرجة الاولى ، المفهوم البيولوجي . وفي الحالة الثانية (أي وفق المفهوم البيولوجي) ، يقصد بالوظيفة العمليات العضوية ، أو الحياتية والتي تبحث من وجهة نظر القسط الذي تساهم فيه للحفاظ على الكائن الحي كنظام عضوي . اما بارسونز

وتلاميذه فقد اقتبسوا أشياءً كثيرة عن سبنسر ، الذي يدعو الى تقريب المجتمع من الكائن الحي البيولوجي ، وقد تكلمنا آنفا ، عن خطأ مثل هذا المدخل . فالمجتمع ليس كائنا بيولوجياً بل كائن اجتماعي ، يتطور نوعياً حسب قوانينه الخاصة ، وهي القوانين التي لا يمكن ان تقود الى قوانين الاشكال الدنيا لحركة المادة .

الى جانب مفهوم « الوظيفة » يستخدم انصار التحليل البنيوي الوظيفي ، خاصة ميرتون ، مفهوم « اللاوظيفة » او اختلال الوظيفة disfonction » » واختلال الوظيفة هو الشذوذ عنها . وينسبون الى انواع اختلال الوظيفة ، اي شكل من اشكال « الاعمال التخريبية » ، ومنها الاضطرابات ، والتظـــاهرات ، والاضطرابات العنصرية ، وكذلك الإجرام وإدمـــان الخمر . وبالاختصار ؛ كل ما يُخل باستقرار وثبات النظام الرأسمالي ، حسب رأيهم . والدين ، برأي الكثيرين منهم ، هو الوظيفة الاهم، يؤمن وحدة وكمال المجتمع . وبالمقابل فالالحاد يدعونه باختلال الوظيفة ، يخرب وحدة النظام .

اما المفهوم الرياضي للوظيفة « التابع »(١) ، وتعلق التوابع فهو اكثر تعقيداً . من المعروف أن الوظيفة « التابـــع » يعني في الرياضيات التوافق بين المقادير المتغيرة اولا ، ويعني المقـــدار التابع المتغير ثانيا . فاذا كانت القيمة المعطية لـ : (x) المستقلة المتغيرة تحدد قيمة المقدار (y) ، فعندها تسمى (y) بالتابع الاول ، ويمكن صياغتها رياضياً على النحو التالي :

F = تابـــع (y) تابع لـ (x)　　$Y = F(x)$

(١) اصطلاح Fonction الوظيفة، كاصطلاح رياضي يطلق عليه «التابع» ـ المترجم.

ويعتبر مفهوم الوظيفة (التابع) ، في التحليـل الرياضي الحديث ، مفهوماً رئيسياً ، يمكن التعبير بواسطته عن الناحية الكمية لكثير من قوانين الطبيعة . وتستخدم ، كما نرى هـا ، الوسائط الرياضية ، ومن بينها مفهوم « التابع » من اجل دراسة الظواهر الاجتماعية . على ان تستخدم هذه الوسائـط بشكل مثمر ، وأن لا تؤدي الـى أخطاء الادراك الميتافيزيقي المثالـي السمجة ، وبشرط ان لا ننسى آن دور هذه الوسائط الرياضية، ثانويا في دراسة الظواهر الاجتماعية . وقد غابت هذه الحقيقة عن أذهان ممثلي الوظيفية Fonctionalism في علم الاجتماع . انهم يتجاهلون الخاصة الكيفية لمختلف الكائنات الحيةالاجتماعية، ولا يعترفون بوجود الصـلة السببية الحقيقية في الظواهـر الاجتماعية ، مستبدلين بها تبعيتها الوظيفية ، هذه التبعية التي يمكن فيها للقيمة المستقلة التابعـة ، وللوظيفة (للتابـع) آن تتبادلا مكانيهما حسب وجهة نظر الذات المدركة . ان نفي وجود التبعية السببية المجرد ، يؤدي الى نفي الوجود المجرد للضرورة التاريخيةوالطبيعيةايضا،ويفقد السوسيولوجيا قيمتها العلمية.

إن الخطأ الجـذري للتحليل البنيوي الوظيفي لا يكمن في استخدامه لمفاهيم البناء ، والنظام والوظيفة ، بل في تأويـل وتفسير هـذه المفاهيـم بشكل محـرّف . وتستخـدم السوسيولوجيات هذه المفاهيم ، لكن السوسيولوجيا الماركسية ، وحدها ، تعطي هذه المفاهيم محتوىً علمياً ماركسيا . فمثلاً تستخدم المادية التاريخية مفهوم « الكائن الحي الاجتماعي » الا انها تستخدمه بمعنى آخر غير ما يقصد به في السوسيولوجيا البرجوازيـة .

يرى أنصار التحليل البنيوي الوظيفي ، في الكائن الاجتماعي، نظاما اجتماعيا ابديا لا يعرف التطور والانتقال الى وضع كيفي جديـــد .

لقد ادخلت الماركسية ، لأول مرة في التاريخ، مقولة رئيسية سوسيولوجية هي «مفهوم التشكيلة الاجتماعية ـ الاقتصادية» ، عوضاً عن الجدل التجريدي الميتافيزيقي العام عن المجتمـع . يؤلف التغير والتبدل المتعاقب للتشكلات الاجتماعية ـ الاقتصادية المضمون الرئيسي للتقدم التاريخي . وما التشكيلة الاجتماعية ـ الاقتصادية الا كائن حي اجتماعي ، موجود في سير عملية التطور .

وان أساس هذا التكوين هو الاسلوب المحدد للانتاج .

ويمكن الحديث ايضا عن الوظـــائف ، والأداء الوظيفــي (للجسم) الاجتماعي ، او لبعض عناصره ، كالحديث عــن وظائف الدولة مثلاً . غيــر ان هذا مفهوم اجتماعــي وليس مفهوما بيولوجياً او رياضيا ، ويأخذ هذا المفهوم بعين الاعتبار الخصائص الكيفية للظواهر الاجتماعية ، والاختلاف الجذري للشكل الاجتماعي عن الاشكال الدنيا كلها لحركة المادة .

ان التحليل التركيبي (البنيوي) ـ الوظيفي بإهماله للتشكيلة الاجتماعية ـ الاقتصادية، يفسر السوسيولوجيا بمجاهل ومتاهات من الجدال المدرسي الكلامــي والتصورات العقيمة ، البعيــدة المنفصلة عن الحياة الواقعية .

إن اقسام الجسم الاجتماعي ، التي تؤدي وظيفتها وتعمل بشكل صحيح ، تعزز وتدعم النظام كله . وكيف نحدد ، اتؤدي

الاقسام المنفصلة للجسم الاجتماعي وظيفتها بشكل صحيح ام لا ؟ من البديهي ، أن توجد مجموعة ما من المقاييس ، وهي ليست مقاييساً لتحديد صحة أداء الجهاز الاجتماعي العام كله لوظيفته فقط ، بل كما يقول ت. بارسونز هي ايضا نقطة رؤية لسلوك كل « المواطنين الطيبين » .

ويعتبر أنصار النظرية ، أن كل انحراف ، أو خروج في اعمال الناس عن نظام المعايير او القيم المسيطر في المجتمع ، يولد تأثير « اللاوظيفة ، او الاخلال بالوظيفة dis fonction » .

ومقولة القيمة هذه ، هي من المقولات الرئيسية في السوسيولوجيا البرجوازية ، ولا تقتصر على مدرسة التحليل البنيوي – الوظيفي . وليست مصيبة السوسيولوجيا البرجوازية في استخدامها لهذا المفهوم (ان استخدامه مشروع حتى في السوسيولوجيا الماركسية) بل في تأويلها المثالي والميتافيزيقي للمفهوم المشار اليه . وحسب راي بارسونز فإن بواعث واهداف الافعال الاجتماعية لا تحددها الاسباب المادية ، بل تحددها سيكولوجية « الممثلين » وينقاد « الممثلون » في هذه الافعال من قبل نظام القيم ، أو القواعد والقيم المقبولة بشكل عام (المتعارف عليها) . ومع اعطاء القيم معنى النماذج المطلقة والابدية ، الا ان الحديث يدور هنا – في الواقع – عن قيم القوانين والاخلاق البرجوازيين ، وكذلك عن « القيم » الدينية . وأهم هذه القيم الملكية الخاصة . وكما يقول ميرتون « تؤكد الثقافة الامريكية ، بمختلف الوسائل ، قيمة المال والسلطة كمقياس « للنجاح » القانوني لكل اعضاء المجتمع . ومع ان المال والسلطة لم تكن

أهدافا رئيسية تفرضها ثقافتنا ، أو تضعها نصب اعينها ، ومع ذلك يبقى المال ، وتبقى السلطة اكثر القيم اهمية » .

وكما يرى انصار التحليل البنيوي ـ الوظيفي ، واكثرية الباحثين الاجتماعيين البرجوازيين ، فان هذه القيم خاصة ، تؤمن وحدة وكمال الفرد ، وتكمل المجتمع كله ، بمختلف طبقاته الاجتماعية المنتسبة اليه . وهكذا يحاول علماء الاجتماع البرجوازيون إبراز قيم طبقتهم ، وإظهارها بمظهر المعايير الخالدة ، البعيدة عن التطور التاريخي لسلوك الانسانية كلها .

لقد اثبتت الماركسية ـ اللينينية ، أن كل القيم الاجتماعية السياسية ، وقسماً كبيراً من القيم الروحية يحمل طابعا طبقياً، بشكل حتمي في مجتمع الطبقات المتناحرة . ونجد في هذا المجتمع المتناحر فهما مختلفا ، بل ومتناقضا احيانا للحرية ، والعدالة ، والخير والشر الخ ... فمثلا اذا كانت حرية استغلال الايدي العاملة المستأجَرة ، إحدى القيم الاجتماعية الاساسية ، بالنسبة للبرجوازية ؛ تنظر البروليتاريا ، المناضلة من اجل تحررها ، وتعتبر هذه الحرية قيمة سلبية . وتعلّمنا الماركسية أن القيم الاجتماعية السياسية والروحية ، تحمل طابعا ثانيا مشتقا ، فهي لا تظهر ابدا وفقا للاهواء الذاتية ، بل تحتمها وتولّدها علاقاتها الاجتماعية المادية .

وما هو الجواب الذي تعطيه مدرسة التحليل البنيوي ـ الوظيفي حول ظهور القيم ونشوءها ؟ يبدو ان هذا سؤال عويص ، لا يمكن الاجابة عليه بالطرق العلمية ، كما يرى بارسونز

اذ أنه قال حرفيا : هناك بعض من قضايا الادراك «لايمكن تقريرها وحلها بطرق العلم التجريبي » ، لهذا ترضى وتُقرّ بالعجز الانساني وضعفه امام الكون . (١) . ان مصدر القيم هو « مجال غير تجريبي » ، اي ، الله ، بعبارة أخرى . وهكذا تعترف مدرسة التحليل البنيوي ــ الوظيفي ، الطامحة للصرامة العلمية ، بعجزها الذاتي وتعلن على الملأ ضعفها ، فتتجه الى الدين ، طالبةمنهالعون. ان التقليل من أهمية العلم ، وإخضاع العقل للدين (وهي الخاصة المميزة للايديولوجية البرجوازية المعاصرة كللها) ، لتدل على أزمتها العميقة .

ولِفَهم المقدمات المثالية ، التي تنطلق منها مدرسة التحليل البنيوي الوظيفي ، لابد لنا من البحث في عنصر من العناصر التي تستخدمه هذه المدرسة وهو « نظرية الفعل الاجتماعي » النظرية المرشحة لتكون نظرية عمومية شاملة للسلوك الانساني .

كتب بارسونز يقول « يرتكز النظام الاجتماعي ، عند تأسيس البنية ، على فرد او (شخصية) انسانية محددة ، ينظر إليها كجهاز عضوي طبيعي ، ينشط في وسط حي طبيعي . ويشترك هذا الفرد كشخصية ، في سير عمليات التفاعل الاجتماعي عبر ادواره المختلفة »(٢) . وتنتظم الادوار وتُوحَّد ، من اجل تشكيل وحدات جماعية (جماعات) ، وتدار هذه الجماعات بدورهاحسب أنظمة المعايير والقيم ، المتدرجة في العلو والارتفاع (اعلى فأعلى) .

---

(١) كوفاردبيكر ، آلفين بوسكوف : النظرية السوسيولوجية المعاصرة فيتعاقبها واختلافاتها . موسكو ١٩٦١ ص ١٤٠ .

(٢) ت. بارسونز : القضايا النظرية العامة للسوسيولوجيا ـ « السوسيولوجيا اليوم . قضايا وآفاق » ص ٣٠ .

وفي قمة النظام (النسق) يظهر المجتمع كنظام كامـــل ، منظم في مجموعة سياسيةموحدة ، وله نظام واحد من المعايير والقيم يدركها الافراد في أفعالهم .

وهكذا فالمجتمع ، كنظـام اجتماعي كامـــل ، حسب رأي بارسونز ، يتألف ، في النهاية ، من ملايين الافراد المنعزليـــن ، الذين يقومون بالافعال كرد (كجواب) علـــى رد فعـــل الوسط الاجتماعي . وعدا عن الفرد ، الذي يسميه بارسونز « ممثـــل »، لابد من « وضعية Situation » موجهة و « سلوك الممثـــل » الموجَه للوصول الى الهدف . كما انه لابد ايضا من المعاييـــر او القيم الموجهة للفرد . ولا يظهر « الفعل الاجتماعي » الا بتوفر هذه العناصر كلها .

و « الفعل الاجتماعي » ، كما يرى بارسونز ، هو الخليـــة الاولى او وحدة الانطلاق للنظام الاجتماعي كله . يضع بارسونز هذا المفهوم في أساس نظريته ، بما ان المجتمع في النهاية يتألف مـــن افراد ، يؤدون « الفعل الاجتماعي » ، يؤكد بارسونز ، أننـــا اذا اكتشفنا آلية هذه الافعال ، نستطيع عندها فتح الطريق ، لشرح اية ظاهرة اجتماعية . الا ان مأربه هذا لا يمكن تحقيقه .

وفي صيغة علمية تعبيرية ، يثبت بارسونز حقيقة مبتذلة : ان التاريخ يخلقه الناس الواعون ، الذين يضعون نصب اعينهـــم اهدافا ما ، توجههم في ذلك وتقودهم القواعد والمعايير وماشابهها، ولكن ما الذي يحدد البواعث الفكرية لنشاط الناس ؟ وما هـــو اساس هذا الهدف المفترض ؟ . لا تقدم نظرية التحليل البنيوي

الوظيفي اي جواب صحيح حول هذين السؤالين . ويدور علماء الاجتماع البرجوازيون في حلقة مفرغة لا يستطيعون الخروج منها: وعي الانسان يحدده وعيه . ولا تشذ نظرية الفعل الاجتماعي عن هذا القياس . لقد تمكنت الماركسية وحدها فقط من الكشف عن الاسباب الحقيقية ، والبواعث الفكرية لنشاط الناس الاجتماعي وفعاليتهم . وتتأصل هذه الاسباب ، كما هو معروف ، في العلاقات الانتاجية المادية ، وفي شكل الانتاج ، وفي الوجود الاجتماعي ، الذي يحدد وعي الناس الاجتماعي .

وتنحصر المهمة الرئيسية لنظرية التحليل البنيوي ـ الوظيفي في البرهان على ثبات واستقرار المجتمع البرجوازي ، وفي خلق الظروف المناسبة لأداء وظيفته على اكمل وجه . ويحاول بارسونز وميرتون إظهار التحليل البنيوي ـ الوظيفي كطريقة محايدة ، ايديولوجياً ، للدراسات الاجتماعية ، ويمكن للسوسيولوجيين ، الرجعيين منهم والتقدميين استخدامها ، حسب زعمهما الا ان الواقع غير ذلك ، فالتحليل البنيوي ـ الوظيفي نظرية سوسيولوجية رجعية ، تدافع عن النظام الرأسمالي المهترىء ، وما فطر عليه هذا النظام من معايير وقيم ، أهمها الملكية الخاصة لوسائل الانتاج . ويرى مؤسسو هذه النظرية ، أن أي نشاط أو فعل ثوري ضد أسس الرأسمالية ، هو شذوذ اجتماعي يهدد سلامة الجسم الاجتماعي . ان هذه النظرية المدافعة عن الرأسمالية مفرقة في الميتافيزيقية . وتعتبر هذه النظرية الاتزان (التوازن) وضعاً طبيعيا للمجتمع . كما يؤكد ممثلو مدرسة التحليل البنيوي ـ الوظيفي أن اختلال التوازن، والتغييرات الاجتماعية والاصطدامات،

رغم انها محتملة ، الا اننا غير ضرورية ، ويمكن تلافيها والقضاء عليها . اي ، وبتعبير آخر ، يعتبرون لحظة الهدوء والاستقرار مطلقة ودائمة ، وينفون تقدم المجتمع وتطوره .

ولقد اكد بارسونز في الخطبة التي القاها في المؤتمر الدولي الخامس للسوسيولوجيا ، انه في الوقت الحاضر ، تتشكل نظرية واحدة ؛ كما يَدّعي ، تتوحد فيها مختلف الاتجاهات والمذاهب في السوسيولوجيا البرجوازية . كما يزعم ان العاملين في الابحاث التجريبية الملموسة ، لم يعد يتوهموا في الظلمات ، فلقد تسلحوا بنظرية سوسيولوجية عامة ويقصد نظرية التحليل البنيوي ــ الوظيفي بالطبع . ان هذه الادعاءات وأمثالها غير صحيحة ، ولم تحقق هذه النظرية ، نظرية بارسونز « العمومية » و « الكبيرة » آمال مؤيديها ، فما زالت هذه النظرية بناءً نظريا تجريديا، لايمكنها تقديم اية اقتراحات عملية للسوسيولوجيين ، المشتغلين بالابحاث المحدودة الملموسة .

يجب ان نذكر ، في هذا المجال ، أن مدرسة التحليل البنيوي ــ الوظيفي ، تتعرض لنقد مرير من ممثلي المدارس والاتجاهات الاخرى في السوسيولوجيا البرجوازية المعاصرة .

ورغم تصريح بارسونز القائل بأنْ لا يُنظر الى النظرية البنيوية ــ الوظيفية كمدرسة من مدارس السوسيولوجيا ، بل « كمرحلة تطور أعم للفكر النظري في العلوم الاجتماعية »(١) ، فإن

---

(1) « Fact und Theory im social science ». New - york, 1964, P. 140

كثيرا من علماء الاجتماع البرجوازيين لا يوافقون على ادعائه هذا . ويشيرون الى كثير من نقائص الوظيفية « Fonctionalism » كالغموض اللفظي ، والتجريد ، والانفصال عن الحياة الواقعية ، والنزعة المحافظة ، والطموح لابقاء الوضع الحالي ، وازدراء قضية تغيير الواقع الاجتماعي ، وما شابهها ....

حتى ان بعض النقاد ، يشير بتهكم الى تصنع بارسونز وادعائه ، فهو الذي يتفوه بالاشياء البذيئة المبتذلة ، بلهجة جدية ، وبلغة وعرة . فقد كتب أستاذ جامعة هارفرد الامريكية ك. تسيمرمان : لم تخلق مدرسة التحليل البنيوي الوظيفي «أكثر من أطر – يمكن فيها وصف النظام الاجتماعي ، ولا أكثر من الوصف . وما أشبهها بأن نقول ان الكرسي مصنوع من الخشب ، له اربع قوائم ، وظيفته ان يجلس الناس عليه ، وان هذا الكرسي لا يؤدي وظيفته اذا كان الجلوس عليه مستحيلا . وعلى هذا النحو يبدو النظام الاجتماعي فارغ المعنى . أما القيم فهي قادرة على « التجمع » فقط ، وإدراك المجتمع ينمحي ، ببساطة ، أو يحتقر . ان هذه النظرية لا تمت الى التغير الاجتماعي بصلة ، ولا يمكن ان تكون دليلا في الحلول والقرارات التي علينا إتخاذها »(١) .

اما عالم الاجتماع الامريكي التقدمي **ش. ر. ميلز** فقد وجه نقدا مريرا لنظرية بارسونز « الكبيرة » و « العالية » ، وكما يقول ميلز فقد ترجم كتاب بارسونز « النظام الاجتماعي » الى « اللغة الانكليزية » ، أي كشف المحتوى الفعلي للكتاب . ويروي

(١) « Contemporary political ideologies » New-york, 1961, P. 28

ميلز فيقول : إن النظرة الاولى للكتاب ، او الانطباع الاول عنه ، أنّ مؤلّف بارسونز الرئيسي عبارة عن طاقم بسيط من الكلمات، ولكن ثبت ان هذا غير صحيح ، فحوالي ٥٠ ٪ من محتواه طاقم كلمات ، و ٤٠ ٪ معلومات مدرسية معروفة ، تفيض بها كتب علم الاجتماع المدرسية ، اما الـ ١٠ ٪ المتبقية فيمكن ان تكون تطبيق إيديولوجي ، ضبابي بعض الشيء . ويكمن التطبيق الايديولوجي هذا لنظرية بارسونز « العالية » في الميل الى « تدعيم أشكال ثابتة للسيطرة » اي في الميل الى تخليد النظام الراسمالي .

إن واجب النقد الماركسي للنظريات الايديولوجية البرجوازية، لا يقتصر على كشف الجذور الطبقية ، والاتجاهات الحزبية ، السياسية لهذه النظريات ، بل يتعداه الى الكشف عن الجذور المعرفية لها . وبالطبع لا يمكن أن نقيّم مدرسة التحليل البنيوي الوظيفي على أنها طاقم كلمات بسيط ، بالرغم من ارتفاع نسبة المدرسية والضبابية فيها . تتخذ هذه المدرسة ، وبشكل ميتافيزيقي ، أحد أوجه الإدراك الاجتماعي ، مطلقا . وبإبرازها ، قبل كل شيء للعلاقات البنيوية الوظيفية ، التي تميز موضوعيا ، الجهاز الاجتماعي ، فانها لا ترى وراء هذه الصلات ديالكتيك التطور الاجتماعي بتعقيداته وتناقضاته .

الفصل الثالث

علم الاجتماع الصناعي أو السوسيولوجيا الصناعية

يعترف كثير من العلماء البرجوازيين بأزمة السوسيولوجيا التجريبية ، فيحاولون ايجاد مخرج من الازمة ، مدركين ان من الصعب تفادي تلك التطورات الجذرية ، والتغييرات الثورية ، التي تعيشها الانسانية في الوقت الراهن . لهذا يتقدم علماء الاجتماع البرجوازيون ، في السنوات الاخيرة بنظريات ، تطمح لاعطاء تعميمات ، وتحاول رسم لوحة عامة للحركة التاريخية ؛ او تطرح ، على الاقل ، بعض مشاكل التطور الاجتماعي المعاصر .

اما عالم الاجتماع الانكليزي البرجوازي ج. هـ بلمب J. H. Blumb فيرى أن أزمة العلوم الاجتماعية مرهونة برفض أكثرية العلماء لفكرة التقدم . والآن « يتجنب المؤرخون ، والفلاسفة ، وانبياء التاريخ المبسطون (يقصد هنا آ. توينبي — المؤلف) هذه الفكرة تجنبهم للطاعون »(١) . ويتابع بلمب فيقول: ان التاريخ ، بالنسبة لهم ، عالم تخيلات ناشئة عن حوادث حقيقية ، إنهم يختلقون الماضي ، ويتقدمون بتأكيدات واثباتات كاذبة للمستقبل .

---

(1) John Horald Plumb : Crisis in the humanities London 1964. P. 36 Penguin Books.

ويتابع بعدها بلمب ، مشيرا الى الخلفية الحقيقيـة لحملـة السوسيولوجيين البرجوازيين على فكرة التطور ، فيقول : إن فكرة التقدم متصلة بالماركسية ، ولذا أصبحت فكرة مشبوهة . غير أن هذا النقد موجه لتقوية مواقع الايديولوجية البرجوازية ، فبلمب خصم وعدو للمـادية التاريخيـة ، فهو يطلق اسـم « الدوغماتية » على الفهم الماركسي للتقدم الاجتماعي ، وهو التقدم المرتبط بالثورات الاجتماعية . اما وجهة نظره فالتقدم موجود ، الا أنه متوقف ، وبشكل كامل ، علـى تطور التكنيك ، الـذي يَحُل ، آليا ، المشاكل الاجتماعية كلها . ورأي بلمب ليس شاذا ، بل نموذجي ، لذلك الاتجـاه ، في السوسيولوجيا البرجوازية ، والمختص في تشويه القوانين الطبيعية لتطور العلم والتقنية . ويمكن تسمية هذا الاتجاه ، الذي يضم مجموعة كبيرة من النظريات والتصورات المختلفة ، بشكل اصطلاحي « **بعلم الاجتماع الصناعي** Sociologie industrielle او السوسيولـوجيـا الصناعيـة Industrialisme . وتدخل ضمن هذا الاتجاه نظرية « الثورة الصناعية الثانية » التي انتشرت ، ولاقت رواجا واسعا ، خاصة ، لدى الاوساط الاشتراكية ـ الديمقراطية اليمينية .

نظرية « الثورة الصناعية الثانية » : أطلق مؤسسو الماركسية ـ اللينينية اسم الثورة الصناعية على مرحلة من مراحل قيام وتوطد شكل الانتاج الراسمالي . وقد حدثت الثورة الصناعية ، بشكلها الأنقى والأوضح ، في انكلترا في نهاية القرن الثامن عشر وبدايـة القرن التاسع عشر . وجوهر هذه العملية كان في استبدال الانتاج اليدوي المانيفاكتوري Manufacture بانتاج المصانع ، وفي التعميـم الجماهيري الواسع لعمل راس المال ، والانتصار النهائي لعلاقات

الانتاج البرجوازية . وكان في أساس الثورة الصناعية ، الانقلاب التقني : المتصل باختراع آلات تصنيع القطن ، والمحرك البخاري ، وإدخالهما الى حقل الانتاج . واستناداً الى هذه القاعدة ، نشأت تغيرات نوعية (كيفية) في شكل الانتاج كله .

وهكذا ، نرى ان مفهوم « الثورة الصناعية » اوسع حجما من مفهوم « الثورة العلمية ، التكنيكية » ، فالمفهوم الاول عدا عن انه يضم الثاني ، يمتاز بكونه تحويلا جذريا لعلاقات الانتاج .

ويطلق المُنظّرون البرجوازيون ـ الاصلاحيون اسم «الثورة الصناعية الجديدة » على الثورة العلمية ـ التكنيكية ، التي تجري في بلدان العالم المتقدمة صناعيا . ويؤكدون ، زاعمين ، أنه تحت تأثير التطورات الجذرية في العلم والتكنيك ، وتحت تأثير اتمتة الانتاج ، بالدرجة الاولى ، تتحول علاقات الانتاج البرجوازية ، سلمياً ، الى علاقات « ما بعد الرأسمالية » ، بل تتحول الى « علاقات اشتراكية » ، أما الرأسمالية ، فقد تحولت الى بناء « مابعد الرأسمالية » الجديد ، المتحرر من الاستغلال والتناقضات الطبقية .

وهذا هو عالم الاجتماع الاصلاحي المعروف ف. شتيرنبرغ F. Sternberg يُبشر « بالثورة الصناعية الثانية » التي تجري في البلدان الغربية ، ويَعِد ، في الوقت نفسه ، كادحي هذه البلدان . بجبال من ذهب « في امريكا ، خلال السنوات العشر ، أو السنوات الخمسة عشر القادمة ، وفي انكلترا واوروبا الغربية ، خلال فترة زمنية أطول ، سيتحقق ، وبشكل كامل ، الاتجاه للقضاء على

الفقر والعوز »(١) وعدا هذا فستنحل الأزمات، والبطالة ، ويتحقق التعليم الشامل والتربية للسكان كلهم . ثم يصرح بأن هذا يعني « ثورة اجتماعية » تحدث في « شكل تطوري » . ثم يتابع قوله : والقوى الدافعة لهذه التغيرات هي الأتمتة ، وارتفاع انتاجية العمل ، وزيادة المنتجات الهائلة إن نظرية « الثورة الصناعية الثانية » هي نظرية كاذبة . اما الثورة الصناعية (الاولى) فهي سير عملية النضج والتوطيد النهائي التاريخية ، لشكل الانتاج البرجوازي . وبما أن الاقطاعية والراسمالية هما تشكيلتان Formations ، من طراز واحد ، طبقيتان متناقضتان ، فإن عناصر شكل الانتاج البرجوازي تنضج في أحشاء الاقطاعية ، وقبل وصول البرجوازية الى السلطة السياسية بزمن طويل . أما علاقات الانتاج الاشتراكية ، فلا يمكن ان تنضج عفويا ، في أحشاء الرأسمالية ، كما هو معروف ، فهي تظهر وتتشكل ، فقط ، بعد انتصار الثورة البروليتارية وإقامة ديكتاتورية الطبقة العاملة . لهذا ، لا يمكن أن يؤدي تطور القوى الانتاجية ، آليا ، الى تبديل علاقات الانتاج البرجوازية (الراسمالية)، بعلاقات انتاج اشتراكية . وقد عرف التاريخ كثيرا من الانقلابات العلمية ، التقنية ، التي لم تؤد مباشرة ، الى ثورة اجتماعية ، كاختراع الكهرباء ، وانتشارها الواسع ، والمحركات ذات الاحتراق الداخلي ، والمواصلات الجوية ، وما شابهها ...

ويزيد التطور الشديد للقوى الانتاجية ، والثورة العلمية ـ التقنية الحديثة ، من حدة التناقضات الرئيسية في الراسمالية ،

F. Sternberg. Die militarische und die industrielle revolution. Frankfort Main, 1957, S. 238.

كالتناقض بين الطابع الاجتماعي للانتـــاج ، والشكل الفردي للملكية . الا ان هذا التناقض ، لا يمكن ان ينحـــل ، الا بالثورة الاشتراكية .

« **المجتمع الصناعي الموحد** » : يؤكد الباحثون الاجتماعيـون البرجوازيون أن « الثورة الصناعية الثانية » ، و « **ثورة المداخيل** (الايرادات) » وغيرهما من العمليات ، **ادت** الى ظور نظام اجتماعي جديد ، **يختلف** عن الرأسمالية . **وقد أطلق على هذا البناء** ، **في** المؤلفات البرجوازية ـ الاصلاحية اسم « المجتمع الصناعي » .

ماهي ميزة البناء « الجديد » الرئيسية ؟ . يحاول عالـــم الاجتماعي الغربي ر . دارندورف **R. Dahrendorf** الإجابة على هذا السؤال ، فيلوم ، قبل كل شيء ، ماركس ، **لأنه** لم يفرق دائما بين الرأسمال ـ الملكية والرأسمال ـ الوظيفة . يؤكد دارندورف ان الفرق بينهما مهم جداً . ويقول دارندورف أن مفهوم « المجتمع الصناعي المعاصر » مفهوم واسع ، اوسع مـــن مفهوم المجتمـع الرأسمالي ، علامته الاساسية هي الانتاج الآلي في المصانع والمعامل. أما المجتمع الرأسمالي فما هو الا نوع خاص من انواع المجتمـــع الصناعي ، حسب وجهة نظر عالم الاجتماع الالماني الغربي . ويرى أيضا ، أن الصلة الفعلية بين الملكية ومراقبتها هي الميزة او الخاصة النوعية للراسمالية ، وبما أن هذه الصلة (بين الملكية ومراقبتها) قد وهنت وضعفت ، فقد نما« **المجتمع الصناعي** » **واخترق اطار الرأسمالية . ويؤكد دارنورف أيضا أن «انفصال الملكية عن الرقابة»** أدى الى ظهور الشكل البنيوي الخاص ، الـــذي لا يفوق الشكل الرأسمالي ، حسب المعنى الدقيق لتعريفنا . ومع ان الملكية الفردية لوسائل الانتاج مازالت باقية ، من الناحية القانونية ـ الشكلية ،

الا انها فقدت وظيفة المراقبة . إن المالك القانوني لم يعد، هو نفسه، المدير الفعلي للانتاج »(١) .

يحاول الايديولوجيون البرجوازيون ، عن طريق التجريد الفارغ والهزيل ، محو الحد النوعي (الكيفي) ، الذي يفصل بين الاشتراكية والرأسمالية ، ويصرحون بأن البناء البرجوازي ، غدا ، مرحلة منقضية . كما يطلقون مختلف التسميات على « المجتمع الصناعي » : مثل « الرأسمالية الشعبية » ، و « الاقتصاد الانساني » ، و « دولة الرفاه العمومي » . أما المستشار السابق لجمهورية المانيا الاتحادية لودفيغ ايرهارد **L. Erhard** ، فيستعمل اصطلاح « المجتمع الناضج » .

ويؤكد في كتابه « السياسة الاقتصادية الالمانية . طريق الاقتصاد السوقي الاجتماعي(٢) » ، زاعماً ، انه في المانيا الغربية ، نشأ نظام اجتماعي ـ اقتصادي جديد ، يؤمن الرفاه والبحبوحة لعامة الشعب ، ويختلف ، بشكل جذري ، عن الرأسمالية التي « أجهز عليها » . وأما المبادىء الرئيسية لهذا النظام « الجديد » فهي : حرية الملكية الشخصية ، ونشاط رجال الاعمال . وتحولت الرأسمالية ، حسب وجهة نظر ايرهارد ، الى « نظام اقتصادي حر » ، لا اثر فيه للازمات ، والبطالة ، وضنك الجماهير الشعبية.

---

(١) R. Dahrendorf. Soziole Klassen und Klassenkonflikt in der industriellen Gesellschaft. Stuttgat, 1957, S. 44.

(٢) L. Erhard. Deutsche Wirtschaftspolitik. der weg der sozialen markwirtschaft. Dusseldorf - wien, 1962.

ان الرأسمالية ، كنظام اقتصادي مؤسس على الملكية الخاصة « لم يعد موجوداً » ، على حد زعمهم ، وحسب أقوال عالم الاجتماع الانكليزي ماغي B. Magee ، َفقَدَ فَقدَ الرأسماليون الرقابـة ، ليس على ملكياتهم فقط ، بل على الدولة ايضا ، وانتقلت السلطة الى ايد جديدة ، الى أيدي المديرين . وكل هذا أصبح ممكنـاً ومحتملاً ، نتيجة للتقدم التكنيكي المنقطع النظير ، ونتيجة للتغيرات الاجتماعية ، التي حصلت بفضل « الثورة الديمقراطية » . ومع ذلك ، فقد اضطر ماجي Magee الى الاعتراف ، بأن صفة واحدة، من صفات الرأسمالية الكلاسيكية (التقليدية) ، مازالت موجودة وباقية وهي : « اللامساواة الى ابعد حد »(١) .

وهناك كثير من أمثال هذه الآراء في المؤلفات البرجوازيـة الحديثـة . ويفضل بعض الباحثين الاجتماعيين البرجوازيين ، التحدث لا عن المجتمع الصناعي ، فحسب ، بل عن « المجتمـع الصناعي الموحد » ، عن مجتمع هجين ، يضم البلدان الرأسمالية، والاشتراكية معاً .

وتفترض نظرية « المجتمع الصناعي الموحد » ، أن الاختلافات النوعية (الكيفية) ، الموجودة بين الرأسمالية والاشتراكية، ستزول وتنمحي تدريجيا ، فالمجتمع البرجوازي يستوعب بعض الصفات الرئيسية ، التي تمتاز بها الاشتراكية ، والمجتمع الاشتراكـي ، بدوره ، سينقلب الى مجتمع رأسمالي ، ويسير الاثنان معاً ، في طريق البناء مابعد الرأسمالي ، ويتحولان الى مجتمع هجين ، على

(١) B. Magee : the democratic revolution. London, 1964, P. 12, 19.

اساس برجوازي . وسيحدث يوما ما ، كما يقول علماء الاجتماع البرجوازيون ، إلتقاء Convergence النظامين المتناقضين .
وكتب يو. غريفي في المجلة النظرية للحزب الاشتراكي الديمقراطي الالماني الغربي ، ما يلي : « هناك تغيرات جوهرية ، تجري في المعسكر الاشتراكي (الشرقي) ، الواقع تحت التأثير السوفييتي ، كما تحدث تغيرات اخرى في المعسكر الغربي ، الخاضع للتأثير الامريكي ، الاوروبي الغربي . وينطوي هذا التطور على ما يلي : تخطيط تقدمي اقتصادي ، وتأمين اجتماعي واسع في الغرب وفي الشرق : لا مركزية متوقعة (فرضية ، تخمينية) للاقتصاد ، وتوسيع وزيادة المواد الاستهلاكية ، واتجاه الحياة العامة والخاصة نحو الليبرالية والتساهل . بالتالي توجد مواقع انطلاق، من جانب الطرفين ، للتقارب البعيد ، كما يظهر الطرفان ميلاً للتقارب المتبادل »(١) .

يعتبر الباحث الاجتماعي الفرنسي ريمون آرون R.Aron من ابرز دعاة نظرية « المجتمع الصناعي الموحد » . ففي بحثه الوحيد الجانب للتقدم التكنيكي ، ينظر الى الراسمالية والاشتراكية « كشكلين لموضوع واحد او كنوعين من جنس واحد (من طينة واحدة) »(٢) . أما هذا الجنس الواحد فهو المجتمع الصناعي ، حسب رأيه . كما يؤكد الباحث الفرنسي ان كل الدول ، المنتسبة الى هذا النموذج الاجتماعي ، تطمح لاستغلال الثروات الطبيعية

---

(١) Die meue Gesellschaft, 1966, No. 3, S. 200

(٢) R. Aron. Dix - huit leçons sur la societé industrielle. Gallimard, 1962, P. 93, 25.

فيها ، ورفع انتاجية العمل ، من اجل خلق مجتمع الوفرة،ورفع مستوى معيشة السكان فيها .

غير ان آرون يبدي تعاطفاً مع الراسمالية . فهو ينسب الافضلية والتفوق للشكل الراسمالي من « المجتمع الصناعي » ، بينما يتعرض للاشتراكية بالنقد والتجريح . ويسمي الطريقة السوفيتية للتصنيع بأنها مغالية « بالشدة والصلابة » ، اما تجربة البناء الاشتراكي كلها ، فتصلح حسب رأيه ، للدول المتأخرة ، فحسب ، ولا تصلح للمجتمعات الغربية « الديمقراطية » . ويؤكد آرون ايضا : مع أن شكلي المجتمع الصناعي المذكورين غير كاملان (لم يصلا الى درجة الكمال) ، الا ان نقائص الغرب يمكن تفاديها والقضاء عليها اما عيوب ونواقص البناء الاشتراكي ، فلا يمكن القضاء عليها ، لاتصالها بجوهر البناء الاشتراكي نفسه .

ولا يتفق آرون مع علماء الاجتماع البرجوازيين ، المؤمنين بإمكانية الالتقاء (الاتحاد) السريع والآلي بين الراسمالية والاشتراكية في أي مجتمع هجين . ويرى أن ، من الصعب جدا ، القضاء على الحد الفاصل بين شكلي المجتمع الصناعي . ويعتبر آرون ، وهو محق في هذا ، أن الاصلاح الاقتصادي ، الذي يجري في الاتحاد السوفيتي ، لا يعني البتة ، العدول عن مبادىء الاشتراكية ، عن الايديولوجية الماركسية ـ اللينينية ، وعن الدور القيادي للحزب الشيوعي . وان النقطة الاخيرة ، هي بالضبط ، حسب رأيه ، « النقص الرئيسي » في البناء الاشتراكي . ويدعو الماركسية « إيديولوجية مصطنعة » منافية للوقائع . ومع ذلك ، يناقض آرون نفسه بنفسه ، ويعترف ، بأن البناء

السوفييتي ، الذي يعتمد الماركسية - اللينينية - اساسا نظريا له ، قوي وقادر على رفع المستوى المعاشي للسكان .

إن الهدف الرئيسي لآراء آرون النظرية الكاذبة ، هو إثبات بطلان (خطأ) التعاليم الماركسية حول السير الطبيعي - التاريخي لتبدل التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية ، ويدعوها «أي التعاليم الماركسية » آرون ب « خطة « Schéma » تطور ذات اتجـــاه واحد » . ويؤكد آرون ، أنه ليس من الضروري ، او الحتمي ، أن تحل الاشتراكية محل الراسمالية . وأن الرأسمالية ، بعد ان تحولت الى مجتمع صناعي ، وتوطدت نتيجة لذلك ، غـدت قادرة على التطور التقدمي اللامتناهي ، كما يزعم . ومن جهـة اخرى ، يحلم آرون ، بأن يؤدي تطور قوى الانتاج الى « سقوط نظام الحزب الواحد ، وإلغاء الاحتكار الماركسي - اللينيني » في الاتحاد السوفييتي(١) . وعند ذلك ، تنفتـح الطرق المؤديـة للانبعاث الراسمالي امام المجتمع الاشتراكي ، على حد قوله . وعند هذا الحد ، وبهذا الامل الباطل ، يتخلص المأرب الاجتماعي، السياسي الرئيسي لنظرية « المجتمع الصناعي الموحد » .

إن نظرية « المجتمع الصناعي الموحد » كاذبة ملفقة ، مـن الفها الى يائها ، هدفها الاجتماعي الطبقي ينحصر في الدفاع عـن الرأسمالية والتشهير بالاشتراكيـة ، في محاولة لاثبـات عبث الهـدم الثوري للبناء الراسمالي العفن . ولا ضرورة ، هنـا ، لايراد الحجج والبراهين المطولة على ان الراسمالية لا يمكن أن

(1) « Preuves » . 1965, No. 167 - 169 .

تتحول ، بشكل آلي ، وبدون ثورة ، الى اشتراكية . وان تأميم بعض مجالات الاقتصاد الراسمالي ، وادخال بعض العناصر التنبؤية ، ومحاولة التخطيط والبرمجة ، **كل هذه العناصر لايمكن** ان تغير طبائع الراسمالية . فكل التدابير والاجراءات المذكورة هذه ، تجري لمصلحة البرجوازية لاحتكارية ، ولتقوّي ، بذلك ، سيطرتها الاقتصادية .

ولا أساس للقول ، مطلقاً ، بتبرجز المجتمع الاشتراكي ، وبتحوله الى شكل ما متدهور ، من اشكال الراسمالية . وأما الاصلاح الاقتصادي العميق ، الذي يجري في الاتحاد السوفييتي وعدد من الدول الاشتراكية الاوروبية ، فهو لا ينسف مبادىء **الاشتراكية ، بل على العكس ، يعني الاتباع والتطور المنطقي** المطرد لهذه المبادىء . ويكمن الجوهر الاجتماعي للاصلاح الاقتصادي ، في الادراك الاكمل والأدق ، وفي الاستخدام الافضل، **لقوانين الاشتراكية الموضوعية الاقتصادية . بما ان ملكية وسائل** الانتاج ، **عندنا** (في الاتحاد السوفييتي) ، اشتراكية، واجتماعية، فإن نظام **القوانين** والمقولات الاقتصادية ، كله ، يحمل الطابع الاشتراكي أيضاً ، ويستخدم من اجل توطيد المجتمع وتطويره البعيد ، باتجاه الشيوعية . ولهذا فان الانتاج البضاعي ، وقانون القيمة والسعر ، والربح ، وفعالية إرجاع رؤوس الاموال الموظفة، **وغيرها من المقولات الاقتصادية ، تختلف ، اختلافاً مبدئياً ، في** ظروفنا (ظروف البناء الاشتراكي) ، عن المقولات ، التي تحمل **نفس التسميات ، في ظروف البناء البرجوازي . ويكفي ان نذكر ،** دلالة على ذلك ، ميزة مبدئية ، تميز الانتاج البضاعي في نظامنا

(النظام الاشتراكي) ، عنه في البناء الرأسمالي ، وهذه الميزة هي ، أن القوة العاملة لا ينظر اليها كبضاعة ، وبالتالي فاستغلال الانسان للانسان ، مستحيل وغير ممكن .

« مراحل النمو الاقتصادي » : تَمتُّ نظرية «مراحل النمو الاقتصادي » بصلة قوية من النسب الفكري ، الى النظريات التي استعرضناها آنفا . ويحاول علماء الاجتماع البرجوازيون ، في هذه النظريات ، إعطاء صورة عامة لتطور الانسانية ، لتحل مَحَلّ (النظرية) الماركسية عن تبدل التشكيلات الاجتماعية ــ الاقتصادية . ويعتبر و. و. روستو W.W. Rostow رجل الدولة وعالم الاجتماع الامريكي ، من أشهر ممثلي هذه النظرية . وقد وضع كتاباً ، أثار ضجة كبيرة ، تحت عنوان « مراحل النمو الاقتصادي . البيان اللاشيوعي The Stage of Economic Growth. A non - communist Manifesto » (١٩٦٠) . والكتاب هذا ، كما هو واضح من العنوان ، موجه ضد النظرية الماركسية حول تطور المجتمع . ويستبدل روستو فيه التشكيلات الاجتماعية ــ الاقتصادية الخمسة ، ب «مراحل النمو الاقتصادي» الخمسة للمجتمع[1] . فما هي هذه المراحل ؟

١ ــ « المجتمع التقليدي » : وينسب روستو ، الى هذا المجتمع . ثلاثة تشكيلات اجتماعية ــ اقتصادية : المشاعية

---

(١) يعترف المؤلف بذلك في مقدمة الفصل الاول من كتابه « إنها تشكل نظرية بديلة عن نظرية كارل ماركس » و.و. روستو.« مراحل النمو الاقتصادي » ترجمة برهان دجاني . المكتبة الاهلية ــ بيروت ــ ١٩٦٠ (المترجم) ص ٦٠ . في الترجمة العربية ، حذف النصف الآخر من عنوان الكتاب !!! (المترجم)

البدائية ، والعبودية والاقطاعية ، بالاضافة الى البلدان المستعمرة ، والضعيفة التطور المعاصرة . وقد مزج روستو ، كل هذه العناصر في كومة واحدة ، ودعا الميزة الرئيسية «للمجتمع التقليدي » بـ « الموقف السابق لنيوتن تجاه العالم » و « مستوى العلم والتكنيك السابق لنيوتن » ، هذا المستوى الذي يَحدُّ من امكانيات انتاج السلع للفرد الواحد من السكان . و « المجتمع التقليدي » هو مجتمع زراعي ، مستوى تطور الاقتصادالزراعي، فيه ، بدائي . والسلطة الحقيقية ، في هذا المجتمع ، لمالكالارض.

ويرى روستو ، أن تاريخ الانسانية كله ، وحتى ظهور الراسمالية ، كان خاليا من التطور الحقيقي ، وعبارة عن مستنقع راكد ، يدعى « بالمجتمع التقليدي » .

٢ً — «المجتمع الانتقالي» أو « مرحلة خلق الشروط المؤهلة للانطلاق » تظهر في « المجتمع التقليدي » المقدمات الضرورية للانتقال الى درجة أعلى من التطور ، وتظهر ايضا الاكتشافات العلمية والاختراعات القادرة على التأثير على نمو الانتاج . كما يظهر ايضا رجال ، ذو مراس وهمة ، مستعدون لاستغلال الابداعات والمستحدثات ، في سبيل الحصول على ربح كبير . ويرى روستو ان الاقلية الحازمة ، التي تأخذ بزمام المبادرة ، تبرز كقوة واقعة حقيقية ، تدفع « المجتمع التقليدي » الى السير في عملية التطور الصناعي ، وأما القوة الدافعة المهمة الاخرى فهي «القومية». والقومية،فيمفهوم روستو هي: الطموح لخلق أساس تكنيكي — اقتصادي متين ، ضروري للدفاع عن الوطن ضد التدخل الاجنبي .

لم يُقدم روستو حدودا تاريخية دقيقة « لمراحل التطور »، فينسب ، مثلا ، الى « المجتمع الانتقـالـي » مرحلة الثورات البرجوازية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، في اوروبا ، وحركة التحرر القومي ، في القرن العشرين ، بل وحتى الثورات الشعبية ــ الديمقراطية والاشتراكية . وسببمثلهذا التخليط، ان روستو ينكر المحتوى الاجتماعي ــ الاقتصادي لسير العمليات الاجتماعية ، ويتجاهل طابع العلاقات الانتاجية وطرازهـــا ، مُركّزاً اهتمامه ، بشكــل خــاص ، علــى الناحية العلميــة ــ التكنيكية للتطور الاجتماعي .

٣ ــ **« مرحلة الانطلاق » او « الثورة الصناعية »** . وتتسم بارتفاع قسط تراكم رأس المال ، وبتطور الصناعات الرئيسية السريع . وحسب راي روستو ، مرت انكلترا في هذه المرحلة في نهاية القرن الثامن عشر ، ووصلت فرنسا والولايات المتحـدة الامريكية هذه المرحلة في منتصف القرن التاسع عشر ، والمانيا ، مرت بها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وأما روسيا ففي الفترة بين ١٨٩٠ ــ ١٩١٤ . ودخلت كل من الهند والصين هذه المرحلة في بداية الخمسينات من القرن العشرين . ونلحظ ثانية هنا ان بلداناً ، تقع في مراحل مختلفة ، نوعيا ، من مراحل التطور التاريخي ، تُوحَّد وتجمع ، بشكل مصطنع . فروستو ، مثلا ، لا يأخــذ بعين الاعتبار ، أن روسيا عــاشت الانقــلاب الصناعي ومرت بهذه المرحلة ، قبل الفترة المذكورة ، حيث دخلت روسيا فيها (في هذه الفترة المذكورة) في مرحلة الامبريالية .

(٤) « مرحلــة النضوج » او « السير نحو النضــوج » !

يرتفع الدخل القومي ، في هذه الفترة ، نسبيا ، وتتطور الصناعة بشدة ، كما تظهر فروع جديدة من الانتاج ، غير معروفة سابقا . ومن اجل الوصول الى مرحلة النضج ، لابد من مرحلة انتقالية، حسب رأي روستو ، تمتد بين ٥٠ ـ ٦٠ عاما . ويرى روستو، ان انكلترا مرت بهذه المرحلة سنة ١٨٥٠ ، وأمريكا في سنة ١٩٠٠، والمانيا وفرنسا في سنة ١٩١٠ واليابان سنة ١٩٤٠ ، أما الاتحاد السوفييتي فقد مر في هذه المرحلة سنة ١٩٥٠ . إن الحديث هنا يدور ، بالحقيقة ، عن مرحلة خلق الصناعة الثقيلة. ويتصرف روستو بالحوادث التاريخية ، على هواه ، فيخلط مرة اخرى ، أشياء مختلفة ، نوعيا (من حيث الكيف) ، كالتصنيع الرأسمالي والتصنيع الاشتراكي ، ويتجاهل الطبيعة الاجتماعية ، ـ الطبقية للبنية الاجتماعية .

٥ ـ « عصر الاستهلاك الشعبي العالي » : يتركز اهتمام المجتمع ، في هذه المرحلة ، على قضايا الاستهلاك ورفاهية السكان بالمعنى العريض لهذه الكلمة . واستنادا الى قاعدة النضوج التكنيكي المكتسب ، ينشأ مجتمع « الرفاه العام » الذي يمتاز بالاستهلاك الشعبي الواسع للبضائع ذات الاستعمال الطويل (السيارات ، أجهزة التلفزيون الخ ..) . ويقول روستو ، أن الولايات المتحدة الامريكية اول من دخل هذه المرحلة ، تلتهما بلدان أوروبا الغربية فاليابان ، أما الاتحاد السوفييتي ، حسب راي عالم الاجتماع الامريكي ، فيقف على عتبة هذا العصر . ويؤكد روستو ان وصول الاتحاد السوفييتي الى مستوى الاستهلاك العالي ، سيؤدي الى انحلال وسقوط البناء الاشتراكي.

والشيوعية « تميل ، بجوهرها ، الى السقوط في عصر الاستهلاك الجماهيري الواسع »(١) الا ، انه ، لا شك ابدا ان « السقوط » هو مصير الآمال الكاذبة لأعداء الشيوعيـــة ، وليس مصيـــر الشيوعية .

وقد عبر روستو في كتابه « نظرة من الطابق السابع » عن امله ، في ان الدول الاشتراكية ستعود الى النظام الراسمالي . وكرئيس لمجلس التخطيط السياسي ــ هذا المجلس الذي هـــو « المركز العقلي » للادارة في الحكومة الاميركية ــ ينصح روستو حكومة الولايات المتحدة الامريكية باستخدام المساعدة الاقتصادية كوسيلة لتفتيت الدول الاشتراكية وتجزئتها . ويطلق علـــى المساعدة الامريكية ، بوقاحة ، اسم « توظيف جديد ، وطويـــل الاجل لـــرؤوس الاموال »(٢) وينسب روستو مرحلتـــي النمـــو الاقتصادي ، الرابعة والخامسة الى «المجتمع الصناعي الموحد» . وبالاختصار ، يحاول روستو ، بمشروعه التخطيطي Schéma « تقديم تعليل تاريخي لهذه النظرية السوسيولوجية البرجوازية الـــدارجـــة .

وقد يتكون ، عند البعض ، انطباع ، بأن روستو وغيره من انصار نظرية « مراحل النمو الاقتصادي » حين يتحدثون عـــن الدور الحاسم للدلائل (المقاييس) التكنيكية ــ الاقتصاديـــة في

(1) W. W. Rostow. the Stage of Economic Growth. Anon-communist manifesto. Cambridg, 1960, P. 133.
(2) W. W. Rostow Viewfrom the Seventh floor. New-york, 1964, P. 32.

تطوير المجتمع ، يتمسكون ، ولو بشكل محدود ، بوجهة النظر المادية . غير ان هذا الانطباع خادع . فروستو وأمثاله مـــن السوسيولوجيين ، لا يعترفون بقانون الدور الحاسم لشكل انتاج الخيرات المادية ، في تطوير المجتمع . ويعارضون ، هــذا المبدأ الجذري للفهم المادي للتاريخ ، بنظرية اصطفائية الحوادث، تقول بأن تقدم المجتمــع متوقف على عوامل كثـيرة متكافئـة ، ويذكرون ، الى جانب الاقتصاد ، من هذه العوامل : السياسة ، والثقافة والسيكولوجيا وغيرها ، وكأن هذه العوامل متساوية في الاهمية ، وتؤثر ، بشكل متساو ، على سير التاريــخ . ان نظرية العوامل هذه ، تكدس الظواهر الاجتماعية ، الهامة وغير الهامة ، في كومة واحد (في كيس واحد) ، فاتحة ، بذلــك ، الطريق امام المنطق الذاتي والاهواء الشخصية . وفي نهاية الامر، يفضل انصار نظرية العوامل ، العامل الايديولوجي ، كـأساس حاسم للاحداث التاريخية ، كاشفين ، بذلك ، حقيقة افكارهم المثالية . وهذا يحدث ايضا عند روستو ، وهو الذي لا يعترف بالقوانين الموضوعية للتطور الاقتصادي ، ويرى أن اسباب انتقال المجتمع ، من شكل الى آخر ، او من مرحلة الى اخرى ، هي تغــير وعي بعض الشخصيات البارزة او « الاقليـــة المبتكرة (الآخذة بزمام المبادرة) » .

ولا تبدو نظية روستو حالة شاذة ، فهناك كثير من مثيلاتها، من المشاريع التخطيطية اللاعلمية العديدة للتطور التــــاريخي ، والتي تحاول تصوير الراسمالية ، رائدة للتقــدم الاجتماعي المعاصر . فمثلا ، يؤكد عــالِـم الاجتماع السويسري المشهور (ر. بيريندت)(R. Behrendt)في كتابه « المجتمع الديناميكي »،

أن الانسانية ، حسب رأيه ، مرت ، خلال تطورها، بثلاثة مراحل. وآخر هذه المراحل وأعلاها هي « المجتمع الصناعي الموحد » وهو مجتمع هجين ، يقع بين الرأسمالية والاشتراكية ، ولكنه يقوم على اساس برجوازي . ويؤكد بيربندت انه في المجتمع البرجوازي « قد قضي تماما على الفردية المتطرفة ، والسلطة المطلقة لرجال الاعمال في مرحلة الرأسمالية المبكرة ، من ناحية ، .... واما في مجال سلطة وسيطرة السوفييتات (المجالس) ، من ناحية ثانية، فقد غدت التعاونية المتطرفة والمركزية ، منـــاقضتين وغيـــر متوافقتين ، مع هدف الوصول الى الانتاجية الاعلى في الزراعة والصناعة . وهكذا . نـــرى ، أن النظريتين الاجتماعيتين ــ السياسيتيـــن المتناقضتين تتحركان وتتجهان نحو مخرج وسط مشترك »(1) .

يبدو ، أن بعض علماء الاجتماع البرجوازييـــن ، يؤمـــن ، بصدق ، في احتمال (امكانية) ظهور مجتمع موحد ــ هجيـــن « ذو اقتصاد مختلط » ، تهدأ فيه المعارك الطبقية ، وتترتب الاهواء السياسية ، وتحل فيه ، بشكل طبيعي ، التناقضات العدائية بين الرأسمالية والاشتراكية ، وسينشأ ، كمـــا يقول بيريندت ، « عالم بلا حدود » وبدون أخطار الحروب .

ويبدي عالم الاجتماع الامريكـــي « و. ويغير W. Wagar آراءً مماثلة حيث يقول : « يصدم القرن العشرين ، الانسانيـــة بأكبر أزمة جذرية في تاريخها ... فبعـــد اغتيـــال العنابر سنة

---

(1) R. Behrendt : Dynamische Gesellschabt. Bern, 1963, S. 74 .

١٩٠٤ ، يسير الزمن في رتل خيالي من الاغتيالات والقسر والعنف. ملايين من البشر هلكت في الحرب الميكانيكية العاملة ، واحرقت، بالجملة ، في مواقد الابادة ، وجعل الناس من ارواحهم ، بغايا ، خدمة للدول العملاقة الجبارة . وكللوا نشاطهم، باختراع الكوابيس الذرية ، القادرة على افناء كل ما هو حي على الارض ... يقف الانسان ، ازاء هذا المصير ، عاجزاً تماماً »(١) . غير أن و. ويغير لم يضع النقاط على الحروف ، فلم يذكر المسبب الحقيقي لكل هذه الكوارث ، الا وهو الامبريالية . ويرى (ويغير) انقاذ الانسانية ممكن في « التكامل » وفي « التطوير المشترك التدريجي للتكنيك ؛ عندما تقل اختلافات النظامين وتتناقض ، سيختفي حماسهما التبشيري ، وسيتمكنا ، تدريجيا من توحيد القوى »، وبهذه الحالة فقط ، حسب رأيه ، يتحول « عالم الغاب » الى « عالم » حديقة ، تتناقل الانسانية فيه أفراح السلام والحرية »(٢).

ليس من الصعب ابدا ، فهم البواعث ، التي تؤكد مثل هذه الطوباويات (الخيالات) البرجوازية ، والصادرة عن المثقفين الليبراليين . وهي ، بغض النظر عن المطامح الذاتية لواضعيها ، تخدم ، موضوعيا ، الامبريالية ، كما انها موجهة من اجل نزع السلاح الفكري من ايدي الكادحين ، باثة وناشرة ، بين صفوفهم ، الاوهام المغرضة ، وعلى الاخص ، تلك الاوهام الداعية الى التعايش السلمي في الحقل (المجال) الايديولوجي .

---

(1) W. Wagar. the City of Mam. Boston, 1963, P. 3

(٢) نفس المصدر ص ١٤٩ و ٢٣٥ .

وفي هذا المجال ، يتميز كتاب الفيلسوف ـ اللغوي ، وعالم الاجتماع الامريكي المعروف (اناتول رابوبورت A. Rapoport) والمسمى « استراتيجية وضمير » . وقد ورد في كتابه هـذا ما يلي « لا يمكننا التخلص من الشعور بأن العالمين : عالمنا والعالم الشيوعي ، يكملان بعضهما بعضا في عدة مجالات ونواحي هامة... ولو تم الاعتراف بعامل التكامل المتبادل بين هذين العالمين ، لكان خطوة الى الامام في طريق نزع السلاح الايديولوجي »(١) . وحسب تعبير المؤلف ، يملك كل من نظام القيم البرجوازي ، والآخـر الشيوعي ، « اشياء جيدة كثيرة » ، ويمكنهما تكميل بعضهما البعض ، مشكلين بذلك ، نظاما مشتركا من المقـدرات ، او وبعبارة أخرى ، نظاما ايديولوجيا موحدا ، يمكن ان ندعوه : برجوازيا ـ شيوعيا ! .

وبصورة عفوية نتذكر الخطيبة ، في مسرحية غوغول(٢) « الزواج » ، التي حاولت أن تضم شفاه الخطيب الاول ، الى انف الخطيب الثاني ، مضيفة اليهما وقاحة الثالث . الا ان خطيبات (المقصود هنا : ممثلي ـ المترجم) الايديولوجية البرجوازية المعاصرة لسن على هذه الدرجة من السذاجة . فقد عبر علماء الاجتماع البرجوازيون المعاصرون ، في نظرياتهم ، عن املهم الخفي والمستحيل ، في « تآكل Erosion » الايديولوجية

(1) A. Rapoport. Strategy and conscience. New-york and London. 1967 P. 290 .

(٢) غوغول : أديب روسي كبير ، وناقد اجتماعي . ولد في أكرانيا (١٨٠٩ - ١٨٥٠) ونشأ فيها . أشهر مؤلفاته : المفتش ، الارواح الميتة .

الاشتراكية ، وفي تقويض أسسها الرئيسية ، واستبدالهـا « بالقيم » البرجوازية الروحية . وبهذه المناسبة ، فلقـد صور آ. رابوبورت ، بصراحة تامة ، « القيمة الروحية » الاساسية في النظام الرأسمالي : «تدل رغبات الانسان العدائية، والجشعة على نشاط الانسان ، وتعلقه بالقيم المتعارف عليها في المجتمـع ، وبالاختصار ، فهي تـدل على قيمته الشخصية ... والقيمـة الراجحة ، في مجتمعنا ، هي الظمأ للاثراء الشخصي »(٣) .

لا يوجد ولن يوجد تعايش سلمي في المجال الايديولوجي . كما ان المبادىء الفكرية المتناقضة لا يمكن ان تتصالح وتتعايش ، فالصراع ، الذي يقوم بينها ، دائم ومستمر .

وفي السنوات الاخيرة ، بدأ علماء الاجتماع البرجوازيون والاشتراكيون اليمينيون ، الحديث عن **الثورة الصناعية الثالثة** ، او الثورة السيبرنيتيكية ، التي تقود ، حسب رأيهم ، الـى تجديد جذري للمجتمع البرجوازي . ويـرى السوسيولوجيون البرجوازيون ، ان تطور علم السيبرنيتيك والأتمتة ، واستخدام الطاقة الذرية في الاغراض السلمية ، يجب ان يؤديا ، آليا ، الى تحويل المجتمع « الصناعي » المعاصر الى المجتمع «بعد الصناعي» او « مجتمع الرفاه السيبرنيتيكي » .

ويمكننا تتبع مسيرة آراء علماء الاجتماع البرجوازييـن ، المؤيدين لمثل هذه النظريات على النحو التالي : استنادا الـى

(3) A. Rapoport Strategy and conscience. New-york and London. 1967. P. 286 .

القاعدة التكنيكية الجديدة ، ينشأ « اقتصاد الوفرة » ، الذي يؤمن الخيرات المادية والثقافية لكل عضو في المجتمع ، دون النظر الى نتائج عمله ، بل ودون النظر الى كونه يعمل ام لا . أما في « المجتمع بعد الصناعي » فإن الحاجة الى عمل الانسان تختفي تقريبا ، حسب ادعائهم ، ولن يبقى من الكادحين غير الآلات . وسيدير الآلات الأوتوماتيكية ، عدد قليل،اما الباقون فسيقطفون، ثمار الوفرة المخلوقة ، أوتوماتيكيا ، مالئين اوقات فراغهم بالرياضة والفن ، وما الى ذلك ...

ويقول علماء الاجتماع ـ المتفائلون ، أن « العصر الذهبي » للوفرة والفراغ ، سينشأ كنتيجة بسيطة ـ للتقدم العلمي ـ التكنيكي . ولا يتطلب ظهوره ثورات اجتماعية او سياسية ، ولا تغيرات جذرية في طابع الملكية القائمة (اي الراسمالية) ويرى هؤلاء السوسيولوجيون البرجوازيون ، الذين انحدروا الى طوباوية Utopie صريحة ، انه يمكن ، وبشكل جذري ، عن طريق الاحكام التشريعية ، والمواعظ الاخلاقية ، تغيير شكل التوزيع القائم في المجتمع الراسمالي ، مبقين على شكل الانتاج دون تغيير ، ومحافظين على الملكية الفردية ـ إساسا لعلاقات الانتاج البرجوازية . ويعتقدون ، بسذاجة ، ان الاحتكاريين ، سيكونون « مربين ، مثقفين » و « إنسانيين » ، لدرجة انهم سيرفضون ، وبطبيعة خاطر ، أرباحهم ومكاسبهم !!

وتبدو الطوباوية واضحة ، والخيال جليا في الفرضيةالقائلة بأن الآلة سوف تطرد ، عمليا ، العمل الانساني من المجال المادي، ولدرجةما ، منالمجالالروحيللانتاج . وكمانشأفياليونانالقديمة،

مجتمع (الرفاه) والفراغ ، الذي قام على العمل العبودي ، وظهر ايضا مجتمع مالكي العبيد ، كذلك في المستقبل القريب ، كما يتكهن السوسيولوجيون ـ المتفائلون ، سيظهر او سينشأ مجتمع الوفرة والفراغ ، الذي سقوم على «كدح» «العبيد» الالكترونيين والميكانيكيين ، غير أن ، المجتمع ، في هذه المرة ، ليس للمختارين فقط ، بل للجميع بلا استثناء . ويرسمون صورة مجتمع البطالة المقبل ، مجتمع الطفيليين السيبرنيتيكيين . إن هذه الغاية المثلى تناقض القوانين الطبيعية لتطور المجتمع المعاصر . وتنحصر هذه القوانين في انه ، ستنشأ ، وباستمرار ، حاجات إجتماعية ، يتطلب اشباعها كل الموارد المالية الجديدة والجهود العقلية ؛ كما ستنشأ أشكال وفروع للانتاج ، ومجالات جديدة ، لزيادة قوى الانسان الجسمية والعقلية .

ويبالغ علماء الاجتماع البرجوازيون ، أيضا ، في حجم الوفرة المحققة . والحقيقة ، ان الوفرة او الرفاهية ، في المجتمع البرجوازي ، لا توجد ، بشكل عام ، الا في قطب واحد منه ، اما القطب الآخر فيتمركز فيه العوز الاجتماعي والاضطراب ، بل والبؤس السافر للجماهير الكادحة الواسعة ، أحيانا . ولا ننس، ان الحديث هنا يدور حول الدول الراسمالية ، ذات التطور الصناعي العالي ، اما بالنسبة للبلدان النامية ، وبلدان ما يسمى « بالعالم الثالث » فالحديث ، هنا ، لايتركز حول الوفرة ، بل ، ولأسباب عديدة ، حول تأمين اللقمة الضرورية ، والحد الادنى من الطعام لملايين السكان . ومما يذكر ، في هذا المجال ، ان الفرق في مستوى الاستهلاك الفردي ، بين البلدان المتطورة صناعيا والبلدان النامية ، لا يتناقص بل يتسع ويتعاظم .

ويخلص بعض زعماء الحركة العمالية ، أو المتطفلون عليها ، الى استنتاجات انتهازية ، مستندين الى مجموعة أفكار مايدعى « بالثورة السيبرنتيكية » . ونورد ، كمثال على هذه الاستنتاجات، آراء ل. و ج. كرويلي ، القائلة بأن « الثورة السيبرنيتيكية » ستؤدي الى زوال الطبقة العاملة الفعلي وتلاشيها . وفي مثل هذه الحالة ، تغدو فكرة الدولة العمالية خطأً تاريخياً Anachronisme ، على حد زعمه . ويقول المؤلفان المذكوران : « فإذا كانت الثورة الصناعية ، في القرن الثامن عشر ، قد استطاعت إثارة الوعي الاشتراكي ، ودفعت للنضال من اجل الاشتراكية ، فستؤدي الثورة السيبرنيتيكية ، حتما ، الى ظهور مجتمع ما آخر ، لم يطلق عليه آسم ، بعد . » . غير أن هذا المجتمع لن يكون شيوعياً(١) . ويرى المؤلفان ، أن الطبقة العاملة غدت محافظة ، في الدول الراسمالية المتطورة صناعياً ، لذا ، يجب الاعتماد على « الجناح المثقف » من البرجوازية ، وعلى شذاذ الآفاق والمتشردين والعناصر الفوضوية . ولا تخرج هذه الآراء عن كونها تشكيكاً انتهازياً يسارياً في المقدرة الثورية للطبقة العاملة في الدول الراسمالية ، هذه الطبقة التي تقود ، في الواقع ، نضالا عنيداً من أجل تحرئرها الاجتماعي .

وقد تطورت أفكار « الثورة السيبرنيتيكية » في بحث ، أحدث ضجة كبيرة ، أجري في معهد « هودسون » الامريكي ، تحت اشراف مديره ، عالم الاجتماع المعروف (هيرمان كان) . وقد عبر واضعوا هذا البحث ، عن آرائهم في مستقبل التقدم

---

(1) « Monthly Review », 1964, Vol. 16, N 7, P. 424 .

العالمي وآفاقه ، في الثلث الاخير من القرن العشرين ، فافترضوا أن في اميركا وغيرها من الدول ، الاشتراكية والراسمالية ، تتراءى لوحة مشرقة سعيدة هادئة ، وان هذه الدول ستصل عام ٢٠٠٠ م الى « المرحلة بعد الصناعية » مرحلة الازدهار والوفرة ، لدرجة ان كثيرا من المواطنين لن يعملوا ، ولن يكونوا بحاجة للعمل .

ويعبّر هرمان‌كان عن رغبة البرجوازية الامبريالية المكبوتة، فيعلن ، في البحث المذكور آنفا ، انه سيظهر الى الوجود ، سنة ٢٠٠٠ م ، « الاتحاد السوفيتي البرجوازي » . ثم يؤكد زاعماً ، أن الاتحاد السوفييتي سيتعرض الى « ازمة اكثر عنفا ، من التي ستتعرض لها الولايات المتحدة ، وتتصل هذه الازمة في البحث عن جواب لقضية معنى الحياة وهدفها » . وكما يرى « كان» ، فعندما يحل الاتحاد السوفييتي مشاكله الاقتصادية ، ويصل الى مستوى عالٍ في مجال تلبية المتطلبات المادية ، فسيفقد الاهداف الحقيقية والحوافز للتطور البعيد . ويفترض « كان » بأن الناس السوفييت سيحيون حياة بلا تفكير ، حياة أناس‌لبيت حاجاتهم بشكل جيد ، أناس غريبين عن الاهداف الرفيعة والمثل العليا .

ويمكن الملاحظة ، دون عناء ، أن « كان » ينقل ، آلياً ، ملامح البرجوازي الساذج الامريكي ، الذي يقدس الكريات الذهبية (المال) ، الى الصفات الروحية للانسان السوفييتي . غير أن (كان) وأمثاله لا يريدون فهم الدينامية Dinamisme الحقيقة للبناء الاشتراكي ، ولا يستطيعون ان يقيّموا ، بشكل

صحيح ، الثروة الروحية لأناس تربوا على مُثُل الماركسية اللينينية . ولا يستطيع « كان » أو لا يريد ، ان يعترف بأن الاشتراكية تخلق ، وللمرة الاولى ، شروط التقدم المادي والروحي المستمر للمجتمع ، هذا التقدم الذي يتحقق ، لا لمصلحة حفنة من الاستغلاليين ، بل لمصلحة الشعب كله ، وبأن الانسان ، وهو القيمة الرئيسية والهدف لتطور البناء الجديد ، لا حدود لتطوره وكماله العقلي والاخلاقي والجسدي .

ان الاصلاح الاقتصادي ، وتطور شكل الانتاج الاشتراكي ، ككل ، متصل عضويا بالتربية الشيوعية للناس السوفييت ، وبنموهم العقائدي ، وبارتفاع طاقاتهم المعنوية . وآن الاهداف العظيمة لثورة اوكتوبر ، والثروة الروحية التي خلقها مؤسسو الماركسية ـ اللينينية ، والخبرة الثورية للجيل السالف ـ كلها تعيش في وعي المواطنين السوفييت ، وتتجسد في قضاياهم العملية ، وتجد تطورها البعيد المطرد في نشاط المجتمع السوفييتي ، المتعدد الجوانب .

وتستغل النظريات المدافعة عن « تجَدُّد » المجتمع البرجوازي ، واقع حالة الاسواق الاقتصادية المزدهرة ، التي بدات تصمد ، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، في عدد من الدول الراسمالية الرائدة . ولا شك في أن الولايات المتحدة الامريكية ـ أغنى الدول الراسمالية ، واكثرها تطورا . ومع ذلك، فالتناقض ، الذي لا يمكن القضاء عليه في إطار البناء البرجوازي، يظهر فيها بشكل اعمق واكمل : فالبطالة الدائمة ، والتشغيل النصفي (الناقص) للمصانع ، بشكل دائم ، وتدهور الانتاج

المستمر ، وعسكرة Militarisation الاقتصاد ، والتمييز العنصري ؛ إن هذه الوقائع المذكورة ، تكفي لاظهار كذب النظريات، التي تهدف ، بشكل رئيسي الى إثبات ما يستحيل إثباته ، وإنكار ما لا ينكر .

ولا يستطيع ، حتى رجال الدولة والسياسة في أمريكا ، إنكار نقائص الرأسمالية ومساوئها ، كالبطالة ، وبؤس جماهير الشعب الواسعة .

وقد بدأ الحديث يسري ، حول هذا الموضوع ، في أوساط علماء الاجتماع والكتاب الامريكيين . فأشار ، مثلا ، « آ . شليزينهير » الاستاذ الامريكي المشهور ، في جامعة هارفارد ، الى عدم الاتزان القائم ، في المجتمع الامريكي ، بين ثروة الملاكين الخاصة ، وبؤس بقية السكان . فذكر ان ٨٠ ٪ من المنتوج الاجتماعي يذهب الى الاستهلاك الشخصي ، والباقي ، تتلقفه ، في الحقيقة ، النفقات الحربية . واما الحصة التي تصرف للتعليم ، ولتنظيف الاحياء الفقيرة القذرة ، فهي قليلة وضئيلة جدا ، بشكل مخجل . وقد كتب « شليزينهير » مشيرا الى ذلك : « توشك مخازننا ومحلاتنا التجارية أن تتحطم ، من كثرة البضائع والمنتجات المختلفة ، وترد الينا ، من كل مكان ، مواد البذخ ووسائل الترف ، التي تتنوع وتتكاثر تدريجيا . غير ان مدارسنا تكتظ وتزدحم ، أكثر فأكثر ، بالتلاميذ والطلاب ، وتتقادم أبنيتها وتتخرب . أما معلمونا ، فهم في ارهاق متزايد ، ورواتبهم في تناقض مستمر . كما نعاني نقصا متزايدا في الساحات والملاعب الرياضية . اما مدننا فتقل نظافتها ،

تدريجيا ، وشوارعنا تغص وتمتلىء ، بشكل متزايد . ويصيب حدائقنا ، إهمالا متزايداً ، ويعتري البوليس وأجهزة الامن التعب المتزايد . » .

ونشرت المجلة الامريكية « United states news and world report يونايتدستيس نيوز إند ورلد ريبورت » مقالا بعنوان معبر « الولايات المتحدة الامريكية :ايضا بلدا ضعيف التطور » . وجاء في هذا المقال: « عندنا (في أمريكا) ٤٥ مليون فقير ، منهم ٣٠ مليون نسمة تعتبرهم الحكومة في مرتبة المعانين من الفقر المدقع ... وقد اعلن ، منذ فترة قريبة ، المجلس القومي لدراسة مشكلة الجوع وسوء التغذية ، والمؤلف من ٢٥ عضوا ، ان ١٠ ملايين نسمة من الامريكيين ، على الاقل ، هم ضحايا للجوع ، وان وضع الفقراء يسير من سيء الى اسوأ . وتخبر هذه المؤسسة الخاصة ، عن انتشار سوء التغذية في مناطق متباعدة ، بعضها عن البعض الآخر ، مثل واشنطن ، نيويورك ، شيكاغو ، دوموينس وأورليان الجديدة » .

وكتبت المجلة ، مشيرة الى نسبة العاطلين عن العمل العالية والثابتة ، ما يلي : « إن نصف العاطلين عن العمل هم من النساء ، وبين كل خمسة عمال عاطلين عن العمل – زنجي واحد، وبين كل اربعة منهم – مراهق . وهناك عدا عن البطالة الدائمة، مليونان من العاطلين عن العمل جزئيا ، الذين لا يعملون يوم عمل كامل ، رغما عن ارادتهم » .

وتتابع المجلة حديثها فتقول ، إن الوضع في المدن ، مشكلة من اقسى المشاكل . « خذوا اية مشكلة ، فستجدونها في المدن

الامريكية ، من فيض السكان (الكثافة الرهيبة) ، وتلوث الهواء، وانتشار الجرائم ، والمطاحنات والمشاحنات العنصرية ، والاحياء الفقيرة البائسة ، والقذارة والضجة . الخ .. ويتطلب تنظيف المدن وتحويلها الى اماكن ملائمة للسكن ، نفقات هائلة تقــدر بحوالي (٢١٠٠) مليار دولار ، خلال العشرين سنة القادمة ، وهذه تعد مهمة ضخمة جداً ، حتى بالنسبة للولايات المتحـدة الامريكيــة . »

وهكذا تصل المجلة الى النتيجة التاليـــة : إن الولايات المتحدة الامريكية هي ايضا « بلد ضعيف التطور » . وقد يبدو في هذا الامر ، شيء من التناقض ، غير انه تناقض ظاهري فقط ، فالولايات المتحدة الامريكية ـ بلد عالي التطور ، من الناحيـــة الصناعية ، الا انها بلد رأسمالي ، وهنا جوهر المسألة . لقـد دخلت القوى المنتجة في أمريكا ، منذ زمن طويل ، كما في غيرهـا من الدول الرأسمالية ، دخلت هذه القوى في تناقض شديد مع علاقات الانتاج المؤسسة على الملكية الشخصية . ولهذا يذهب القسم الاكبر من المنتوج ، الذي يخلقه عمل الطبقة الكادحة ، الى استهلاك البرجوازية الطفيلي ، والى الحروب والتحضير لها .

وقد ألّف أستاذ جامعة كولومبيا الامريكية سيمور ميلمان S.Melman كتابا بعنوان « مجتمعنا المُستنزَف » ، وهـذا الكتاب ، حسب قول المؤلف ، تقرير اقتصادي عن الخسائـــر والنفقات الغالية التي تكبدتها أمريكا لقاء « الحرب البـاردة » خلال عشرين سنة . ويحمـل نمو اقتصاد الولايات المتحـــدة الامريكية ، على حساب التضخم في الانتاج الحربي ، طابعــا

طفيليا . « وبالنتيجة فبين كل خمسة مواطنين ، من مواطني أغنى بلد في العالم ، مواطن يعيش في فقر مدقع »(١) . وفي الفترة بين ١٩٤٠ – ١٩٦٥ ، ازدادت النفقات الحكومية الى اكثر من عشرة أضعاف عما كانت عليه – من (٩) مليار دولار الى (١٠٠) مليار دولار . في حين ان نسبة النفقات المخصصة للتربية ، والصحة ، ومكافحة البطالة ، والتأمين الاجتماعي ، والبناء السكني ، قد انخفضت من ٤٢٫٥ ٪ عام ١٩٣٩ الى ٧ ٪ عام ١٩٦٥ . وقد أنفقت الحكومة الامريكية على الفرد الواحد ، بشكل عام ، لمختلف النفقات غير الحربية ، عام ١٩٣٩ ، (٨٣) دولار (حسب أسعار ١٩٦٣) ، أما في ١٩٦٣ فقد صرفت (٥٦) دولار فقط(٢) . ويصل المؤلف الى استنتاج صحيح وهو « ان رفاهية سكان الولايات المتحدة الامريكية تقتضي ، بالحاح ، ايقاف « الحرب الباردة » والانعطاف نحو الاستغلال المثمر للموارد الامريكية »(٣) . هنا يجب ان نضيف أنه عدا عن الاموال الهائلة التي تصرف على « الحرب الباردة » تصرف مبالغ خيالية على الحرب « الحارة » وغير المشرفة في فيتنام .

وحتى ابواق « المجتمع بعد الصناعي » ، التي ترسم اللوحات البهيجة الملونة المشرقة للقرن الحادي والعشرين الجديد ، لا تستطيع إخفاء حقيقة التناقضات الاجتماعية في المجتمع الامريكي واستحالة استئصالها والقضاء عليها في ظل نظام

---

(1) S. Melman. Our depleted society. New-york, 1965, P. 240 .

(٢) نفس المصدر ص ٢٢ .

(٣) نفس المصدر ص ٧ .

العلاقات الاجتماعية الحالي . فقد ذكر هيرمان كان ، نفسه ، في عمله التنبؤي المخصص لعام (٢٠٠٠) ، أنه ، مع اعتقاده بأن الدخل السنوي المتوسط للفرد الواحد ، سيتضاعف ٤ مرات ، غير أنه اعترف : بأنه سيبقى كثير من الناس الفقراء ، في بداية القرن القادم . ولا عجب في هذا ، فان نصف دخل الفرد تقريبا ، كما هو متوقع ، يمتصه التضخم المالي ، دون النظر الى الضرائب المتزايدة بشكل دائم ملح . وفي سنة ٢٠٠٠ ، سيكون دخل ثلثي العائلات الامريكية ، حسب التنبؤات ، اقل من المستوى المتوسط في البلد .

اما وضع الافراد الكادحيـن ، في المجتمع الاشتراكي ، فيختلف ، جذريا ، عن وضعهم في ظروف الراسمالية . ولا تحدد العدالة الاجتماعية والانسانية ، في مجتمع ما ، بعدد السيارات او البرادات او المكانس الكهربائية ، بل بطابع البناء الاقتصادي لهذا البلد او ذاك . ماهو برأينا إذن مقياس الإنسية Humanisme الاجتماعية ؟ إن المجتمع الاشتراكي ، وبالرغم من ان مستوى تطور القوى المنتجة فيه ادنى وموارده المالية اقل ، بالمقارنة مع الولايات المتحدة ، فهو يقدّم للفرد فيه اعظم الامكانيات للتطور الشامل المتكامل ، حاصلاً ، بذلك ، على نتائج لا تصل اليها ارقى الدول الراسمالية .

فمنذ مرحلة البناء الاشتراكي الاولى ، حيث كان الاتحاد السوفييتي في أحرج الظروف المادية والاقتصادية ، وفي فترة القضاء على آثار الحرب والتهديم والتدمير ، لم تدخر الدولة السوفييتية اية وسيلة من اجل ايجاد وخلق نظام ديمقراطي

شامل للتعليم الشعبي ، هذا النظام الذي يعطي الآن ثمراته الرائعة.

ومع ان الاتحاد السوفييتي لم يصبح بعد ، من اغنى بلدان العالم ، فقد أنشأ نظاما شاملا لخدمة المواطنين الطبية . وأوجد شبكة ضخمة من المؤسسات الطبية والعلاجية ــ الوقائية، لتأمين الخدمة الطبية المجانية ، بما في ذلك المعالجة في المشافي . كما أنشأ نظاما واسعا للتأمين والضمان الاجتماعيين ، وبهذا فالانسان السوفييتي لا تهدده الحاجة المادية ، التي قد تنشأ بسبب المرض او نتيجة للعجز او الهرم .

ان الخطأ النظري الرئيسي لعلم الاجتماع الصناعي ، هو أن القوى المنتجة فيه ، منفصلة ، بشكل مزيف مصطنع ، عن شكل تطورها ، أي عن العلاقات الانتاجية . فهو إذن ينكر شكل العلاقات الانتاجية وطابعها . وحتى بالنسبة للقوى المنتجة ، يركز الاهتمام الاكبر على التكنيك ، وبهذا يسقط من حسابه ، في الواقع ، أهم القوى المنتجة ، الا وهي عمال الانتاج والجماهير الكادحة المنتجة .

ويحاول انصار علم الاجتماع الصناعي ، عن طريق نظرية « مراحل النمو » تقييم مختلف المجتمعات والبلدان من وجهة نظر التقدم . الا ان مقياس التقدم ، ذاته ، عندهم بعيد عن الروح العلمية الحقيقية . فهم يتناولون جانبا عدديا واحدا من عملية التقدم وهو مستوى تطور الانتاج والاستهلاك ، وهذا الجانب ضروري ، بلا شك ، غير أنه لايكفي لفهم عملية التقدم الاجتماعي .

إن القوى المنتجة هي المصدر الاهم والسبب الحاسم لتطور المجتمع بكامله . فكل تشكيلة اجتماعية إقتصادية حديثة العهد ، تعطي ، بالمقارنة مع التشكيلة السابقة ، مجالا متسعاً أرحب لتطور القوى المنتجة ، وتحصل على انتاجية أعلى للعمل . غير ان القوى المنتجة لا توجد ، من تلقاء ذاتها ، منفصلة عن علاقات الإنتاج . وتحدد علاقات الانتاج كل البنية الطبقية (في المجتمع الطبقي) للجهاز الاجتماعي ، وطابع البناء الفوقي ، وأشكال الوعي الاجتماعي كلها .

وعند تقييمنا لتقدمية بناء اجتماعي أو آخر ، يجب ان لا نهمل كل العوامل التي ذكرناها . اذ لا يعط المستوى العالي للتطور الصناعي ، آليا ، نظاما اجتماعيا اكثر تقدمية . وقد حدث ، تاريخيا ، أن الدول ، ذات القوى المنتجة الضعيفة التطور ، نسبيا ، كانت اول من انشقت ، عن سلسلة الرأسمالية وبنت مجتمعا اشتراكيا ، ويعتبر هذا المجتمع الاشتراكي الجديد درجة جديدة ، كيفيا ، من التطور الاجتماعي ، اكثر تقدمية . ان التطور القاصر للقوى المنتجة ، والتأخر الاقتصادي الموروث يزولان وينمحيان ، بنجاح ، بفضل التصنيع الاشتراكي . لكن بقايا هذا التأخر تخلّف ولفترة طويلة ، اثرا لا يسمح باظهار الافضلية الاقتصادية للبنناء الجديد ، بشكل كامل . ومع أن الدول الاشتراكية ، لازالت متأخرة صناعيا عن البلدان الرأسمالية المتقدمة ، غير انها سبقت الدول الرأسمالية ، من الناحية الاجتماعية ، لفترة عصر تاريخي كامل .

إذن . اين يكمن مقياس التقدم الاجتماعي ؟ يكمن مقياس

التقدم الاجتماعي ، بالطبع ، في إمكانية تلبيـــة المتطلبات ، أو الحاجات المادية والروحية ، بشكل كامل ، لأكبر عدد من السكان، وفي اكبر قدر من الحرية الاجتماعية ، وفي امكانيـــات التطــور الشامل ، ومن جميع النواحي ، لكل عضو من اعضاء المجتمع . وتطور القوى المنتجة هو شرط ضروري ـ الا انه غير كاف بمفرده ـ لتطور المجتمع التقدمي ، وأساس لهذا التطور التقدمي .

نظرية الانحطاط الاجتماعي Dégradation : الــى جانب النظرة التفاؤلية الحافلة بالآمال ، في ان يحل التقدم العلمي ـ التكنيكي ، آلياً ، تناقضات الرأسمالية كلها ، وان يعطيها قوى جديدة ، يتميز الفكر الاجتماعي البرجوازي المعاصر ، وبدرجة اقل ، بالنظرة التشاؤمية ، والخوف مـــن التصنيع والتكنيك المتزايد لنواحي الحياة الاجتماعية كلها . وفي كلا الاتجاهين تبرز، في الواقع الثقة العمياء والايمـــان المطلق بالتكنيـــك . غير أن التشاؤمية تنظر لهذه الثقة ولهذا الايمان من الناحية السلبية . ففي الحالة الاولى (النظرة التفاؤلية) يبدو التكنيك على شكل ساحرة طيبة ، تعِد الانسانية بعصر ذهبي . اما في الحالة الثانية (التشاؤمية) فيتحول التكنيك فيها ، ليتخـــذ شكل شيطان رهيب ، يهدد بسحق الانسان وتحطيمه .

وقد عبر عن الخوف من التقدم التكنيكي بجلاء ، الفيلسوف الروسي ـ المهاجر ، المثالي ق. بيرديايف حيث يؤكـد : « ان الخطر الرئيسي ، يكمن في ان التكنيك يهدد الانسان ذاته . إذ يرتعش قلب الانسان من برودة المعادن . لقد خلق الإنسان مجتمعا منظما ، واستخدم فيه التكنيك ، بشكل واسع ، من اجل فرض

سيطرته الكاملة على الطبيعة . غير أنه وبسبب ترابط الاحداث والظروف المريع ، سيصبح الانسان ، ثانية ، عبدا لما صنعه هو بنفسه ، عبدا لمجتمع الآلات ، ينحط فيه الانسان دون ان يشعر . . . إني أشعر بالقلق والهلع من اشباح رهيبة : من أن يأتي وقت تصبح فيه الآلات مكتملة مثالية تامة ، لدرجة انها ستعمل من تلقاء ذاتها ، دون تدخل الانسان وبدون مساعدته ، من ان يأتي زمن تسيطر فيه الآلات والماكينات Machines على العالم كله ، فتنتصر السيارات والطائرات على السرعة ، وتغرق اجهزة المذياع ، الجو ، بموسيقا الاصوات الميتة ، عندها سيختفي من بقي من البشر ، الذين غدوا عقيمين وعاجزين ، تاركين وراءهم عالما جديدا خلقته عقولهم وأيديهم »(١) .

وقد عبر « بيردياييف » عن هذه الآراء في الثلاثينيات . غير أن مثل هذه الأقاويل يمكن مصادفتها ويمكن ان نجدها ، في العصر الحاضر ، لا في الابحاث الفلسفية والسوسيولوجية فقط ، بل وفي الكتابات الاجتماعية النقدية والكتب الادبية ، الشعرية منها والنثرية ايضا . ويؤكد بعض المؤلفين أنه ، بسبب الثورة العلمية ـ التكنيكية الواسعة ، وأتمتة الانتاج ، واختراع الآلات السيبرنيتيكية ، أصبح الانسان فائضا لا لزوم له ، تبعده وتزاحمه أعماله التي خلقها بنفسه .

وينتقل مؤيدو هذه الفكرة ، بغض النظر عن نواياهم

---

(١) مقتبسة من كتاب : غ.ن فولكوف : أعصر الناس الآليين أم عصر الانسان؟ موسكو ١٩٦٥ ص ١٥٥ « الطبعة باللغة الروسية » .

الشخصية ، آلى مواقف تبرير الامبريالية وتبرئتها . ويحاولون خلق انطباع عام ، بأن التكنيك والعلم ، بحد ذاتهما ، وبسبب تطورهما العالي ، يسترقان الانسان ويبخسان قيمته ، ويقويان من غربته ويجعلان منه منبوذاً .. الخ .. وهذه النظرة تخفي حقيقة كون الامبريالية ، بالتحديد ، مستعدة وقادرة على توجيه افضل منجزات العبقرية الانسانية لضرر الانسانية ذاتها ، وحقيقة ان اوساط راس المال الاحتكاري قد استعملت أعظم اكتشاف في قرننا هذا ، وهو الطاقة النووية كسلاح للفتك الجماعي . إن ما يهدد السلام وآلامن على الارض ، ليس «مارد التكنيك » الملفق وليس « مارد العلم » ، بل هو « مارد » مميز وملموس ، هو راس المال الاحتكاري . ولا يمكن للعلم والتكنيك ان يخدما المصلحة الاجتماعية العامة والمصلحة الخاصة لكل فرد ، الا في ظروف الاشتراكية ، التي تخلق المقدرات والقيم المادية والروحية الضرورية لتطور الفرد المتكامل وسعادته .

ان الابحاث السيبرنيتيكية لا تعرض الانسان لخطر الاستعباد والفناء . بل على النقيض ، فهذه المنجزات العظيمة ، لعبقرية الانسان ، قادرة على تحرير الانسان كليا ، من العمل (النشاط) الجسماني المرهق اللاإبداعي والروتيني الشكلي ، وتضاعف هذه الآلات السيبرنيتيكية نشاط الانسان العقلي وتقويه ، بمرّات عديدة ، الا انها لا يمكن ، بأي شكل ، آن تحل محل روح الانسان المبدعة وموهبته والهامه ، ذلك الانسان الذي يشق الطرق الجديدة في التكنيك والعلم والفن .

ويرى بعض السوسيولوجيين البرجوازيين ، آن تطور

التكنيك ، خصوصا المكنكة والأتمتة، يؤدي الى التوحيد اوالتقييس المفرط والفاحش لكل نواحي حياةالانسان، Standartisation والى قولبة شخصيته وما « المجتمع الجماهيري » الذي بدأ يتشكل ، حسب تعبيرهم ، الا خطوة الى الوراء ، وانحطاطا ، بالمقارنة مع المرتفعات السالفة التي وصلت اليها المدنية الانسانية.

ويعمم الايديولوجيون البرجوازيون مفهوم « المجتمع الجماهيري المنحط » على البلدان الرأسمالية والاشتراكية أيضا. فهم لا يطلقونه عبثا ، إنم يحاولون نسب عيوب الرأسمالية وتناقضاتها الى الاشتراكية ، والغاء الاختلافات الكيفية (من حيث الكيف) بين النظامين الاجتماعيين المتناقضين . ويؤكد علماء الاجتماع البرجوازيون ، ان الرأسمالية والاشتراكية ، كشكلين « للمجتمع الجماهيري » كلاهما مفطوران ، وبدرجة واحدة ، على ادخال البيروقراطية الى مجالات الحياة الاجتماعية كلها ، وعلى اخضاع الانسان للقوى الاجتماعية المغفلة .

غير ان هذا لا يعني البتة ، ان علماء الاجتماع البرجوازيين الاصلاحيين ، يساوون ، حقيقة ، بين الرأسمالية والاشتراكية. إنهم يخلصون ، في نهاية الامر ، الى ان عيوب المجتمع « الجماهيري » أو « الصناعي » (يستعمل علماء الاجتماع الغربيون هذين المصطلحين بمعنى واحد) يمكن تلافيها واصلاحها في ظروف الرأسمالية ، أما في الدول الاشتراكية فلا يمكن اصلاحها أو تلافيها .

وقد كتب عالم الاجتماع الالماني الغربي ، الاشتراكي

اليميني ف. سترتسيليفيتش W. Strzelewicz عـــن وجود اتجاهين في المجتمع « الصناعي » او « الجماهيري » المعاصر — اتجاه التطور البعيد للبيروقراطية وسيطرة « التكنوقراطيـــة الكلية » ، واتجاه آخر معاكس يقود الى تنظيم الحياة الاجتماعية على اساس الديمقراطية Democratisation . ويتجلى الاتجاه ، حسب رايه ، في تبعية الفرد المتزايدة لجهاز السلطة البيروقراطي، وللمراكز المكونة للوعي الاجتماعي . وقد كتب يقول : « يخلق المجتمع الصناعي ، أكثر من أي وقت مضى ، الشروط الاوليـة للمراقبة الدقيقة للوجود الشخصي »(١) ، الا ان هذا كله يجب ان لا يولّد ، عند الفرد ، الشعور بالضعف امام عالم « الآلية » الاجتماعية ، أو الميكانزم البيروقراطي . حيث انه يوجد اتجاه معاكس آخر وتوجد مؤسسات ديمقراطية تؤدي وظائفها وتدافع عن حقوق الفرد .

وكما يزعم المؤلف ، تمتاز الدول الاشتراكية ، بشكل عام، بالاتجاه البيروقراطي . اما الدول الغربيـــة فتمتاز بالاتجـــاه الديمقراطي . غير ان الحقيقة تخالف وتدحض هذه الآراء ، فنمو الاقتصاد ، وبناء القاعدة المادية — التكنيكية للشيوعية ، واتساع الثورة العلمية — التكنيكية وانتشارها — هذه العوامل كلها — تتصل ، عضويا ، بتطور الديمقراطية الاشتراكية البعيد، وتتصل أيضا بالمبادرة والابداع المتناميين لدى الجماهير الشعبية الواسعة،

---

(1) W. Strzelewicz : Industrialisierung und Demokratisierung der modernen Gesellschaft. Hannover, 1964, S. 75.

وبازدياد دور المنظمات الاجتماعية في مختلف مجالات المجتمع السوفييتي . ولا يؤدي التعقد المتزايد لمهمة ادارة الاقتصاد الوطني ، في ظروف الاشتراكية ، الى نمو الراسمالية،بل العكس، فالبيروقراطية ، كراسب من رواسب الراسمالية ، يقضي عليها ، وبنجاح اكثر ، كلما سارت ، وبشكل ابعد ، عمليةتطوير وترسيخ العلاقات الاشتراكية الاجتماعية .

اما التطور الاجتماعي « الغربي » ، أو بالاحرى ، التطور الاجتماعي للمجتمع الراسمالي المعاصر ، فهو نقيض ذلك تماما. فديكتاتورية الاحتكارات ، التي تستخدم الجهاز الحكومي من أجل مطامعها المغرضة ، تطمح الى التخلص من البقايا الاخيرة للحريات البرجوازية الديمقراطية ، وتتحول ، تدريجيا ، وعن طيب خاطر ، الى الاساليب الديكتاتورية الفاشية للادارة .

ويتناول الايديولوجيون البرجوازيون «المجتمع الجماهيري» بالنقد ، منطلقين من مواقع رجعية،إذ يحاول هؤلاء الايديولوجيون البحث عن علاجات (وصفات) تنقذ « المدنية الغربية » ، دون المساس بأساس الراسمالية — وهو الملكية الشخصية لوسائل الانتاج . وهم ، باعترافهم وبنقدهم لبعض مظاهر أزمة المجتمع البرجوازي ، يحاولون « تصحيح » نقائص الراسمالية وعيوبها، عن طريق الوعظ الاخلاقي أو اللجوء الى الدين والروحيات . ومع ذلك فنقدهم للنظام البرجوازي لا يخلو من متعة ومن موعظة.

يقول الكاتب الامريكي ، الواعظ الديني ب. جريهيم **B. Jraham** في كتابه « عالم في نار » : « لقد دخلنا في عصر جديد ،

قد يكون العصر الاخير في التاريخ » . « آن الادلة على الانهيار الاخلاقي لمجتمعنا ، واضحة ومرئية ، حيثما نظرنا » . ويشير المؤلف الى ازدياد الاهتمام بالقضايا الجنسية ، وهو حسب رأيه « دائما ، دلالة على تفسخ المدينة وانحلالها » . كما تفسد المطبوعات ، والتلفزيون ، والسينما ، والادب ، الاذواق ، في الولايات المتحدة وبلدان اوروبا الغربية ، وتجعل من الحب « عهارة فوضوية » . إن انحلال الاخلاق يؤدي الى انحلال العائلة. كما ينتشر الخداع وانعدام الشرف ، في المجتمع الامريكي لدرجة مريعة مهددة و « يتسع الشق في الجسر الاخلاقي » . ويقول جريهم ايضا : « ولسخرية القدر ، فالمدنية التي خلقت افضل السيارات ، واحسن البرادات والتلفزيونات ، تنجب ، في الوقت نفسه ، أسوأ الناس » . ان هذه الاعترافات مهمة وخطيرة ، خاصة ، ان قائلها عدو للاشتراكية والشيوعية . ومع ذلك فهو يؤكد ان الخطر الاكبر ، ليس الشيوعية بحد ذاتها ، بل « هو اللامبالاة الروحية عند الناس في الغرب » ، وانعدام الغيرة الدينية وغياب الايمان عندهم . ويرى « جريهيم » أن الانسان قد وصل الى التقدم في العلم والتكنيك ، غير آن وعيه الاخلاقي لا يوافق هذا التقدم(١) .

وهنا ، ينضم جريهيم الى مؤيدي النظرية المنتشرة في أوساط علماء الاجتماع البرجوازيين ، وهي نظرية « تأخر الانسان

(1) B. Jraham : World a flame. Kimgswood the worlds work. 1966, P. 13, 31-33, 40.

الثقافي والاخلاقي،عن تطور العلم والتكنيك في «المجتمع الصناعي».
ويفترض بعض السوسيولوجيين البرجوازيين ان هذا التقصير (التخلف) حتمي ، لا يمكن التهرب منه . بينما يحاول البعض الآخر ، إيجاد الوسائل للقضاء على هذا التأخر ، وكوسيلة من هذا النوع ، يتخذون الدين والإنسية Humanisme البرجوازية التجريدية . كما يتردد صدى الاصوات المنادية ، بضرورة « الثورة الاخلاقية » او « بإعادة التسليح الاخلاقي » من اجل انقاذ الانسان من « آلة المدنية » ومن النمو الجنوني الجامح للعلم والتكنيك .

ويُعتبر هربرت ماركوز من اشهر الدعاة « للانسية الجديدة Humanisme » و « المجتمع الصناعي » المعاصر ، حسب تعريفه ، هو مركزية السلطة الاقتصادية واندماجها بالدولة والحكومة ، وانهضام Assimilation طبقة الكادحين ، والاضمحلال التدريجي للبروليتاريا ووعيها الثوري ، والتعاون بين العمل ورأس المال .

ويقف ماركوز ، برسمه لهذه اللوحة الكاذبة المبررة للمجتمع البرجوازي ، مموهاً بذلك التناقضات الاساسية التي تميزه ، يقف وقفة المدافع عن الانسان ضد التأثير اللاإنسي «لآلةالمدنية».
ويؤكد ايضا ، ان كل شيء ، في « المجتمع الصناعي » موجه من اجل زيادة الانتاج ، أما الثقافةوالعلم ، فيخدمان الانتاج لا أكثر ، ويتملكان ، عدا عن ذلك ، روح الانسان ، ويقودان لاوعيه ، ويطردان (يخرجان) الانسان من « الأنا » التي تخصه هو بذاته.
وباختصار ، يسعى « المجتمع الصناعي » الى عرقلة ادارة

الانسان لذاته وتفكيره وعواطفه ، ويعوق تطوره الروحي ويحرمه من السعادة .

ويصرح ماركوز بأن إنسية Humanisme ماركس ضعيفة ، غير قادرة على تغيير هذا المجتمع ، وتلزم من آجل تغيير هذا المجتمع « إنسية تحررية » يتركز جوهرها على : « رفض تطور القوى المنتجة المتواصل ، ورفض توسيع الانتاج عن طريق القضاء على المنتجات الفتاكة والطفيلية ، واعادة تأسيس المدن التي غدت لا إنسية بالمعنى الحقيقي للكلمة ، واستعادة الطبيعة من الصحارى التي خلقتها المدنية ، وتحديد نمو السكان »(١) .

ويقول ماركوز ايضا : ان الأتمتة تتنافى ووجود المجتمع. صحيح ان ماركوز ينبه ، بأنه لا يؤيد العودة الى البؤس واللانضج . بل يؤيد ، فقط ، الانتاج من اجل تلبية الحاجات الانسانية الحقيقية . الا ان الواقع يبقى واقعا ، فماركوز ، من اجل انقاذ الانسان (الذي يفهمه بشكل مجرد) يدعو الى ايقاف قوى الانتاج ، وعرقلة الثورة العلمية ــ التكنيكية . وهذه ، بالطبع ، طوباوية رجعية موجهة ، لاضد الراسمالية ، وإنما ضد الحركة الثورية للطبقة العاملة وايديولوجيتها الماركسية .

ويكتب ماركوز ، مدعيا بأنه نبي « الانسية الجديدة » ، فيقول : « لايوجد اي ضرب جماهيري أو منظمة يمكن النظر اليها كمعبرة عن اتجاه هذه الإنسية الجديدة . ولكن يوجد في كل مكان (وفي كل طبقة) ، وليس في طبقة واحدة ، افراد وجماعات

(1) « Partisans », 1966, N. 28, P. 26.

صغيرة . وعت المفهوم الحالي الكاذب للتقدم والازدهار ، وتعمل من اجل مساعدة الآخرين على إدراك هذه الحقيقة »(١) . يدعو ماركوز ، من مواقع راديكالية البرجوازية الصغيرة ، الى وحدة شذاذ الآفاق والمنبوذين او اللامنتمين Outsider ، وينادي، بشكل ديماغوجي ، « بثورة الشباب » .

ويرى علماء الاجتماع البرجوازيون ان «المجتمع الجماهيري» يولّد ، حتمـا ، اغتراب (ابعاد Estrangement) الانســان **ويقود الى لا انسانية العمل** ؛ اي ينزع عن العمل اي هدف انساني جدير . ولا تتعلق هذه العملية ، كما يؤكدون ، بجوهر النظام الاجتماعي ، بل تتعلق فقط ، بتطور التكنيك ، وتعقيــدات الصلات والعلاقات الاجتماعية وتسارع إيقاع (خطوات) الحياة.

ويغدو الاغتراب (الابعاد) ، كما يقولون ، في « المجتمع الصناعي » شاملا ، وينفذ الى علاقة الانسان بعملــه ، وبالمواد التي يستخدمها ، وينتشر ويعم ليشمل الدولة ومؤسساتها ، والاشخاص المحيطين . واكثر من ذلك ، ينتشر الإغتراب علــى الانسان ذاته ، ويتحول الى إغتراب ذاتي ، عندما يصبح الانسان مبعداً عن نفسه بنفسه . عندها يكف الانسان عن كونه مــركزا للحياة الاجتماعية ، وكونه مالكا لمصيره وأعماله . بل ، علــى النقيض ، تسيطر هذه الافعال وعواقبها على الانسان وتجعلــه خاضعــا لها .

إذن ما الذي يجب ان نفهمه من كلمة الاغتراب (الابعــاد

---

(1) « Portisans» . 1966. No 28, P. 26.

Estrangement)في هذه الحالة ؟ استعمل هـذا الإصلاح في الفلسفة منذ زمن ليس بقصير . فقد استعمل هذا الاصطلاح ، على سبيل المثال ، هيغل وفييرباخ (وقد أعطاه كل منهما معنى خاصا به) . غير أن هـذا الاصطلاح ، غـدا ، ولأول مرة ، ذو محتوى علمي ، وديالكتيكي ــ مادي ، في المؤلفات المبكرة لماركس (المخطوطات الاقتصادية ــ الفلسفية لعام ١٨٤٤) . وقد أظهر ماركس : أن العمل نفسه ، ومنتوج العمل ، وبعض صفات العامل ايضا تتباعد ، في المجتمع البرجوازي ، عن العامل وتنفر منـه ، وتبرز كقوى مستقلة عنـه ، مستبعدة إياه . ورأى ماركس في الملكية الشخصية سبباً رئيسياً للاغتراب والابعاد . وتقضي الازالة الثورية للملكية الشخصية علـى مختلف اشكال الاغتراب والابعاد : حيث يزول ، أولا ، تباعد منتوج العمل ، الذي يصبح ملكاً للعامل في ظل الاشتراكية ، وثانياً ، يوضع حد لتباعد (لاغتراب) سير العمل ، نظراً لأن العامل يصبح غيـر خاضع لأهداف العمل المنفرة المبعدة ، كما يكف العامل عن كونه ذيلاً للآلة . وثالثاً ، تضع الاشتراكية حداً للاقصاء والابعـاد الذي دعاه ماركس إغتراب الحياة الموروثة للعامل ، عندما يصبح راس المال قوة غريبة ، عدائية ، تحرم العامل كـل مسرات الحياة ، ومكتسبات المدنية (كالتعليم ، والثقافة . الخ ..) .

ويؤكد الاعداء الألداء للماركسية ، من كاثوليك او نمّامين اشتراكيين ــ ديمقراطيين يمينيين ، بأن النفور ، في ظروف النظام لاشتراكي والملكية الجماعية ، يصعب القضاء عليه ، لا بل يزيد يقوى ، اما الفرد الانساني فيتحول ، بكامله ، الى « نتـاج سيط للعلاقات الاجتماعية » . ويعبر عن هذه الآراء ، خاصة ،

المنظر الاصلاحي العجوز « لاندسكوت » ، ويؤكد في الوقت نفسه ان « المجتمع الغربي » بتخلصه من الانقسام الى طبقات ومن الاستغلال ، على حد زعمه ، فقد محى أو أزال ، بشكل كامل ، أو بشكل جزيء على الأقل ، مادعاه ماركس بإغتراب الانسان وتباعده .

غير ان هذه الاستنتاجات بعيدة عن ان تكون عامة ، وبعيدة عن أن تكون مقبولة من الجميع ، حتى في الاوساط السوسيولوجية البرجوازية ، فعلى سبيل المثال ، يؤكد عالم الاجتماع النمساوي ف. بوتشيك F. Butshek ، في كتابه المخصص لبحث مشاكل الاقصاء والتباعد ، بأن ما يحدد تباعد الانسان واقصاءه ، ليست الملكية الشخصية ، بل تقسيم العمل ، والتبادل ، ومادية العلاقات الانسانية الخ ... وبما ان هذه الظواهر باقية ، لايمكن إزالتها ، كذلك التباعد والاقصاء لايمكن تنحيته أو ازالته . وقد كتب بوتشيك قائلا : « لا يمكن ، بحال من الاحوال ، النظر الى فكرة ماركس ، حول القضاء على التباعد او محوه ، كهدف اشتراكي ابدا ، . انها طوباوية ليس الا »(١) وبوتشيك متأكد ، وواثق كل الثقة ، بأنه لا يمكن القضاء على النفور والتباعد ، لا في المجتمع الغربي ، ولا في المجتمع الاشتراكي .

إن مثل هذا التأويل للاقصاء والنفور ، يحوله الى

---

(1) F.Butschek. Der gelenkte memsch von Mark bis heute. Wien, 1962, S. 25.

صفة وراثية (أنتروبولوجية) إنسانية خالدة ، ويجعلـه أشبه باللعنة او أشبه « بالخطيئة الاولى » ، وانطلاقا من مثل هـذه الشروط الاولية ، والمقدمات الضرورية ، يصل السوسيولوجيون البرجوازيون الى استنتاج فحواه ، أن النضال من اجـل انسنة العمل Humanisation لا معنى له ، وأن لا فائدة ترجى مـن التحويل الاشتراكي للمجتمع ، نظرا لأنه لا يغير شيئا ولا يبدل من وضع العامل .

وقد اقتبس ، وبشكل واسع ، التحريفيـون اليمينيـون المعاصرون ، الاختلاقات والافتـراءات ، عـن الايديولوجيين الاشتراكيين – اليمينيين والبرجوازيين ، التي تزعم استحالة التخلص من الاغتراب والنفور في ظروف المجتمع الاشتراكـي . ويعتبر النفور او الاغتراب ، حسب رأيهم ، المشكلة الرئيسية للمجتمع الاشتراكي . ويزعمون ايضا ، أن القضاء على الملكيـة الخاصة لوسائل الانتاج ، وقيام العلاقات الاشتراكية للانتاج ، لا يؤديان حسب رأيهم ، الى القضاء على النفور او الاغتـراب الذاتي للفرد . ويقولون ، بافتراء ، أيضا ، أن الفرد في ظروف الاشتراكية ، يشعر بالخطر على وجوده ، ولا يحس بأنه متصل بالمجتمع وبالوحدة الجماعية ، بل هو وحيد منعزل . وأن كل كل ما تخترعه يد الانسان وعقله لا يخضع لملكية صاحبـه ، في المجتمع الاشتراكي ، بل يخرج عن هذه الملكية ، ويتحول الى اشياء دخيلة غريبة تسترق قوى الانسان وتستعبده .

غير أن حمم هذه الاحاديث والآراء التحريفية ، السياسية ، وسمومها كلها ، حول الاغتراب او الاقصاء في الاشتراكيـة ،

لا تكمن في هذا . بـل يرون (أي التحريفيون) أن العقبات والمعيقات ، التي لا يمكن القضاء عليها ، لتطور الفرد الشامل والحر ، تكمن في الأسس الاقتصادية والسياسية نفسها للنظام الاشتراكي . والمظهر الرئيسي « لنفور الفرد وتباعده » في المجتمع الاشتراكي ، يرونه في : الدولة الاشتراكية ، والدور القيادي للحزب الشيوعي ، والمواقع المسيطرة للايديولوجية الماركسية - اللينينية . لهذا وضع التحريفيون اليمينيون ، الذين يظهرون بمظهر المدافع عن الإنسية برنامج الثورة المضادة ، السياسي التالي : بحب النضال ضد كل اشكال التباعد والاغتراب هذه ، من اجل تحرير الفرد .

ويتعامى التحريفيون اليمينيون ، عن قصد ، عن الجوهر الانساني لسياسة الدولة الاشتراكية ، وهو ان الدولة ، نفسها، في أيدي الطبقةالعاملة ، التي يقودها الحزب الماركسي - الأداة لبناء الاشتراكية والشيوعية - مجتمع العدالة والانسانية . وأما القهر والارغام ، اللذين قد تمارسهما الدولة الاشتراكية ، فهما موجهان ضد بقايا الطبقات المستغلة ، ضد العناصر المعادية للاشتراكية وللمجتمع ، وضد عملاء الامبريالية .

ويؤكد التحريفيون اليمنيون ، زاعمين ، أن الدولة الاشتراكية ، تولد ، حتما ، البيروقراطية . لهذا فالتناقض الرئيسي في المجتمع الاشتراكي ، هو بين البيروقراطية وبين مصالح الجماهير الشعبية . الا ان الواقع غير هذا ، فالبيروقراطية ليست ، أبدا ، صفة عضوية للتنظيم السياسي للمجتمع الاشتراكي . ان البيوقراطية هي راسب من رواسب الماضي ، تقود الاحزاب الشيوعية ، المخلصة للروح الابداعية للماركسية

ــ اللينينية ، ضدها حربا لا هوادة فيها ، جاذبة اليها الجماهير الشعبية الواسعة ، للنضـــال ضد مظـــاهر البيروقراطية ، ولادارة الدولة .

بالطبع ، قد يؤدي الابتعاد عن المبادىء الاساسية للماركسية ــ اللينينية الى تحول السلطة الشعبية الى ديكتاتوريةبيروقراطية ــ عسكرية . غير ان هذا الابتعاد ليس قاعدة ، بل شذوذ عنها ، يظهر نتيجة التحريف الشوفيني ، واليساري الانتهازي لمبادىء بناء المجتمع الاشتراكي اللينينية . اما في حالة الالتزام بهـــذه المبادىء ، وتحقيقها وتنفيذها المستمرّين ، فلا يبق شيء مـــن « نفور أو تباعد » الفرد في المجتمع الاشتراكي . ان الاوهـــام الافترائية عن نفور الفرد وتباعده ، تكذبها الحياة العملية نفسها ، ويفضحها ويكشفها بناء النظام الاجتماعي الجـديـد ، وتثبيت دعائمه ، في الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية الاخرى .

ويتناول الماركسيون من السوفييت وغيرهم ، النظريات البرجوازية والاصلاحية ، عن التباعد والنفور ، بالنقـد المدعوم بالحجج والبراهين . غير ان هذا النقد ، يوجه في بعض الاحيان، انطلاقا من مؤلفات ماركس المبكرة . لقد اعطى ماركس ، في هذه المؤلفات الاولى (المبكرة) تعبيرا تخطيطيا ، لا اكثر ، للعقيـدة الديالكتيكة ــ المادية الجديدة ، ولفكرة الشيوعية العلمية . وقد اسسها كل من ماركس وانجلز ، بشكل عميق ، وأثبتاها علميا ، فيما بعد . ويلجأ كثير مـن « السوسيولوجيين المتمركسين » ومن حذا حذوهم من التحريفيين الى معارضة ماركس الشاب بماركس الراشد (في سن الرشد) ، معتبرين « الخطوطـــات

الاقتصادية ـ الفلسفية لعام ١٨٤٤ » قمة فكر ماركس ، حلت بعدها مرحلة التدهور عنده .

ومن واجب الماركسيين ، أن يبحثوا هذا الموضوع بشكل علمي ، وبالتالي ، بشكل تاريخي . فمن المعروف ان ماركس لم يصبح ، دفعة واحدة ، مادياً ديالكتيكياً . لقد كانت المثاليــة الفلسفية والديمقراطية الثورية نقطتا الانطلاق في تطوره الفكري . ومع أن ماركس ، في عام ١٨٤٤ ، كان قد انتقل نهائيا الى مواقع الديالكتيكية والشيوعية العلمية ، غير ان بعض بقايا التأثــير السابق لهيغل وفيرباخ ، كانت موجودة عنده ، وخــاصة في حقل المصطلحات Terminologie اما المبادىء الاساسية للمذهب الجديد ، فقد كانت ذات طابع تجريدي ، وغير مثبتة ، في حقيقة الامر . وليس صدفة أن لينين قد أشار الى ان الفهم المـادي للتاريخ كان ، في البداية ، فرضية ثم تحول الى نظرية مثبتــة ومبرهن عليها عند ظهور « رأس المال »(١) وقد رفض ماركس في مؤلفاته الناضجة (التي كتبها في مرحلة الرشد) ، بشكل كامل تقريبا ، مفهوم الاغتراب (النفور) حسب معناه السابق . فقد حلت محل نظرية الاغتراب ، في رأس المال ، نظرية القمية الفائضة ، ومفهوم الصنمية البضاعية Fetichisme وغيرها من المفاهيـم المحددة والمدروسة بشكل عميق .

ومفهوم الاغتراب يحمل معاني متعددة . لهذا فعندما يقال : إن سير الاغتراب والنفور ، في المجتمـع البرجوازي المعاصر ،

---

(١) أنظر ف . اي . لينين : المؤلفات الكاملة ج ١ ص ١٣٩ ـ ١٤٠ . « الطبعة الروسية » .

يقوى باستمرار ، علينا قبل كل شيء ، تحديد محتوى هذا المفهوم ، ومن المؤكد انه ضمن هذا المفهوم يدخل : تعاظم الاستغلال وازدياد الضغط السياسي والاستعباد الروحي للفرد . غير ان هذا المفهوم يضم ايضا عنصرا آخر هو انعزال الانسان ، ووحدته ، وانهيار الشخصية ... الخ ..

ويؤكد المفكرون البرجوازيون ، منطلقين من مفهوم تجريدي للفرد ، أن عملية الاغتراب والنفور في « المجتمع الجماهيري » تسير باستمرار ، وبشكل حتمي ، مستحوذة ومسيطرة على فئات متزايدة من السكان . نحن لا نقبل بالطبع ، بمثل هذا الاستنتاج . فمن الضروري ، في هذا المجال وفي غيره ، الاعتماد على تحليل محدد ملموس ، يكشف ويظهر تعقيدات وتناقضات الواقع الراسمالي كلها . وإذا كان ، من الجائز ، ان ينطبق مفهوم الاغتراب هذا على البرجوازية الصغيرة ، والمثقفين (الانتيليجنتسيا) ، وبعض فئات العمال ، فمن المستبعد جدا ، انطباق مفهوم الاغتراب هذا على الطبقة العاملة ككل ، وعلى جميع الكادحين في البلدان الراسمالية . وعلى اية حال يمكننا ملاحظة الاتجاه القوي لازدياد حدة النضال من اجل السلام ، والتغيرات الديمقراطية والاشتراكية للمجتمع ، ومن اجل الاستقلال الوطني ، ويوحّد هذا النضال صفوف الكادحين ، ويقوي فيهم روح الوحدة والصلابة ، والتعاونية الجماعية الحقيقية .

الفصل الرابع

نظرية البنية الاجتماعية

يولي السوسيولوجيون البرجوازيون قضية البنية الاجتماعية للمجتمع البرجوازي اهتماما كبيرا . وبالرغم من الاختلاط والتناقض البادیین في آرائهم حول هذا الموضوع ، فليس صعبا العثور على أساس موحد وهدف شامل عام لهذه الآراء وهما : نفي صحة النظرية الماركسية عن الطبقات ، وتحريف الوضع الحقيقي للقوى الطبقية ونضالها في المجتمع البرجوازي المعاصر . وما هذه النظريات والافكار ، التي تبحث في البيئة الاجتماعية للرأسمالية ، في نهاية الامر ، الا محاولات لاثبات « السلام الطبقي » او « الزمالة الاجتماعية » ، وبالتالي ، إثبات لا جدوى الصراع الطبقي وتقادمه في «المجتمع الصناعي» .

ويعارض علماء الاجتماع البرجوازيون المفهوم الماركسي « للطبقات » ، بمفهوم « الجماعة Groupe » او « الجماعة الصغيرة » ، اللتان تعتبران ، حسب رأيهم ، مقولتين رئيسيتين في السوسيولوجيا . غير ان السوسيولوجيين البرجوازيين ، انفسهم ، اضطروا للاعتراف بغموض وابهام هذين المفهومين .

وهذا واحد من التعريفات لما يدعى بالجماعة الاولى ، والشائع في علم الاجتماع الامريكي : « ... إن أي عـــدد مـــن الافراد ، الموجودين في تفاعل متبادل ، الواحد مع الآخر ، على شكل لقاء مباشر واحد ، أو عدة لقاءات ، والتي يتلقى في هذه اللقـــاءات كل عضو من الجماعة بعض الانطباعات والاحاسيس عن كل عضو آخر ، ليستطيع ، في تلك اللحظة ، أو في استجواب آخـــر ، الاستجابة ، بشكل ما ، لكل عضو من أعضاء الجماعة الآخرين كفرد واحد ، ولو من اجـــل ان يتـــذكر ، فقط ، أن الآخر كان حاضرا وموجودا أيضا »(١) .

إن التحليل لهذا التعريف ، يكشف عن تجريديته ، قبل كل شيء ، حيث من الممكن آن تدخل ضمن هـــذا التعريف مختلف الصلات والعلاقات العرضية ، والغير هامة بين الناس . ويطلق علماء الاجتماع البرجوازيون اسم « جماعة » على العائلة ، وعلى الجماعات العمالية المتشكلة في المصنع ، والوحدات العسكريـــة الصغيرة ، والعصابات وجمـــاعـــات اللصوص ، وجماعة هواة اللعب في الورق الخ ....

ومما يستحق الذكر ، ان مدخل علماءالاجتماعالبرجوازيين الى تعريف مفهوم « الجماعة » هو مدخل ذاتي – مثالي . وبالفعل، فما هو مقياس « الجماعة » هذه ؟ انطباع وإحساس كل عضو من أعضاء الجماعة ، وقدرته على تذكر ومعرفة أعضاء الجماعـــة الآخرين ، أي تحديد حالة الوعي .

---

(١) مقتبسة من كتاب : كوفاردبيكر،آلفين بوسكوف : النظرية السوسيولوجية المعاصرة في تعاقبها واختلافاتها . موسكو ١٩٦١ ص ٣٥١ « الطبعة الروسية » .

وكما يقول عالم الاجتماع الفرنسي هـ. تيري H. Théry تتشكل الجماعات ، نفسها ، في المجتمع المعاصر ، عادة ، نتيجة الإختيار الحر للاشخاص المعنيين . ويعرف تيري « الجماعة » بقوله : « هي وحدة تعاونية محددة ، موجهة الى تحقيق قضية عامة ، وتعبر عن ذاتها عن طريق سلوك محدد ، وتطمح الى توازن واضح ، تسود فيه القوى الجاذبة المركزية على القوى الطاردة المركزية »(١) . والمجتمع المعاصر ، وفقا لرأي تيري ، هو نظام متناسق للجماعات المتمايزة (المتفاوتة) ، اما الانسان المعاصر ، فهو اكثر من اي وقت مضى ، يعتبر عضواً في جماعة .

ويؤكد تيري ، بأن مهمة عالم الاجتماع تنحصر في : اكتشاف ودراسة مجموعات (جماعات) إجتماعية جديدة اولا ، وفي تنظيم « الحوار » بين الجماعات وتوحيدها في سبيل «المصالح المشتركة » ثانيا . ويعتبر تيري ، أن نظريته هذه يجب ان تساعد على القضاء على التناقضات الاجتماعية ، التي تميز « المجتمع الغربي » .

ولا يحتاج الاتجاه الاجتماعي ـ السياسي لهذه النظرية ، الى تعليقات اضافية ، فهي باطلة ، غير صحيحة ، من الناحية النظرية ايضا . وكما اشار لينين ، الى آن علماء الاجتماع ، قبل ماركس وانجلز ، تعذر عليهم التمييز بين الظواهر المهمة ، وغير المهمة ، في شبكة الظواهر الاجتماعية ، المعقدة ، ولم يتمكنوا من ايجاد مقياس موضوعي لمثل هذا التمييز ، ومن هنا نشأ اصل

(1) H. Théry. les groupes sociaux : Forges Vives Paris, 1964, P. 15.

الذاتية في السوسيولوجيا(٢) . وقد استطاع ماركس وانجلز ، بابرازهما لعلاقات الانتاج ، بمثابة بنية للمجتمع ، أستطاعا ايجاد مقياس موضوعي للتمييز بين الجوهري والضروري ، وبين الثانوي والعرضي ، في مجموعة لا نهاية لها من الصلات والعلاقات الاجتماعية . ومن البديهي ، أن الماركسية لا تنفي وجود ، مختلف أنواع روابط الناس واتحاداتهم ، في جماعات ، في المجتمع ، وخاصة ، في المجتمع المعاصر ، كالاحزاب السياسية ، والنقابات، والجمعيات والروابط بأنواعها والنوادي الرياضية وماشابهها . .

ولكن هل كل هذه الجماعات مهمة ، وحيوية،بدرجةواحدة، لحياة المجتمع ؟ يعتبر علماء الاجتماع البرجوازيون المجموعات كلها ، متساوية في القيمة ، كموضوع للتحليل السوسيولوجي . اما الماركسية فتبرز منها المجموعات الرئيسية والاساسية التي ينقسم على اساسها المجتمع في المراحل المحددة من تطوره ، وهذه الجماعات الكبيرة من الناس تسمى بالطبقات . وتتميز هذه الطبقات ، بعضها عن بعض بموضعها في النظام المحدد ، تاريخيا ، للانتاج الاجتماعي ، وبموقفها من وسائل الانتاج ، وبدورها في التنظيم الاجتماعي للعمل ، وبأشكال حيازتها للثروة الاجتماعية وحصتها منها .

ويتحدث السوسيولوجيون البرجوازيون عن مختلف الجماعات والجماعات الصغيرة ، لدرجة تطرقوا فيها للحديث عن محبي الكونياك والويسكي ، ومع ذلك فهم ينفون ، وبعناد ، وجود الطبقات في المجتمع البرجوازي الحديث ، ويعارضون

---

(٢) أنظر ف.اي. لينين . المؤلفات الكاملة . ج ١ ص ١٣٧ ـ الطبعة الروسية.

نظرية الطبقـــات والصراع الطبقي الماركسية ـ اللينينيـــة ، ببديلات نظرية كاذبة . وأكثر هذه البديلات ، انتشاراً ، نظرية « التنضيد Stratification الاجتماعي والحركية الاجتماعية » .

وكما يؤكد السوسيولوجيون البرجوازيون ، لايقسم المجتمع الى طبقات ، حسب المفهوم الماركسي ، بل يقسم الى طبقـــات خاصة او تنضيدات Stratum . وقد اخذ هذا الاصطلاح مــن الجيولوجيا ويقصد بال Stratum الطبقات او التنضيدات ذات الاصل الجيولوجي . ويدعون ، احيانا ، الدرجات والطبقات الاجتماعية ، في علم الاجتماع البرجوازي ، بالطائفة (الشكل ، الطبقة السلالية) Caste ، أو بالحالـة او الوضـــع Status وما شابهها ....

فما هي العوامل ، التي يمكن على اساسها ، ان ننسب الافراد الى طبقة او تنضيدة ما ؟ لا يعطي علمـــاء الاجتمـــاع البرجوازيون جوابا واحدا على هذا السؤال . فهــم متفقون ، فقط . على انكار الدلالة الحقيقية العلمية ، التي ينقسم الناس على اساسها ، وهي علاقاتهـــم بوسائل الانتاج . ويرددون ، بصوت واحد ، ويؤكدون ، أن ملكية وسائل الانتاج في « المجتمع الصناعي » فقدت كل معنى . لهذا يجب البحث ، كما يرون ، عن الاختلافات بين الطبقات او (الدرجات من الناس) في نواحي اخرى : اي يجب البحث عنها في الايرادات ، وفي اسلوب الحياة وشكلها ، وفي المستوى الثقافي والتعليمي ، وفي السكن واللباس ، وما شابهها ...

ويقومون ، أحيانا ، بتقسيم المجتمع الى طبقات Stratum

حسب مقياس واحد ، من المقاييس المذكورة ، وأحيانا اخرى يأخذون عدة دلائل ، وفي هذه الحالة ينتفي « تطابق (تنضيد) متعدد الدرجات » ، ويمكن للانسان ، حسب هذا التطبق المتعدد الدرجات ، أن يكون منتسبا لعدة « طبقات » . وكما يرى عالم الاجتماع الامريكي س. ليبسيت ، يمكن تصنيف الناس ، حسب الدلائل التالية : الحرفة او نوع العمل ، مستوى الحياة (الاستهلاك) ، وحدة الاهتمامات الاجتماعية ، حيازة السلطة السياسية . ووفقا لهذه الدلائل ، يتحدث س. ليبسيت عن وجود الطبقات « الحرفية ، الاستهلاكية ، والاجتماعية » ، و « طبقات السلطة » . وانطلاقا من فهم سيكولوجي — ذاتي للعلاقات الاجتماعية ، يعرف ليبست الطبقة بأنها « هي طبقة المجتمع المؤلفة من افراد ، يعترفون بأنهم متساويين فيما بينهم ، ويعتبرون انفسهم وحدة ودية مخلصة » .

واضح ومفهوم ان من الممكن عمليا تمييز وتسمية عدد غير محدود من « الطبقات » اعتمادا على مثل هذه الدلائل الذاتية .

وقد نقد آ. ي. هيرتسن(١) التلهف للتمييز ، والرغبة بالتصنيف عند معاصريه الكلاميين المدرسيين ، فقال « انهم مستعدون لتصنيف الناس حسب جِزَمهم وحسب أزرارهم . وفعلاً ، لقد وصل بعض السوسيولوجيين البرجوازيين ، تقريبا ، الى مثل هذا التصنيف ، حين يعتبرون ارتداء السترة (الجاكتة) وربطة العنق ، دليلا على الانتماء « للطبقة المتوسطة » ، او

(١) هيرتسن : « ١٨١٢ — ١٨٧٠ » ثوري — ديمقراطي روسي ، وكاتب . ومؤسس الحركة الشعبية . نفاه القيصر ، فعاش في فرنسا .

يعتقدون ان من الافضل تمييز الرجال ، الى طبقات ، حسب درجة تعاطيهم للمسكرات »(١) .

ويسيطر التعسف والهوى الكاملين على علماء الاجتماع البرجوازيين ، لدى بحثهم لقضية **عدد «الطبقات»** او **«الدرجات»** الموجودة . ان رسوم **التطبق والتنضيد** ، **المتبعة** في السوسيولوجيا البرجوازية ، تشوه الصورة الحقيقية لبنية **المجتمع** البرجوازي الطبقية ، وانقسامه الى طبقات متعارضة ، متناقضة .

ويعتقد علماء الاجتماع البرجوازيون ، ان الصفة المميزة للمجتمع المقسم الى مراتب او الى « طبقات » هي **الحركية** الاجتماعية Mobiliteé ، التي يقسموها الى حركة (او تحرك) أفقية ، وحركة عامودية . أما **التحرك الافقي** : فهو انتقال الناس داخل الطبقة الواحدة ، كانتقال مكان العمل او مكان السكن ، و **التحرك العامودي** : هو انتقال الناس من طبقات أدنى الى طبقات أعلى او بالعكس .

ويشير علماء الاجتماع البرجوازيون الى ان « **نظام التطبق** Strtification » في **المجتمع** ، يعمل ، بشكل عام ، كمصدر للسخط من جانب **الموجودين** في أسفل السلم **الاجتماعي** ، لهذا فهو مصدر الانقسام . وبالرغم من ذلك ، **فهذا النظام** هو الميكانيزم (الآلية) الاساسي لتعيين الافراد في مختلف المناصب ودفعهم لتنفيذ ادوارهم »(٢) .

---

(١) أنظر ف. سيمونوف : مشكلة الطبقات والصراع الطبقي في علم الاجتماع البرجوازي المعاصر . موسكو ، ١٩٥٩ (باللغة الروسية) .

(٢) س. ليبست : السوسيولوجيا السياسية ـ مجلة « علم الاجتماع اليوم ـ قضايا وآفاق » ص ١٤٦ .

إن نظرية التحرك الاجتماعي معدة ، من اجل ان توحي للساخطين ، الموجودين في الدرجات الدنيا من السلم الاجتماعي ، بفكرة امكانية الصعود الى الاعلى والنفوذ الى الطبقات ، او الدرجات الاعلى . ويؤكد علماء الاجتماع البرجوازيون ، زاعمين ، أن « المجتمع الغربي » مجتمع « مفتوح » ، يتصف بالتحرك العامودي العالي . ويقولون ايضا بوجود وتوفر « الامكانيات المتساوية للجميع » و «الفرص المتكافئة فيالطبقة». ونتيجة لذلك ، هناك فرصة حقيقية ، أمام كل عامل في تنظيف الاحذية . لكي يصبح مليونيرا .

ويحاول السوسيولوجيون البرجوازيون ان يعطوا « أسساً جدية » لمثل هذه الاساطير الدعائية . فقد ظهر انه يوجد مصاعد اجتماعية Ascenseurs ، يمكن بواسطتها الصعود الى الطوابق العليا من البناء الاجتماعي . ويقولون بوجود ستة مصاعد من من هذا النوع وهي : ١ ــ **الاقتصاد** : فكل واحد ، كما يزعمون، يمكنه ان يصبح مليونيرا أو « ملياردير اً » ٢ ــ **السياسة** : إذ يستطيع كل فرد ان يترقى في المناصب السياسية . ٣ ــ **الجيش** : وهنا يوردون المثل القديم كل جندي يحمل في زوادته (حقيبته) عصا الماريشال . ٤ ــ **الكنيسة** : وفي هذا المجال ايضا ، توجد فرص للوصول الى المقامات الكنسية العليا. ٥ ــ **العلم** : وهذا مضمار أصعب وأقل شرفا ، ولكن يمكن بواسطته الوصول الى الصفوف الاولى . ٦ ــ **الزواج** : وهذا أسهل مجال للصعود ، بسرعة كبيرة ونجاح ، الى قمة الهرم الاجتماعي .

وهكذا فالمجتمع البرجوازي يشبه منزلا مجهزا بمصاعد ،

يتجول ساكنوه على هذه المصاعد ، ويستعملونها ، غالبـا ، في اتجاه واحد : من الاسفل الى الاعلى . ويورد علماء الاجتمـاع البرجوازيون تشبيها آخر . فالمجتمع يشبه باص المدينة : لايوجد فيه اماكن مخصصة لأحد ما ، بشكل دائم . أما الطبقات والمراتب في المجتمع . فهي كالمقاعد في الباص ، يجلس عليها كثير من الركاب بالتناوب . وكل هذا ، حسب ادعائهم . يؤدي الى إضعاف ، بل وإزالة الاصطدامات الطبقيـــة في المجتمع ، بتحرك كبير . وينسبون الى مثل هذا المجتمع : الولايات المتحدة ، المانيا الغربية ، انكلترا . وغيرها من بلدان رأس المال الاحتكاري .

إن من الخطأ ، نفي وجود التحرك في المجتمع البرجوازي . كما توجد ايضا إمكانية للانتقال الى الطبقات العليا . غير ان هذه الامكانية . في الحقيقـة ، ذات طابع تجريـدي ـ صوري وليس حقيقي . وفي الواقع . فالافراد «الذين يشقون طريقهم في الحياة» قلائل . إذ آن مركزية رأس المال وتجميعه يؤدي الى تقليل عدد الاقوياء ، في عالم « القمة » الاحتكارية . وتفلس البرجوازيتان ، المتوسطة والصغيرة ، وتنضمان الى صفوف الطبقة العاملة . كمـا تنمو « طبقات متوسطة جديدة » وينمو سلك الفنيين و العلماء وسلك الخدمات . بينما يقل عدد المزارعيـــن . وباختصار : تحدث التغييرات . في بنية المجتمع الرأسمالي الطبقية ، باستمرار ، غير ان هذه التغييرات ، ليست هي نفسها التحرك الذي يتحدث عنه علماء الاجتماع البرجوازيون ـ المدافعون عن الامبريالية .

وقد اضطر بعض علماء الاجتماع البرجوازيين للاعتراف ببطلان التصور عن التحرك العالي و « المجتمع المفتوح » . فمثلا ،

كتب عالم الاجتماع الانكليزي ت. ب. بوتومور T. B. Bottomore في كتابه « الطبقات في المجتمع المعاصر » يقول : « تكمن الخاصة الهامة للتحرك الاجتماعي في أن هذا التحرك موجود ، بشكل عام، بين الطبقات الاجتماعية القريبة من بعضها البعض ، كالتحرك الاجتماعي الموجود بين الفئات العليا من الطبقة العاملة ، والفئات الدنيا من الطبقة المتوسطة . ان انتقال ممثلي الطبقة العاملة الى طبقة أعلى ، يحمل ، في أي مجتمع وخاصة في انكلترا ، طابعا محدودا وضيقا »(١) . ويلاحظ بوتومور ، بحق ، انه لايوجد فقط « تحرك الى الاعلى » ، بل يوجد ايضا « تحرك الى الاسفل » ، غير ان هذا التحرك الثاني ، بالذات ، لا يعيره علماء الاجتماع الاهتمام الكافي .

ان دراسة تركيب مدراء شركات الدولة في انكلترا ، سمحت لبوتومور بالوصول الى استنتاج مفاده أن نصف المدراء منحدرون من عائلات ذات صلة وثيقة بأوساط رجال الاعمال . و ٤٠ ٪ منم منحدرون من عائلات مـلاكين زراعيين . كما يدل التحليل لتركيب كبار موظفي الدولة ان ٣ ٪ فقط منحدرون من عائلات عمال نصف مؤهلين ، أو غير مؤهلين يعملون بجهدهم الجسدي . ويعلن بوتومور ، اعتمادا على هذه الوقائع : « إن انكلترا مازالت بعيدة جدا عن تحقيق تكافؤ الفرص في التعليم » وأنها ستبقى مجتمعا « جائرا » و « مجتمع الطغمة Hiérarchie »(٢).

---

(1) T. B. Bottomore : classes in modern society. London. 1965, P. 31 .

(٢) نفس المصدر ص ٣٣ و ٣٤ .

ويتطرق بوتومور الى الوضع في امريكا فيذكر ان درجة الحركية او التحرك في امريكا ، ليست أعلى منها في البلدان الاخرى المتطورة صناعيا . « غير ان تجمع الثروة والايرادات ، في ايدي جماعة صغيرة من الناس ، لم يصل الى هذه الدرجة ، التي وصل اليها في امريكا »(١) .

وتلاقي ، نظرية النخبة élité المختارة ، وعلاقات هذه النخبة في المجتمع ، قبولا كبيرا في اوساط السوسيولوجيين البرجوازيين .

فما هي هذه النخبة ؟ لقد جاء هذا المفهوم الى علم الاجتماع من البيولوجيا ، حيث يعني افضل البذور في هذا النوع او ذاك ، او النسل المهم والقيم جدا من الحيوانات .

وينسب علماء الاجتماع البرجوازيون الى النخبة الاجتماعية كل من ينفذ الوظائف العليا في المجال السياسي او الاداري ، او العسكري او العلمي ، أو التكنيكي الفني او الاقتصادي او الثقافي . وبناءً على هذا يتكلمون عن النخبة السياسية ، والعسكرية ، والعلمية ، وغيرها من النخبات الاخرى . وهذه النخبة ، أو « قشدة المجتمع » هذه ، تتناقض ، وتتعارض وجماهير الشعب الواسعة « هذا الوسط الشعبي الجاهل الضائع » ، مجبر على الخضوع لطبقة مختارة،تقوم بدور القيادة.

ان استعمال مفهوم النخبة élite ، اشارة الى الظواهر الاجتماعية ، لا يتفق ووجهة النظر العلمية . وتستبدل هذه

---

(١) نفس المصدر ص ٣٧ .

النظرية العلاقات الطبقية ، بعلاقات النخبة المختارة ، وتبرر ، في نهاية الامر ، الظلم الاجتماعي وأبدية الحواجز الطبقية .

وينطلق كثير من السوسيولوجيين البرجوازيين من مواقع لا ديمقراطية ، ويعتقدون ، معبرين عن هلعهم من نمو فعالية الجماهير الشعبية الواسعة ، ان نمو دور الجماهير في حياة المجتمع ، وازدياد ضغطها على النخبة ، يهددان الاداء الطبيعي لوظائف الجسم الاجتماعي ، وقد يؤديان الى هلاكه . ويؤيد بعض السوسيولوجيين البرجوازيين نظرية « النخبة élite » ويوجهون ، في الوقت ذاته ، النقد الى القمةالراسماليةالمسيطرة، منطلقين من مواقع البرجوازية — الديمقراطية والليبرالية . وكتاب عالم الاجتماع الامريكي التقدمي ر. ميلز « النخبة المسيطرة » مشهور جدا . ويظهر المؤلف في كتابه هذا ، اعتمادا على مواد ومصادر كثيرة ، الحرمان الواقعي لجماهير الشعب في أمريكا من الحقوق .

وينسب ميلز الى « النخبة المسيطرة » زعماء اتحادات النقابات ، وكبار الموظفين اصحاب الامتيازات ، والاوساط العسكرية . ثم يأتي بعدها « المستوى المتوسط للسلطة » ، واما قاعدة هذا الهرم الاجتماعي فهي جماهير الشعب المحرومة من حقوقها .

وبغض النظر عن النقد الصائب ، الذي يوجهه ميلز الى الواقع الراسمالي ، وبصرف النظر ، ايضا ، عن نزعته الديمقراطية ، فلا يمكن اعتبار تصوره تصورا علميا . فهذا التصور ينطلق ، كالتصورات اللاديمقراطية ، من تقسيم المجتمع

الى نخبة مسيطرة وجماهير بلا حقوق ، أي أن هذه النظرة تخفي البنية الواقعية للمجتمع البرجوازي ، وانقسامه الى طبقات متعارضة . ومع أن ميلز يعتقد ان « النخبة المسيطرة » تنقسم الى ثلاثة قوى مستقلة ، غير أنه لا يدرك ، بوضوح ، دائما ، التبعية الحقيقية التي تربط الموظفين والطبقة العسكرية العليا، بالرأسمال الاحتكاري ، وبالطغمة المالية .

والى جانب نظريات التطابق والنخبة ، التي تنفي ، بصراحة ، وجود الطبقات في المجتمع ، هناك ، أيضا ، نظريات سوسيولوجية برجوازية ، لا تعترف ، فقط ، بوجود الطبقات، بل تقول ايضا ، بأبدية الاصطدامات الطبقية وبعدم فنائها . ولابد من التنويه هنا ، بأن أي « اعتراف » ، من جانب المنظرين البرجوازيين والاشتراكيين اليمينيين ، بوجود الطبقات ماهو الا اعتراف شكلي . نظراً لأنهم ينفون الاساس الموضوعي الحقيقي ، لظهور الطبقات ونشوئها . ويتخذون الخصائص الثانوية العرضية عناصر مولّدة للطبقات . وأوضح مثال على ذلك نظرية عالم الاجتماع الالماني الغربي ر. دارندورف R. Dahrendorf التي عرضها بشكل كامل في كتابه : « الطبقات الاجتماعية والنزاع الطبقي في المجتمع الصناعي » .

بماذا يعارض دارندورف نظرية الطبقات والصراع الطبقي الماركسية ؟ ، كيف يحدد دارندورف مفهوم الطبقة والنزاع الطبقي في « المجتمع الصناعي » ؟ يقتفي دارندورف إثر كثير من علماء الاجتماع البرجوازيين ، فيأخذ ، كعنصر مشكّل (مولّد) للطبقات ، علاقات السيطرة والخضوع وحيازة الوظائف القيادية،

او عدم حيازتها ، في ما يدعى بإتحادات السيطرة والتبعيـة . ويقول دارندورف إن الطبقات هي جوهر « تكتل اصحاب مواقع النفوذ المماثل في انظمة التبعية » .(١) . ويعني دارندورف بأنظمة او اتحادات السيطرة والتبعية مختلف تكتلات الناس في المجتمع، كالدولة ، والمعمل ، والكنيسة ، ونادي كرة القدم وماشابهها. . . والعنصر المشترك بين هذه التجمعات هو وجود القادة والتابعين، اي افراد يملكون « نفوذا إيجابيا » ، وآخرون « نفوذا سلبيا ». ويقول دارندورف ايضا : « ان الوضع الطبقي ماهو الا موقـع النفوذ ، اي المشاركة في قوانين السلطة أو عدمها في كل اتحاد من اتحادات التبعية »(٢) .

وتنتج عن مثل هذه الاوضاع عدة استنتاجات بعيدة المدى : فلو انقسم كل ناد من نوادي كرة القدم ، أو من نوادي لعبـة الاوتاد التسعة والمحداة « Skittles » (مثـال دارندورف) ، الى « طبقات » خاصة ، لوُجِد في المجتمع عدد غير محدود من « الطبقات » . وتؤدي مثل هذه الكثرة Pluralisme في النظريـة الطبقية الى ان لا تفهم الطبقات كطبقات إجتماعية ، بل كتكتلات إجتماعية رئيسية ، ينقسم اليها المجتمع البرجوازي . وكمـا يبدو ، يحاول دارندورف ، بواسطة أحاديثه عن الكثرة غـير المحدودة للطبقات ، إخفاء انقسام المجتمع الراسمالي الى طبقتين متناقضتين رئيسيتين : البرجوازية والبروليتاريا ، هذا اولا .

---

(1) R. Dahrendorf. soziale klassen und Klassenkonflikt in der industriellen Gesellschaft, S. 135.

(١) نفس المصدر ص ١٦٣ – ١٦٤ .

وثانيا : يمكن لأي إنسان ، حسب تصور دارندورف ، ان ينتمي ، دفعة واحدة ، الى عدة « طبقات » ، فمثلا ، يمكن لمن يشغل وضعا تابعا في نظام ما ، لنفرض في النظام الاقتصادي ، ان يكون منتميا الى « الطبقة المسيطرة » في نظام آخر ، كأن يكون ، مثلاً ، مدرباً في فريق كرة القدم ، او قائداً لكورس كنسي .

وبالرغم من سخافة هذه الاستنتاجات ، والطابع المضحك للامثلة التي اوردها دارندورف ، فإن « نظريته » تحتوي على فكرة برجوازية تبريرية خطيرة . يتخفى دارندورف تحت قناع الموضوعية ، فيدخل ، عبر سياجات المدرسية Scolastique السيوسيولوجية ، بعناد ، فكرة كاذبة مفادها ، ان السيطرة الاقتصادية لا تؤدي ، حتما وبالضرورة، الى السيطرة السياسية؛ وأن الطبقة العاملة التي تشغل وضعا تابعا (منقاداً) في نظام علاقات الانتاج البرجوازية ، يمكنها أن تشغل مواقع السلطة والقيادة ، لا في الناحية السياسية ، فحسب ، بل في كثير من نواحي الحياة الاجتماعية الاخرى . ويعلن دارندورف ان : « من الضروري ، قبل كل شيء ، التأكيد بشكل حاسم ، على ان الكشف عن العلاقات بين الصناعة والمجتمع ، لا يمكن ان يتم ، الا نتيجة للدراسات والأبحاث التجريبية ؛ وانه لا يوجد أي تطابق بديهي بين الرأسماليين او مدراء Managers الصناعة وبين الوزراء او كبار موظفي الدولة »(1) .

(1) R. Dahrendorf. soziale klassen und Klassenkonflikt in der industriellen Gesellschaft S. 146.

فاذا كان « قباطنة الصناعة » الانكليز قد استطاعوا في القرن التاسع عشر ، بشكل او بآخر ، احتكار المواقع السياسية القيادية ، فكما يرى دارندورف « أن هذا العارض الخاص لايسمح ابدا بصياغة قانون ذا مدلول شامل »(١) ، اي القانون الماركسي عن السياسة كنتيجة وتعبير مكثف للاقتصاد . ويؤكد دارندورف ، أن هذا القانون تدحضه أول « حكومة عمالية » . والحقيقة ان كل الحكومات « العمالية » ، أو الاصلاحية ، الاشتراكية ــ اليمينية ، تدافع عن المصالح الرئيسية، الاقتصادية والسياسية ، للبرجوازية الاحتكارية وتحميها ، مما يؤكد ، واكثر من مرة ، صحة الموقف الماركسي عن أن السياسة هي تعبير مركز للاقتصاد . ان الحكومات العمالية الحقيقية تحقق وتنفذ المتطلبات الاقتصادية الجذرية للطبقة العاملة ، ولكل الكادحين ، في النهاية . وتعتمد هذه الاستنتاجات على اوسع وأمتن « دراسة تجريبية » ، أجريت في التاريخ : الا وهي ممارسة بناء المجتمع الجديد في الاتحاد السوفييتي وغيره من البلدان الاشتراكية .

والنموذج الرئيسي المنهجي (الميثودولوجي) الذي يستخدمه دارندورف ، هو انفصال ما يدعى بالاتحادات المسيطرة والتابعة بعضها عن بعض . ويجري هذا ، كما رأينا ، في علاقة الاقتصاد والسياسة ، قبل كل شيء . ويؤكد دارندورف ، بشكل مطلق « أنّ السيطرة السياسية ، والانتاج الصناعي ، هما ، من حيث

---

(١) نفس المصدر ص ١٤٦ .

الجوهر ، مجالان من مجـــالات السيطرة ، منفصلان ، بشكل مبدئي ، الواحد عن الآخر »(١) . فالكنيسة ، والدولة، والرياضة، وما شابهها ... ، كل هذه حسب رأيه ، « مجالات للسيطرة » منفصلة ، لا تتصل ببعضها البعض . وعدا عن ذلك ، ففي المجتمع، تسير بشكل دائم ، كما يزعم ، عملية تمييز وانفصال مستمرين لهذه المجالات .

ويحاول دارندورف ، جاهدا ، الحط من قيمة الاقتصاد ، محاولا معارضة الموقف الماركسي عن الانتاج المادي كمجال مقرر للنشاط الانساني . ويقول ايضا ، ان السيطرة في الاقتصاد ، ماهي الا حادث عرضي خاص للسيطرة : « إن من يحاول تحديد السيطرة عن طريق الملكية ، وتحديد العام ، الشامل عن طريق الخاص ، يرتكب خطأ منطقيا واضحا . أينما وجدت الملكية ، توجد ايضا السيطرة ، ولكن ليس كل سيطرة تجذب وراءهـا الملكية . فالسيطرة هي علاقة شاملة » .(٢) .

إن منطق الجدال (المناقشة) عند دارندورف غير صحيح . فهو مناقض للتاريخ . لقد أثبتت الماركسية ، بصورة لاتدحض، أن الانتاج المادي ، والعـلاقـات الانتـاجية الناشئة خـــلال سيره ، — هي العلاقات الاولية والاساسية ، وبالتالي ، العامة والشاملة ، بين الناس . ان الانتاج والعمل هما ، حسب تعريف

---

(1) R. Dahrendorf. soziale klassen und Klassenkonflikt in der industriellen Gesellschaft. S. 146.

(٢) نفس المصدر ص ١٣٩ .

ماركس شرطان دائمان وطبيعيان لوجود المجتمع الانساني. وكذلك دائمة وابدية ملكية وسائل الانتاج والخبرات المادية المنتجة، ولا تتغير سوى أشكال هذه الملكية : فالملكية الخاصة تميز الطبقات ذات التشكيلات المتناقضة، والملكية العامة تميز المجتمع المشاعي البدائي، والمجتمعين الاشتراكي والشيوعي .

اما بالنسبة لعلاقات السيطرة والتبعية فهي، رغما عن داردورف، تميّز، فقط، المجتمعات الاستغلالية، وبالتالي، ليست مقومات سوسيولوجية شاملة، بل مقولات خاصة، انتقالية، تاريخيا، وهنا دارندورف يستعمل الاسلوب الميتافيزيقي عند الايديولوجيين البرجوازيين، فيقلب العلاقات الخاصة بالمجتمعات المستغلة، الى مقولاتانسانية عامة، مخالفة للتاريخ . ثم يصمم بعدها، التجريدات، والعلاقات الموحدة، بشكل مصطنع، والمختلفة نوعيا ؛ المجزاة والمفصولة عن الظروف التاريخية المعينة . وينتج، عند دارندورف، أن العنصر المكوِّن للطبقات لا يضم، فقط، علاقات السيطرة والتبعية (التي تميز المجتمعات الاستغلالية فقط)، بل، ويضم ايضا العلاقات، المتصلة بقيادة مختلف العمليات الاجتماعية وإدارتها، وبالنفوذ، هذه العلاقات التي لا يقوم بدونها أي بناء إجتماعي . فمثلا، كان لدى نظام المشاعية البدائية، تنظيم قبلي (عشائري)، وأجهزة الادارة . في شكل مجلس شعبي ومجلس الشيوخ، وهذه التنظيمات كانت بالطبع « ذات نفوذ » . ولكن كما أشار ف. انجلز « نعظمة النظام العشائري، وقصوره، في آن واحد، يظهر في

ان لا مكان في هذا النظام للسيطرة ولا للاسترقاق »(١) .

ولا يوجد استعباد (استرقاق) في المجتمع الاشتراكي ، اما في ظروف انتصار الشيوعية النهائي على نطاق العالم كله ، فستضعف (تكاد تموت) الدولة ، وتفقد وظائف الادارة العامة طابعها السياسي وتتحول الى ادارة مباشرة لقضايا المجتمع . وستكون الشيوعية مجتمعا منظما للغاية ، ومُدارا بشكل جيد ، ولكن لن تكون فيه طبقات ، ولا دولة .

يستعمل دارندورف الاساليب اللاعلمية للغايات التالية : ١ً ــ من اجل تبرير الراسمالية وإثبات أولوية انظمتها ورسوخها، وإثبات ابدية انقسام المجتمع الى طبقات . وثانياً ٢ً ــ من اجل ذر الرماد على المجتمع الذي يبني الشيوعية ، والذي ستبقى فيه الطبقات حسب راي دارندورف ، موجودة ، بالشكل نفسه ، كما هي موجودة في الراسمالية .

ويبدو الفساد النظري لآراء دارندورف ، واضحا بشكل خاص ، عند التحليل الدقيق ، لما يعنيه دارندورف بمفهوم « السيطرة » او « السلطة » ، الذي تعتمد عليه ، نظرته للطبقات ، بشكل كامل . وقد اضطر دارندورف نفسه الى الاعتراف ، بأنه ، رغما عن المحاولات العديدة لتحديد المقولات : « السيطرة » ، « السلطة » ، « النفوذ » ، فان هذه المقولات لم تتحول بعد ، الى « اداة واضحة للبحث » ،وان جميع

---

(١) ك. ماركس و ف. انجلز . المؤلفات . الجزء ٢١ ص ١٥٩ « الطبعةالروسية»

هذه المحاولات تقوم على تعريف المعلوم بالمعلوم نفسه . وحاول دارندورف تعليل نفسه ، بأن التعريف الدقيق لهذه المفاهيم ، ليس ضروريا ، فاتفق مع السوسيولوجي البرجوازي المعروف ماكس ويبر ، الذي كان قد عرّف السلطة بأنها « الامكانية ، التي تقضي على المقومة ، وتحقق إرادتها داخل العلاقات الاجتماعية » .

إن هذا التعريف الشكلي ، مُفرّغ ، ليس فقط ، من العنصر الاجتماعي والطبقي ، بل ومُفرغ ايضا من كل محتوى محدد بشكل عام . وفي الحقيقة ، ماذا يُفهم من هذا الهراء ، الذي يُقدّم ، على انه إحدى الحِكَم العميقة للفكر الاجتماعي البرجوازي ؟ يفهم منه ، فقط ، أن السيطرة ، والسلطة ، تتحققان بفضل ارادة من يحقق هذه السيطرة . وهذا دون ان نتطرق ، الى ان هذا التكرار الخفي ، لا يجيب على الاسئلة المطروحة : ما الذي يحدد محتوى هذه الارادة ، وما هي الشروط التاريخية ـ المعينة لتحقيقها بشكل ناجح ، وما الهدف من تحقيق التصميم (العزم) الارادي ؟

ويؤكد دارندورف ، أن من يملك مواقع النفوذ والسيطرة ، يمتلك مصالح طبقية معينة . ويحاول دارندورف بتأكيده هذا تشويش السؤال الواضح المطروح وهو : ما هي المصلحة الطبقية ؟ . يناقش دارندورف ماركس ، الذي أشار الى ان الطابع الموضوعي للمصلحة ، ينبع ، قبل كل شيء ، من الوضع المادي والاقتصادي للطبقة المعنية . ويرى دارندورف ان من

الممكن القول « بالقيمة الموضوعية » للمصلحة الطبقيـــة ، ولكن لا بمعنى ان المصلحة هي مايدة . وهذا « التركيب النظـــري » لا تكمن قيمته في صحته ، بل في فعاليته التحليلية » .

وهكذا يحاول دارندورف ، بواسطة بعض الاصطلاحـات العلمية الكاذبة ، التأكيد بأن المصلحة الطبقية لكبـــار المتمولين الرأسماليين هي « تركيب نظري » ، واما الرأسماليون فهـــم أناس غيريثون عفيفون ، حاملو القيم الابـديـة . ثم يتحـدث دارندورف عن « النزاع الطبقي » في المجتمع الصناعي ، غير انه ينفي النضال الطبقي ، ولا سيما الثورة الاشتراكية . فماذا يعني « بالنزاع الطبقي » ؟ . إنه يعني ، فقط ، الصراع من اجـــل السلطة ، من اجل مواقع السيطرة في « إتحــادات السيطرة والتبعية » . ويوجد في هذه الاتحادات ، حسب رأيه، «مجموعات من المصالح » ، أي مجموعات من الناس لها مصالح واضحـــة ظاهرة . وموجهة من اجل حيازة السيطرة او الاحتفاظ بها . ويؤكد دارندروف أن اجتماع (اقتران) مجموعتين يؤدي الـــى « النزاع الطبقي » .

ويرى دارندورف في نظام الحزبيـــن السياسيين ، حيث يشكل كل حزب من الحزبين ، بالتناوب ، حكومة أو معارضة ، مثالا نموذجيا « للنزاع الطبقي » . ولا يعترف دارندورف بأي تحطيم « لاتحاد السيطرة » ولا بأي تبديل له بآخر أكثر تقدما . «فاتحادات السيطرة» عند دارندورف ، ماهيالا عجلاتمتحركة، ودورات دائمة ، لا تؤدي الى اية تغييرات نوعية ، جذرية . ان

مثل هذه النظرة الميتافيزيقية الميكانيكية ، بعيدة كل البعد عن الديالكتيك الحقيقي للحياة الاجتماعية ، وعن التغيرات الثورية الجبارة ، التي يعيشها عالم اليوم ، كما انها بعيدة ايضا ، عن الصراع الطبقي الحقيقي الذي يجري في المجتمع البرجوازي .

ولكن ، حتى هذا النزاع الكاذب المزيف يخيف دارندورف ، فيبحث عن مختلف الحجج والبراهين لاثبات « Institutionalisation تأسيسيته » ، أي التخفيف منه ، الذي يجري ، كما يزعم ، في ظروف الراسمالية. ويصل دارندورف الى النتيجة التالية : « الى جانب ايجاد القوانين والهيئات لمهادنة المصالح التناقضة ، هناك محاولات ، عن طريق التدخل التركيبي ، من اجل إزالة ، حتى ، اسباب هذه النزاعات »(١) . ويعني دارندورف « بالتدخل التركيبي » قوانين العمل التي تضعها الدولة البرجوازية ، ونشاط النقابات ، وغيرها من اشكال « الديمقراطية الصناعية » .

ويعطي دارندورف قيمة خاصة « للحركية الاجتماعية » ، التي تؤدي ، حسب زعمه ، الى إزالة الاختلافات الطبقية. وهكذا فدارندورف يُصِرّ ، من ناحية ، على ابدية التقسيم الطبقي ، نظرا لأن مقولة الدولة ، هي ابدية ايضا ، حسب رأيه . ويكتب قائلا : « يمكن للسلطة ان تكون مركزية او لا مركزية ، مطلقة او محددة ، ولكنها ، على أية حال ، امر مطلق « Imperatif »

---

(1) R. Dahrendorf. soziale klassen und Klassenkonflikt in in der industriellen Gesellschaft. S. 27.

وظيفي للتنظيمات الاجتماعية »(١) . غير آن دارندورف ، من ناحية ثانية ، مستعد للاعتراف بأن المجتمع البرجوازي ، أو « الصناعي » حسب اصطلاحه ، يتحول تدريجيا الى مجتمع لا طبقي . ويقول دارندورف آيضا ، من الجائز ، انهذا المجتمع، مع احتوائه على مواقع السيطرة والتبعية ، غير انه لايوجد فيه حاملين دائمين ومسترقّين لهذه المواقع . وبفضل الحركية تتحول « مجموعات المصالح » الى تشكيلات غير مكتملة ، متقلبة ، وهذا يؤدي الى تخفيف حدة النزاع الطبقي ، وبالتالي ، إزالته كليا . وفي هذه الحالة ، يصبح الانتماء الى الطبقات ظاهرة عرضية ، اي غير ثابتة ، ولا مستقرة ، من حيث المبدأ . ويؤكد قائلا : « إن عدم الثبات وعدم الاستقرار الدائم للطبقات ، يجعل الدفاع عن مصالحها ، عمليا ، غير ممكن . ونتيجة لهذا «فالمجتمع اللاطبقي » ، بوصفه مجتمعا ذو حركية داخل الاجيال ، يعتبر مقولة ذات قيمة حقيقية » .

ويؤكد دارندورف ايضا ، أن الطبقات توجد على نوعين : ١ً ـ طبقات « ارستقراطية » او مغلقة . و ٢ً ـ طبقات « ديمقراطية » ، او مفتوحة ، أي أن تركيبها يتجدد ، بشكل دائم ، على حساب الطبقات التابعة. واما الطبقات«الديمقراطية»، او المفتوحة ، فهي موجودة ، حسب رأيه ، في المجتمع « الغربي » أي البرجوازي ، في حين آن الطبقات « الارستقراطية » موجودة في البلدان لاشتراكية . ونتيجة لذلك ، فقد تحولت أو كادت

---

(١) نفس المصدر ١٨١ .

أن تتحول ، الرأسمالية الى مجتمع لا طبقي ، اما الاشتراكيـة ، فمقضي عليها ، بالتجزئة الخالدة ، والانقسام الابدي الى طبقات، والى اصطدامات ونزاعات طبقية دائمة . ــ هذا هو الحاصل ، الذي يصل اليه دارندورف نتيجة لتحليله « العلمي » !!

ويبشر عالم الاجتماع الامريكي س. ليبسيت ، الذي مرّ ذكره آنفا ، بآراء مشابهة لآراء دارندورف . صحيح ان ليبسيت يناقش دارندورف ، متهما إياه بالمبالغة في التأكيد على لحظات الانقسام والنزاع داخل « المجتمع الصناعي » ، وناقدا إيّاه لعدم الاهتمام الكافي بقضية استقرار المجتمع ، الذي هو ، حسب رأي ليبسيت ، القضية الرئيسية للسوسيولوجيا بشكل كامل . وكما يقول ليبسيت « عنـــدما سينتهي النزاع بين الجماعات ذات المصلحة ، فان الاطراف المتصادمة في التنظيم ، ستعمل علـــى تكامل المجتمع وتماسكه . ولا يجب النظر الى النقابات ، فقط ، من حيث وظيفتها في الانقسام الاقتصادي ، فهي تعمل ايضا ، على توحيد اعضائها في جهاز سياسي اكبر ، كما انها تضع اساسا لزرع الولاء ، عندهم ، للنظام ككل »(١) .

ويؤكد س. ليبسيت أن السياسة المسيطرة في الغـرب ، اصبحت سياسة « الصفقة الجماعية » ، أما النزاع الطبقي فقد انخفض الى الحد الادنى . ويعلـن ليبسيت « سيبقى الصراع الطبقي الديمقراطي ، لكنه سيكون صراعا بلا ايديولوجية ، ولا

---

(١) س. ليبسيت. السوسيولوجيا السياسية ــ « مجلة علم الاجتماع ــ اليوم ــ قضايا وآفاق » ص.١٤٨ « باللغة الروسية » .

أعلام حمراء ، وبدون مظاهرات الاول من ايار » . وبإعلانه هذا ، يحدد ليبسيت بدقة ، ويصيغ الهدف السوسيولوجي الرئيسي للنظريات البرجوازية كلها عن البنية الاجتماعية للمجتمع ، وهذا الهدف هو : اذا كان من المستحيل التخلي نهائيا عن اصطدامات المصالح ، وصراع الطبقات والجماعات ، فمن الواجب ، ومن الضروري ، جعل هذا الصراع « مهذبا » ، « ديمقراطيا » ، يجري في « حدود القانونية » ، من اجل ان لا يحطم ، بل بالعكس، يقوي المجتمع البرجوازي .

وهذا تعبير عن الطوباوية الرجعية في السوسيولوجيا البرجوازية المعاصرة ، التي لا تطمح ، فقط ، الى تحريف صورة الواقع الاجتماعي ، بل وايضا ، الى البحث عن وسائل للصراع ضد القوانين الموضوعية للتطور الاجتماعي .

وبالطبع ، فالبرجوازية مرغمة على تقديم تنازلات محدودة للطبقة العاملة ، فهي باجتذابها وشرائها للجماعات العليا (الفوقانية) من الطبقة العاملة ، تطمح وتحاول ، بكل القوى ، التأثير على وعي الكادحين . ولكن لا تستطيع مختلف الوسائل المتعددة ان تلغي الصراع الطبقي الموضوعي ، الذي لا يؤدي تأثيره الى تقوية النظام البرجوازي ، بل الى تحطيمه وهلاكه النهائي .

إن التحليل الموضوعي لبنية المجتمع البرجوازي المعاصر ، يؤكد صحة النظرية الماركسية ـ اللينينية حول الطبقات والصراع الطبقي . وبالرغم من اختلافات البرجوازيين والاشتراكيين اليمينيين كلها ، يبقى التعريف ، الذي أعطاه مؤسسو الماركسية

ـ اللينينية للطبقة ، ثابتا وصحيحا . وفي الواقع كيف يمكن تفسير وقائع مثل : اللامساواة الفاحشة في توزيع الدخل القومي ، وفقر الكادحين ، والبطالة الدائمة ؟ ... وغيرها ...
تفسر هذه الوقائع ، بالطبع ، بأن وسائل الانتاج الرئيسية محصورة (مجمعة) في أيدي البرجوازية الاحتكارية ، في حين ان الطبقة العاملة لا تملك شيئا ، كما في السابق ، سوى ايديها ، التي تعمل بها ، وقدرتها على العمل .

وقد اضطر حتى ليبسيت ، وهو المعادي للاشتراكية والمدافع عن الراسمالية ، الى الاعتراف بوجود وجهين ، في الولايات المتحدة الامريكية ، فمن ناحية اولى ، هناك ، كما يزعم « مجتمع ناضج تقدمي » ، كما يوجد ، من ناحية أخرى ، مجتمع تتسع فيه ، بشكل دائم الهوة بين اعضائه ، بين اصحاب الامتيازات والمحرومين من كل الامتيازات والحقوق ، كما يقوى فيه تجمع الثروة في ايدي عدد قليل من الافراد .

لقد خلق الايديولوجيون البرجوازيون ، والاصلاحيون كثيرا من « التعريفات » للطبقات ، وأبرزوا كثيرا من العناصر المشكلة للطبقات ، التي تبدو تعسفيتها ، وعرضيتها بارزة للعيان . وكل هذا السيل من المدرسية (الاسكولاستيك) السوسيولوجية له غرض واحد هو : ايجاد بديل ما للتعريف العلمي الصحيح ، الوحيد ، للطبقات الذي أعطته الماركسية .

الفصل الخامس

المالتوسية الجديدة

يولي علماء الاجتماع البرجوازيون ، اهتماما كبيرا بمشاكل السكان . ويرى كثير منهم في نمو السكان وتكاثرهم سببا رئيسيا للتغيرات الاجتماعية . وترجع هذه الآراء ، تاريخيا ، الى أفكار الاقتصادي الانكليزي توماس روبرت مالتوس Thomos Robert Malthus الذي عاش في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر .

وقد صاغ مالتوس في كتابه الرئيسي والمشهور « مقالة في نظرية السكان Am Essay on population » مايدعى بالقانون الطبيعي . وحسب هذا القانون يجري نمو السكان على شكل متواليات هندسية ، بينما تتزايد وسائل العيش بمتواليات حسابية فقط . ونتيجة لهذا ، فالعالم مهدد بفيض السكان المطلق ، ويقوم صراع من اجل مكان تحت الشمس ، وفي سير هذا الصراع سيهلك الضعفاء ، حتماً ، متنازلين عن امكنتهم لمن أقوى منهم واذكى . ويقول مالتوس آن العمال هم انفسهم المذنبون والمسببون لما يعانوه من حاجة وجوع ، ومن اجل تحسين

وضعهم ، عليهم ان يهجروا الى الابد ، تلك « العادة الطائشة » التي درجوا عليها ، وهي حيازتهم لعدد كبير من النسل .

ويؤكد مالتوس باستهتار أن كل ما يساعد على تقليل عدد السكان فهو خير ، بما فيها الحرب والجوع والمرض . وقد وقف بحزم ضد تقديم اية مساعدة للبؤساء معلناً أن عقاب الحاجة الشديدة والعوز الملح هو قانون الطبيعة ، ومعارضة هذا القانون عمل بلا فائدة وبلا معنى .

وقد لاقت آراء مالتوس المعادية للإنسان ، تأييداً واسعا لدى طبقات البرجوازية الاكثر رجعية . غير انهم تعرضوا لنقد شديد ، مدعوم بالبراهين ، من جانب كثير من العلماء التقدميين، كما كال لهم ماركس ضربة ساحقة .

فقد أثبت ماركس ان القوانين ، التي تنظم تكاثر السكان ، ليست قوانين بيولوجية فقط ، بل هي ، وقبل كل شيء ، قوانين اجتماعية . وفي المجتمع ، هناك قوانين خاصة بنمو السكان لكل شكل من اشكال الانتاج . كما ان تطور الانتاج والعلم والتكنيك ، بمضاعفته لمجموع الخيرات المادية المنتجة ، يؤثر تأثيراً معيناً على نمو السكان . الا ان هذا التأثير ليس مباشراً ، بل ينعكس عن طريق نظام علاقات الانتاج المسيطرة في هذا المجتمع او ذاك ؛ فخصائص التراكم الرأسمالي تؤدي الى خلق الجيش الصناعي الاحتياطي ؛ أي فيض السكان النسبي ، أو البطالة الدائمة . وهكذا فالمسبب لبؤس وآلام الطبقة الكادحة ليست الطبيعة الانسانية بقدرتها الجامحة على التكاثر ، كما يزعم مالتوس ، بل نظام الاستغلال الرأسمالي .

اما في المجتمع الاشتراكي ، حيث لا وجود للبطالة ، وحيث يؤمن العمل الكامل للسكان المتزايدين بشكل ثابت ، فيختلف قانون السكان اختلافا مبدئيا وكليا .

وقد لاقت أفكار مالتوس انتشاراً كبيراً في الايديولوجيا البرجوازية المعاصرة ، على شكل المالتوسية الجديدة . ويقوم أتباعه المعاصرون ، الذين لم يضيفوا شيئا جديداً ، من حيث المبدأ ، على نظرية مالتوس ، يقومون باستغلال الاتجاهات والنزعات في نمو السكان ، التي ظهرت في الآونة الاخيرة .

ويلاحظ ، كما هو معروف ، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، ازدياد سريع في نمو السكان في العالم كله . فاذا كان قد بلغ عدد سكان الكرة الارضية سنة ١٩٠٠ (١ر٦) مليون فقد وصل هذا الرقم الى الضعف تقريبا سنة ١٩٦٠ ، ويبلغ عدد السكان في العالم ، الآن ، حسب احصائيات علماء السكان ٣ مليار نسمة ، وتبلغ الزيادة السنوية في عدد السكان في العالم (٦٥) مليون نسمة ، ويتزايد عدد السكان ، بشكل سريع خاصة ، في بلدان آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية . وأعلى سرعة في نمو السكان نجدها في امريكا اللاتينية إذ تبلغ نسبة الزيادة فيها ٢٨ ٪ في السنة . وفي عام ١٩٦٥ فقط ، ازداد عدد السكان في الصين ١٣ مليون نسمة ، وفي الهند ١٢ مليون نسمة ، وفي البرازيل ٥ر٢ مليون نسمة ، وفي اندونيسيا ٣ر٢ مليون نسمة ، أما في الباكستان فقد ازداد عدد السكان في هذه السنة ٢ مليون نسمة .

واذا اخذنا المعدل المتوسط لنمو السكان في العالم وهو

٢ ٪ ، فسيبلغ عدد سكان الكرة الارضية عـام (٢٠٠٠) م ، حسب احصائيات الامم المتحدة من ٥ ــ ٧ مليار نسمة .

إن هذا النمو السريع في عدد السكان ، ناتج عن مجموعـة كاملة من العوامل الاقتصادية والسياسية والثقافية . فقد سمح تحطم الراسمالية ، وحصول كثير من بلدان آسيا وافريقياوامريكا اللاتينية على استقلالها السياسي ، سمح بتحسين الخدمة الطبية للسكان . كما ادت ، الوقاية الطبية ، بأبسط اشكالها ، الـى تخفيض ملموس في وفيات الاطفال ، التي كانت منتشرة بشكل مرعب في هذه البلدان ، حيث كان يموت ربع او نصف الاطفال منذ السنة الاولى من عمرهم . كما ساعـدت نجاحات الطب ، والقضاء على الأوبئة ، على ارتفاع متوسط عمر الانسان الـى ٦٠ ــ ٧٠ سنة في البلدان المتقدمة ، والـى ٤٠ ــ ٥٠ عاما في البلدان النامية .

غير أن البلدان النامية لم تستطع ، خلال هـذه الفتـرة القصيرة ، القضاء على التأخر القديم ، كما انها لم تقض ، بشكل نهائي ، على التبعية الاقتصاديـة المباشرة لبلـدان الراسمال الاحتكاري . ثم إن نمو السكان السريع ، والذي سمي « بالانفجار الديموغرافي » ، لم يرافقه نمو موافق في الانتاج عامـة ، وفي انتاج المواد الغذائية خاصة . ونتيجة لذلك ، نشأ وضع عسير وصعب فمن اصل ٣ر٦ مليار نسمة ، عـدد سكان العالـم ، ٢ مليار منهم يحصل على اقل من (٩٠٠) وحدة حرارية في اليوم ، اي يجوعون عمليا . وكما يتضح من احصاءات العلماء ، فمـن اصل (٥٠) مليون (وهو عدد الوفيات في العالم سنويا) (٣٥)

مليون نسمة منهم يموتون بسبب الجوع ، أو بأسباب تتصل بالجوع مباشرة .

فمن هو المسبب ، ومن المسؤول عن مثل هذا الوضع الناشيء ؟ يجيب أنصار المالتوسية الجديدة : بأن السبب هو التكاثر الكبير لدى الشعوب ، وخاصة الشعوب الملونة . ولا يمكن ، حسب رأيهم ، التخلص من البؤس والجوع الا « بالمهد الفارغ » ، أو بالتخفيض الحاد في عدد الولادات . وترى الاكثرية منهم ان من الممكن حل المشكلة عن طريق تحديد النسل بواسطة الوسائل الطبية الجديدة . أما علماء الاجتماع المفرقون في الرجعية ، فيقترحون ، كحل لهذه المشكلة ، نشر الامراض والحروب ، ويباركون السلاح الذري والجرثومي ، لأنه ، حسب زعمهم ، الوسيلة الوحيدة التي يمكن أن توافق بين عدد الأفواه الجائعة والموارد الغذائية للانسانية .

ويرى استاذ جامعة ستانفورد الاميركية ب. إيلريخ ، أن نمو السكان على الارض وتكاثرهم ، شبيه بتكاثر الخلايا السرطانية . ويؤكد بأن المعركة من اجل الغذاء معركة خاسرة ، فبما أن زيادة انتاج المواد الغذائية بالمقادير المطلوبة ، غير ممكنة ، فالجوع الجماهيري الواسع النطاق حتمي لا محالة . ويقول إيلريخ ، بأنه ستظهر ، خلال الفترة من ١٩٧٠ ـ ١٩٧٥ ، بؤر الجوع الواسعة وستموت مئات الملايين من البشر جوعا ، هذا إن لم تقض عليهم قبل ذلك ، الظروف الحياتية الاليمة ، والقنابل النووية ، او غيرها من وسائل الابادة الجماعية .

وما المخرج من هذه الازمة ؟ يعلن ايلريخ : « يجب استئصال جذور السرطان نهائيا ! . وقد تبدو هذه العملية قاسية ، خالية من الرحمة والشفقة ، غير أن الالم لا يطاق . ولكن هذا المرض (يقصد هنا الازدياد الضخم في عدد السكان ــ المترجم) قد انتشر بسرعة كبيرة لدرجة أن التدخل الجراحي الحاسم ، فقط ، يمكن ان يعطي المريض فرصة ماللحياة » اي يجب إرغام المريض ، أي الانسانية ، قسراً ، على تخفيض الولادات وتقليلها . ويعتقد إيلريخ ، ان من الضروري استقرار عدد سكان الولايات المتحدة الامريكية في حدود (١٥٠) مليون نسمة ، عن طريق تحديد عدد العائلات . ويلاحظ ايلريخ أن من الصعب جدا ان يقبل الامريكيون بهذا ، ولكن في هذه الحالة ، لا يوجد اي مخرج آخر سوى الحرب النووية .

ويقترح ايلريخ نظاما شاملا من الاجراءات الحكومية لتخفيض الولادات . ويرى ان من الضروري تغيير القوانين الضرائبية ، لتعمل على وضع العراقيل امام نمو عدد السكان . ويقول أن من الواجب القضاء على جميع الامتيازات للعائلات الكبيرة (التي تملك عدداً كبيراً من الاطفال) ، وتبديلها بالمدارس ذات الضرائب المتصاعدة . وبالتالي يجب ان تباع الاقمطة والخِرَق والادوات الاخرى والمواد الغذائية للاطفال بأسعار مرتفعة ، كالكماليات . كما يجب ان تحل الابحاث الطبية ــ البيولوجية محل نظام الاعانات الحكومية . ويقترح ايلريخ ، عوضا عن أن تصرف الاموال « للنضال ضد الوفيات » ، يجب استغلال هذه الموارد للقيام بإجراءات واسعة موجهة لتحديد عدد السكان ، اذ يقول :

« ان من السخافة بمكان أن نهتم « بنوعية » الحياة قبل حل مشكلة الكمية . فالمهمة الاولى هي تحديد الكمية » . ويؤكد ايلريخ بأنه ، اذا كان باستطاعة الولايات المتحدة حل مشكلة تحديد عدد السكان عندها ، في امريكا نفسها ، فستكون في وضع يسمح لها باستعمال نفوذها لحل هذه المشكلة على النطاق العالمي .

ويُعلّمُنا المالتوسي الجديد ايلريخ قائلا : « على الانسان ان يتعلم النظر الى كوكب الارض ، كما ينظر الى سفينة فضائية ذات حمولة محددة بدقة ، كما عليه ان يصل الى حل منطقي تجاه العدد النموذجي لطاقم هذه السفينة »

ان منهاج ايلريخ وامثاله من المالتوسيين الجدد ، يتفق والمصالح الطبقية للبرجوازية ، ومُوجَّه ضد العمال الفقراء . وفي الواقع فان الذين سيبقوا بدون مساعدة صحية ، وبلا غذاء ، وبدون خِرَق والبسة ، ليسوا أولاد الرأسماليين ، بل اولاد الطبقة الفقيرة المعدمة من السكان . في حين ان ايلريخ لم يتكلم عن ان قسماً ، فقط ، من المصاريف والاموال التي تصرف في الولايات المتحدة على سباق التسلح ، يمكن ان يكفي لإرتفاع هائل في الانتاج الزراعي ، في المناطق المهددة بالجوع الجماهيري والمجاعة الشاملة .

والآن ، هل هناك حد لزيادة ، ولنمو عدد سكان الكرة الارضية ؟ ومن سيقرر هذا الحد ؟ وكيف ؟ ومن اية مواقع ؟ وهل ستستطيع الكرة الارضية إطعام مليارات البشر القادمة ، في حين ان ثلثي البشرية الآن مهدد بالجوع ؟ وهل المالتوسيون ، على

شيء من الحق ، عندما يرون في فيض السكان على سطح الكرة الارضية ، سببا رئيسيا للبؤس الاجتماعي والجوع ؟ يؤكد العلماء الماركسيون ، وكثير من العلماء البرجوازيين الشرفاء ، بشكل دامغ ، ان **هناك إمكانية تكفي لاطعام وإعالة عشرة أمثال عـــدد السكان الحالي في العالم** . ومن أجل هذا ، يجب زيـادة مردود المساحات المزروعة ، وزرع مساحات جديدة ، واستخدام ثروات البحار والمياه الجوفية وما شابهها ... ويمكن استغلال هــذه الاحتياطات في الزمن القريب ، خلال الثلث الباقي مــن القرن العشرين . وعلاوة على ذلك ، هناك آفاق أبعد ، تتصل بوسائل جديدة كليا لخلق الغذاء ، والتي ستكشف بلا شك ، أثناء سير التقدم العلمي ـ التكنيكي ، والتي يبحثها ، الآن ، العلمـاء في كثير من البلدان .

ما الذي يعرقـــل استغلال هذه الامكانيـــات ؟ وما هو السبب الحقيقي لجوع ملايين الناس في عصرنا هذا ، عصر ازدهار العلم والتكنيك ؟ لنأخذ ، بلدا من امريكا اللاتينية ، كالتشيلي ، مثلا . لقد كانت التشيلي ، منذ زمـن ليس ببعيـد ، مصدّرا كبيرا للمنتجات الزراعية . أما في العشرين سنة الاخيرة ، فقد اضطرت التشيلي الى استيراد المنتجات الغذائيـــة ، بكميات كبيرة ، من اجل اطعام سكان المدن المتزايدين . ليس نمو السكان، البالغ عددهم الآن ٩ ملايين نسمة ، مذنباً ومسببا لهذه الحالة . اذ ان الثروات الطبيعية في التشيلي ضخمة جدا ، وكافية لتأمين الغذاء لـ ـ ٣٠ ـ ٤٠ مليون نسمة . فالسبب الرئيسي للأزمـة الغذائية ، في التشيلي ، هو سيطرة نظام متأخر للعلاقات الانتاجية. ففي هذا البلد تسيطر شرذمة صغيرة من الاقطاعيين وأصحاب

العقارات على القسم الاكبر من الاراضي الصالحة للزراعة[1] في حين أن القسم الاعظم من الفلاحين لا يملك شيئا من الارض . فالرأسماليون لايرغبون في توظيف رؤوس الاموال لتحسين الاراضي المزروعة ، في أن ٦٠ ٪ من الاراضي الصالحة للزراعة ، مصابة بالتفتت والتآكل ، وكثير من الاراضي الخصبة لا يزرع إطلاقاً .

ان الحرب ضد الجوع في كثير من البلدان ، هي حرب ، وقبل كل شيء من اجل التقدم الاجتماعي ، من اجل الاصلاح الزراعي ، ومن اجل خلق الاقتصاد المستقل ، وباختصار ، فهي حرب للقضاء على العلاقات الانتاجية المهترئة ، التي تقيّد القوى المنتجة وتعرقل تقدمها .

ان الايديولوجيين البرجوازيين عندما يصرخون ويتحدثون عن الخطر « الاسود » أو الخطر « الاصفر » يتناسون الحديث ، ويسكتون عن النهب الاستعماري (الكولونيالي) الذي تعرضت له شعوب آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية خلال قرون طويلة . وهذا بالضبط ، ماأدى الى عرقلة نمو القوى المنتجة ، والعلم والثقافة ، في هذه المناطق من العالم . وحتى الآن ، لا زالت البلدان الراسمالية المتطورة تستغل شعوب كثيرة من البلدان ، بالرغم من أن اكثر هذه البلدان قد حصل على استقلاله ، من الناحية القانونية . فمثلا ، خلال الفترة من ١٩٥٠ ــ الى ١٩٦٠ ، ابتزت الاحتكارات ، وخاصة الامريكية ، من امريكا اللاتينية (١٤) مليار

---

(١) قبل وصول الاحزاب التقدمية الى الحكم سنة ١٩٧١ والقيام بالاصلاح الزراعي (المترجم) .

دولار على شكل تبادل غير متكافىء .

ويكمن العيب النظري الاكبر للسوسيولوجيا المالتوسية ، في انها تنظر الى قضايا السكان ، كما تنظر الى قضايا رئيسية ، مسيطرة ، وكأن مستقبل الانسانية كله متوقف على تقرير هذه القضايا وحلها ، فهي تحرّف ، حتى قوانين السكان ذاتها ، وتنكر محتواها الاجتماعي ـ الطبقي ، وتجعل كل شيء منوطا بإرتباطات بيولوجية صرفة ؛ كما تنظر الى قوانين السكان هذه نظرة تجريدية ، مما يؤدي بها ، في النهاية ، الى المثالية . وتدعي السوسيولوجيا المالتوسية ايضا ، انه يمكن ، بناء على رغبة الحكومات اختراع وسائل مريعة لتخفيض عدد الولادات ، وهذه ستحل كل المشاكل والتناقضات التي تعيشها الانسانية في العصر الراهن . وما هذا كله الا قربان يقدم للارادية Voluntarisme (الطوعية) وللسوسيولوجيا الذاتية المثالية .

ان المهمة الاجتماعية ـ الطبقية للمالتوسية الجديدة واضحة تماما . فالمالتوسيون الجدد يحاولون الهاء العمال عن المهمات الرئيسية والملحة للنضال التحرري ضد الامبريالية ونتائجها كلها ، بما فيه الاستعمار والاستعمار الجديد . اما الجناح الرجعي من هذا الاتجاه فيلعب دور النافخ في ابواق الحرب النووية ، زارعاً الكراهية نحو شعوب البلدان الاشتراكية ، و « الشعوب الملونة » والتي تهدد ، كما يزعمون « المدنية البيضاء » . غير ان المالتوسية لا تتطفل على قضية ثانوية لا اهمية لها ، بل على قضية هامة وجدية .

ان ما يقال عن ان الماركسية ، وعلى وجه التحديد

السوسيولوجيا الماركسية ، لا تهتم بمشاكل الديموغرافيا ، ولا تكترث لديناميكية نمو السكان ، رأي خاطىء تماما . فالمجتمع الاشتراكي لا يمكنه أن ينظر نظرة جبرية Fataliste الى قانون موضوعي ـ اجتماعي ما ، كما لا يمكنه أن يكون لا مباليا تجاه العمليات العفوية المتصلة بتكاثر السكان . وقد كتب انجلز حول هذا الموضوع قائلاً : « ان الامكانية التجريدية لمثل هذا النمو العددي للانسانية ، الذي سيستدعي ضرورة وضع حد لهذا النمو . بالطبع موجودة . ولكن اذا اضطر المجتمع الشيوعي ، يوما ما . الى تنظيم تكاثر الناس ، كما سينظم في ذلك الوقت انتاج الاشياء ، فان المجتمع الشيوعي وحده ، ووحده فقط ، سيقوم بهذا التنظيم بدون صعوبات ... على اية حال ، فالناس في المجتمع الشيوعي ، بأنفسهم ، سيقررون ، هل يجب من اجل هذا (التنظيم) اتخاذ اجراءات ما ، ومتى ، وكيف ، وأية اجراءات . فأنا لا أعتبر نفسي مدعوا لأعرض عليهم اجراءات معينة . او لأقدم النصائح المناسبة لهم . فعلى اية حال ، لن يكون الناس أغبى منّا ومنكم »(١) .

وهكذا ، لم ينف مؤسسو الماركسيةامكانيةوضرورة التنظيم الاجتماعي لأعداد الجنس البشري ، لكنهم ، في الحقيقة ، نظروا الى هذا الموضوع ، على انه موضوع المستقبل البعيد .

وبدون شك ، وبلا مناقشة ، من الواجب ان تُحل هذه القضية في كل بلد ، في الوقت الحاضر ، انطلاقا من خصائصها

---

(١) كارل ماركس ، فرودريك انجلز . المؤلفات . الجزء ٣٥ ص ١٢٤ « الطبعة الروسية » .

التاريخية المعينة . فبالنسبة الى بعض الدول الاشتراكية ، بما فيها الاتحاد السوفييتي ، من المرغوب فيه آن تكون زيادة السكان اكبر مما هي عليه الآن ، بينما بالنسبة للدول الاخرى، الاشتراكية وغير الاشتراكية فالوضع المعاكس ، اي تخفيض الزيادة السكانية فيها ، هو الاصح .

يمكننا ان نقرأ أحيانا في الكتب السوفييتية ان « العالم – هو مائدة جاهزة (مغطاة بألوان الطعام) ، وعلى أطرافها ، توجد اماكن ، تكفي لكل سكانه »(١) . هذا القول صحيح اذا اخذناه بشكل عام ، بمعنى الامكانيات الموجودة . وفي الواقع، فالانسانية، على الاقل في المرحلة المستعرضة تاريخيا ، لايهددها ضعف الثروات الطبيعية ، فهناك امكانيات ضخمة لزيادة الاراضي المزروعة ، ولرفع المردود الخ ... غير ان هذه كلها امكانيات ليس الا ، بالرغم من آنها امكانيات حقيقية . وفي الحقيقة ، فالعالم لايشبه المائدة ، التي تتحطم من كثرة المآكل واصناف الطعام . ولن يكون كذلك الا بعد تقرير القضية الجذرية للعصر الراهن ، ولن يكون كذلك ايضا عندما ستسير الانسانية في طريق الاشتراكية ، بل عندما تقطع مراحل كثيرة في هذا الطريق ، بحيث تستطيع تطوير القوى المنتجة ، الكافية لتلبية جميع متطلباتها المادية والروحية .

وفي الوقت الحاضر ، هناك عدد من الدول النامية ، يتخذ اجراءات لبرمجة العائلة ، طامحا الى الحدّ من نمو السكان . طبعاً ، من الخطأ ان ننسب هذه السياسة الديموغرافية الى

---

(١) آ. غ. سبيركين . محاضرات في الفلسفة الماركسية . موسكو ١٩٦٤ ص ٣١٧

المالتوسية الجديدة . فهذه السياسة لن تكون مالتوسية جديدة الا عندما سينتظرون منها ، وحدها فقط ، حل القضايا والمشاكل الاجتماعية كلها . فهذه القضايا والمشاكل يمكن ويجب أن تُحل، لا بإجراءات ديموغرافية ، هذه التي تلعب دوراً مساعداً هنا ، بل تُحل ، كما ذكرنا سابقا ، بالتقدم الاجتماعي الشامل . أي بإزالة علاقات الانتاج المهترئة القديمة ، وبالتطوير السريع للقوى المنتجة ، والتقدم العلمي ــ التكنيكي والثقافي .



الفصل السادس

الملامح الرئيسية لأزمة علم الاجتماع البرجوازي المعاصر

كشف لينين عن عيبين رئيسيين في علم الاجتماع قبل الماركسي . اما العيب الاول فهو ان النظريات السوسيولوجية قبل ماركس : « كانت تبحث ، فقط ، في البواعث الفكرية لنشاط الافراد التاريخي ، دون ان تدرس مسببات هذه البواعث ، ودون أن تدرك القوانين الموضوعية لتطور نظام العلاقات الاجتماعية ، ودون الاعتبار بأن جذور هذه العلاقات تكمن في درجة تطور الانتاج المادي »(١) . وبعبارة أخرى فقد عانت كل نظريات التطور التاريخي السابقة لماركس من المثالية. فهل تمكنت السوسيولوجيا البرجوازية المعاصرة من القضاء على هذا العيب المذكور ؟ . الجواب بالنفي . فالنظريات السوسيولوجية البرجوازية المعاصرة ترتكز ، كسابقاتها ، على المثالية الفلسفية ، وخاصة المذهب الذاتي منها . ولا تشكل الاتجاهات ، التي تضع في أساس الدراسة السوسيولوجية عاملاً من العوامل ذات الطابع المادي ، كمشكلة السكان او الوسط الجغرافي او التكنيك او ، حتى ،

---

(١) ف. اي. لينين . المؤلفات الكاملة . الجزء ٢٦ ص ٥٧ « الطبعة الروسية »

الاقتصاد ، شذوذاً . وقد تكونت لدينا هذه القناعة من نظرية روستو « مراحل النمو الاقتصادي » مثلاً ، التي لا تعتبر السبب الرئيسي للتطور التاريخي ، تطور الانتاج ، بل وعي وارادة بعض الشخصيا تالبارزة .

وهناك سؤال ، من اهم الاسئلة ، يجب على العلم الاجتماعي ان يجيب عليه وهو : قضية طرُق تطور المجتمع الانساني . والماركسية ــ اللينينية ، باكتشافها لقوانين التطور التاريخي الموضوعية ، اشارت الى طرق ووسائل تحرير الطبقة العاملة وكل العمال من العبودية الرأسمالية ، والى اسس ضرورة بناء الاشتراكية والشيوعية . وقد أكدت صحة هذه النظرية مسيرة التاريخ العالمية ، وقبل كل شيء ، ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى ، وانتصار الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي ، ونشوء المنظومة الاشتراكية العالمية . وليس من باب الصدفة ان الايديولوجيين البرجوازيين المعاصرين ، يوجهون جهودهم لتشويه المنجزات التاريخية للبلدان الاشتراكية ، ولنفي ضرورة الانتقال (التحول) الثوري من الرأسمالية الى الاشتراكية ، هذا الانتقال الذي يشكل السمة المميزة للعصر الراهن . وفي سبيل هذا فَهُمْ يضطرون الى رفض مفهوم « قوانين التاريخ » و « التقدم الاجتماعي » .

ولقد فضح فلاديمير ايليتش لينين ، المغزى الطبقي لحملة العلم البرجوازي ضد المنطق التاريخي الموضوعي. وكتب يقول : « لو ان أحداً ، في حقل العلوم الطبيعية ، قال بأن قوانين ظواهر العالم الطبيعي ، ليست الا شبحا ، لأدخلوه مستشفى

المجانين ، او لسخروا منه . اما في حقل العلوم الاقتصادية ، فيعينوا الانسان المتفندر ، المتأنق بجرأة .. والفارغ من اية معلومات ، أستاذا جامعيا بكل طيبة خاطر ... »(١) .

فإيديولوجيو البرجوازية ، في حقل علم الاجتماع، مضطرون للجوء الى الافتراء والجور على المنطق والحقائق من اجل الدفاع عن مصالح اسيادهم الطبقية . وكما قال لينين ، من اجل اكتساب شهرة عالم اختصاصي محترم ، عند البرجوازية ، في حقل العلوم الاجتماعية ، لاداعي ابدا ، لأن يكون الانسان عالما ، او لأن يملك المعارف العميقة ؛ حيث يكفيه « إثبات » استحالة الاشتراكية ، و « القضاء على الماركسية » ، ليقال عنه بأن عالم شهير ، ضاربا عرض الحائط بكل القوانين التاريخية .

ومنذ ذلك الوقت ، عندما كتب لينين هذه السطور ، قويت هجمات الايديولوجيين البرجوازيين على مفهوم « القانون التاريخي » . فهم يعتبرون هذا المفهوم خطأ تاريخياً Anachronism ، شارك العلم في ارتكابه في القرن الماضي . ويبعدون ايضا مفهوم السببية من العلم الاجتماعي ، ويحلون محله مفهوم « التبعية الوظيفية » . ويؤولون هذا المفهوم الاخير على انه صلة الظواهر الاجتماعية ، حيث يمكن لكل ظاهرة ، حسب هوى العالِم أن تخدم لحظة معينة . فمثلا يمكن للسياسة ان تحدد الاقتصاد ، او بالعكس ، وهكذا ، فحسب رأي الايديولوجيين البرجوازيين ، لا يوجد ولا يمكن ان يوجد ، في الحياة الاجتماعية ، أي شيء محدد ومشروط (متعلق) موضوعياً .

---

(١) ف. اي. لينين . المؤلفات الكاملة . الجزء ٢٥ ص ٤٦ « الطبعة الروسية »

اما العيب الثاني الرئيسي في علم الاجتماع ، قبل ماركس فقد كتب لينين ، بأنه يكمن في أن علم الاجتماع ، قبل ماركس ، لم يشمل نشاط **جماهير** السكان ،في حين أعطت المادية التاريخية، ولأول مرة ، امكانية دراسة الظروف الاجتماعية لحياة الجماهير وتغير هذه الظروف ، بدقة تاريخية طبيعية .

ولم تقض السوسيولوجيا البرجوازية المعاصرة على هذا العيب ايضا . بالطبع ، خلال الخمسين سنة المنصرمة ، والتي امتازت بالنشاط التاريخي العاصف لجماهير العمال الواسعة ، لم يستطع خلالها الايديولوجيون البرجوازيون ، كما لم يستطيعوا من قبل ، تجاهل قضية دور الشعب في التقدم الاجتماعي . بل ظهر حقل خاص في السوسيولوجيا وهو «سوسيولوجيا الجماهير»، وحقل علم النفس الاجتماعي البرجوازي المتصل به وهو « سيكولوجية الجماهير » . ويدرس هذان الفرعان من السوسيولوجيا ، الخصائص السيكولوجية للناس ، الذين يشكلون حشدا (او جمهورا) Masse ، وخاصة في مراحل الافعال الجماعية ، كالمسيرات والاضرابات والخطب الحماسية ، وكذلك الجنون النفسي الجماهيري والذعر ، وما شابهه ...

ان من الخطأ عدم الاعتراف بأن كثير من هذه الاعمال يحوي على مواد وقائعية كبيرة ، غير ان معالجة مفاهيم « الجمهور ، الحشد Masse » ، و « النشاط الجماهيري » وغيرهما ، في علم الاجتماع البرجوازي المعاصر ، هي معالجة بعيدة عن العلمية ومناقضة لها . فمثلا نجد في القاموس الفلسفي الالماني الغربي التعريف التالي : « الجمهور (في المعنى السوسيولوجي) — هو

الجماعة التي يفقد الافراد داخلها ، بنسبة ما ، شخصيتهم ، وتتكون عندهم ، بفضل التأثير المتبادل ، الغرائز ، والعواطف ، والدوافع المتشابهة ، والحركات الارادية » ، فالجمهور ، او الجماعة ، حسب رأي علماء الاجتماع الغربيين ، تخرب الشخصية ، وتفقدها قيمها الذاتية . فهم ينظرون الى اتحاد الناس في جماعات وحشود Masses ، نظرتهم الى شر لابد منه ، في حين انهم يدعون المجتمع المعاصر « بالمجتمع الجماهيري » الذي يعتبرونه عدو الحرية الانسانية والفردية .

ويؤكد السوسيولوجيون البرجوازيون ان نشاط الجماهير و « الحشود » عاري من المنطق والبصيرة الحقيقية . وان الجمهور يستسلم بسهولة للايحاء والتنويم المغناطيسي ، وان من السهل على اي ديماغوجي أن يجذبه الى جانبه . نلمح وراء هذه الاستدلالات ، خوف الايديولوجيين البرجوازيين ، المقنع بشكل مفضوح ، من نشاط جماهير العمال الثوري . وفي الوقت نفسه ، يقوم علماء الاجتماع وعلماء النفس البرجوازيون ، تنفيذا للمآرب الاجتماعية لأوساط الامبريالية ، بإعداد الوسائل من اجل الاستدراج النفسي (السيكولوجي) للجماهير الشعبية ، طامحين ومحاولين توجيه فعاليتها حسب الاتجاه المناسب لهم .

وعدا عن ذلك فالسوسيولوجيا البرجوازية المعاصرة ، مرهقة بمجموعة كاملة من النواقص والعيوب الاخرى ، مما يدل على انها تعاني أزمة عميقة .

ويرهق علماء الاجتماع الغربيون انفسهم ، ويبذلون الجهود

من اجل مشكلة النظرية الشاملة وغير العادية والموحدة ، فهم لا يستطيعون الجمع بين الدراسات التجريبية الواقعية والنظرية السوسيولوجية العامة . وقد سبق ان تكلمنا سابقا عن ازمة السوسيولوجيا التجريبية وعن فشل المحاولات لخلق نظرية شاملة للتقدم الاجتماعي . فالتجريبية المهترئة ، والوقائعية المبتذلة ستؤديان الى افقاد علم الاجتماع البرجوازي موضوع دراسته . ويحاول علماء الاجتماع البرجوازيون الخروج من هذا المأزق ، متشوقين الى « النظرية الكبيرة الشاملة » ، غير انهم في وضع لا يستطيعون فيه ان يخلقوا سوى البدائل النظرية الكاذبة ، التي تظهر وتنفقىء كفقاعات الصابون .

ولقد كال علماء الاجتماع البرجوازيون المديح لنظرية روستو عن « مراحل النمو الاقتصادي » الخمسة في المؤتمر العالمي الخامس للسوسيولوجيا . في حين انهم لم يوردوا أي ذكر لها في المؤتمر السادس للسوسيولوجيا . الا ان هذا لا يعني أن مخطط روستو للنمو الاقتصادي قد حُوِّل الى الارشيف للحفظ . ففكرة تقدمية اقتصاد الرأسمالية الامريكية ، لازال يُعبر عنها في اشكال مختلفة ، ومازالت الايديولوجية البرجوازية تستغلها ، وستستغلها ، لفترة طويلة على الاغلب . لهذا ما زالت نظرية روستو مهمة ، لا لذاتها ، بل كمثال نموذجي للتبريرات البرجوازية المعاصرة .

ويعي هذا الوضع المتأزم لعلم الاجتماع البرجوازي بعض ممثليه . فقد دعا عالم الاجتماع الامريكي المعروف ك . تسيمّرمان ، الى خلق علم اجتماع حقيقي في الغرب ، فيقول : « يمكن ان

نتساءل ، لماذا لايوجد لدينا علم حقيقي عن المجتمع حتى الآن ؟ وماذا كان يعمل علماء الاجتماع عندنا ، خلال هذا القرن ؟ الجواب بسيط ، فهم لم يعملوا اي شيء مهم ، ذو قيمة ، تقريبا » . ويشير تسيميرمان الى توفر امكانيات اكبر لتطور السوسيولوجيا ، في امريكا ، منها في البلدان الغربية الاخرى ، فيتابع حديثه قائلا : « لم يتطور علم الاجتماع ، خلال الفترة المذكورة ، عندنا في الولايات المتحدة الامريكية ، بل على العكس ، فقد انتكس وانحط . وتحول هذا العلم الى مجموعة فرضيات غير مفهومة ونظريات عقيمة لا تتصل بالواقع » .

ان مثل هذا النقد الذاتي هام وخطير ، ولكن ينقصه الاهم ، وهو تحليل الاسباب المؤدية الى ازمة الفكر الاجتماعي البرجوازي . فعلم الاجتماع البرجوازي لا يملك آفاقا للتطور المثمر . والقضية ، بالطبع ، ليست قضية الصفات الشخصية ، والنوعيات للعلماء . فالمقدمات والمنطلقات المثالية والميتافيزيقية التي ينطلق منها علماء الاجتماع البرجوازيون ، والمصلحة الطبقية للبرجوازية ، تقف عقبة كأداء في وجه خلق علم الاجتماع ، الذي يحلم به تسيميرمان . وعدا عن ذلك فقد تأسس العلم الحقيقي عن المجتمع ، بما فيه السوسيولوجيا ، منذ زمن ، ويتطور بنجاح على اسس المادية والدياالكتيك . غير ان العقيدة البرجوازية المحدودة الضيقة ، والمواقع الطبقية الرجعية ، تمنع الناس ، امثال تسيميرمان ، من ان يروا في الماركسية مثل هذا العلم .

ان الصفة الاهم لازمة الايديولوجية البرجوازية عامة ، بما

فيها الفلسفة الاجتماعية(١) والسوسيولوجيا هي التشاؤمية Pissimisme المغْرِقة .

في الوقت الذي كانت فيه البرجوازية طبقة صاعدة ، اتسمت ايديولوجيتها بالثقة في التقدم ، وبالتفاؤلية التاريخية. اما الآن فتعاني الرأسمالية أزمة شاملة ، وتأكلها التناقضات المتنافرة ، فلم تعد نظاما عالميا شاملا ، كما أخذت تتنازل عن مواقعها ، موقعا إثر موقع ، أمام القوة الرائدة المعاصرة ، أمام النظام الاشتراكي العالمي . وهذا هو السبب الرئيسي لسيطرة التشاؤمية الاجتماعية العميقة ، ولانتشار دوافع البؤس والكآبة، التي تعم الايديولوجية البرجوازية كلها .

ويتخيل البرجوازية وايديولوجييها ان هلاك الرأسمالية يعني « الهاوية » ويعني « نهاية العالم الحقيقية » . وفي هذه الحالة فالبرجوازية ، مثلها مثل غيرها من الطبقات التي حكم عليها التاريخ بالاضمحلال والزوال ، تماثل بين زوالها المقبل وبين انهيار المدنية كلها ، وحصول الكارثة العالمية الشاملة . ويرهب البرجوازية تنافس نظامين اجتماعيين ـ اقتصاديين . أما

---

(١) يقصد العلماء البرجوازيون « بالفلسفة الاجتماعية » عادة : الدراسة الفلسفية لحياة المجتمع بشكل عام ، بينما يفسرون السوسيولوجيا كعلم لافلسفي، يدرس السلوك الانساني ، وبعض مجموعات الناس المنفصلة . غير أن هذه المعارضة اصطناعية ، لا تصمد أمام العلماء البرجوازيين أنفسهم . والواقع أن كل نظرية سوسيولوجية تعتمد على فلسفة معينة ، وتعتبر جزءا من الايديولوجية . وتلحق بالفلسفة الاجتماعية البورجوازية ، فلسفة التاريخ البورجوازية ، التي يفهمون منها تفسير وتقييم نتائج البحث التاريخي ، والعملية التاريخية نفسها .
« المؤلف »

الايديولوجيون البرجوازيون المغرقون في رجعيتهم ، فيرون في الحرب النووية فرصة وحيدة لإنقاذ « المدنية الغربية » معبرين بذلك عن مصالح المجموعات الحربية - الصناعية ومصالح العسكريين .

وقد دخل مفهوم « انتظار الهلاك » حتى القواميس الفلسفية التي يصدرها العلماء البرجوازيون . وكما يدل القاموس الفلسفي الالماني الغربي « فالفكرة الرئيسية لتاريخ الفلسفة الحديث هي فكرة نهاية العالم . ويمكن ان نجد الكلمات التالية : سقوط ، كارثة ، أفول ، غسق ، نهاية ، في اي بحث عن تاريخ الحضارة . ويربطون هذه الكلمات بالنظام الاجتماعي السابق، وبنظام الاقتصاد القديم ، وبنظام القيم كله ، او بشكل عام يربطونها بحضارة الغرب » .

ان سقوط المثل العليا التي كانت مستقرة ، واعادة تقييم المقدرات ، لدليل صادق على آن المجتمع ، الذي اوجد هذه المثل العليا وهذه القيم ، سائر نحو الانحطاط والتدهور . ولهذا تطابق البرجوازية ، على لسان مفكريها ، بين هلاكها المقبل وهلاك الحضارة كلها ونهاية العالم .

ويلعن ايديولوجيو البرجوازية الامبريالية المعاصرة ما آمن به ، وما ناضل من أجله المفكرون - الإنسيون في فجر النظام الراسمالي . فالامبريالية التي تعني الرجعية بمختلف المجالات والصور ، أدت الى اعادة تقييم ، بل ، وبشكل ادق،الى رفض القيم والمقدرات السابقة : كرفض المثل العليا الاجتماعية ،

والمطالب السياسية التقدمية ، والى رفض النظرة البرجوازية — الديمقراطية للحرية ، ورفض الافكار الانسانية والمبادىء المادية في الفلسفة ، كما ادت الى رفض فكرة التقدم والمنطق التاريخي في علم الاجتماع ، والواقعية في الفن ، وما شابهها .

وفي عصرنا هذا ، أخذت ازمة القيم الروحية للبرجوازية بالانتشار على مقاييس واسعة لم تعرف من قبل . فقد تخلى ايديولوجيو الراسمالية الرجعيون ، منذ زمن طويل ، عن التقدم في التاريخ ، وعن الحقيقة في المعرفة ، وعن الجمال في الفن وعن العلاقات الانسانية ايضا . غير انهم يهاجمون الآن مفهوم التقدم التاريخي بشكل خاص وعنيف .

وقد وجدت فكرة حتمية سقوط « الحضارة الغربية » اي النظام البرجوازي ، في الفترة ما بين الحربين ، تعبيرا واضحا ، في كتاب الفيلسوف الالماني اوسوالد شبنغلر (١٨٨٠ — ١٩٣٦) « سقوط اوروبا » الذي اثار ضجة كبيرة . فالتاريخ الانساني ، حسب راي شبنغلر ، هو تاريخ « حضارات » قومية منعزلة ، حيث تمر كل حضارة منها ، كالجهاز الحي ، في مرحلتين : النشوء والازدهار ثم الانحلال والسقوط . وقد بدأت «الحضارة الغربية » ، حسب راي شبنغلر ، في السير على طريق السقوط المحتم .

وكثير من آراء شبنغلر وافكاره ، يتطور الآن على يد العالم الانكليزي ارنولد توينبي (ولد ١٨٩٩) ، اشهر ممثل لفلسفة التاريخ البرجوازية .

فاذا كان شبنغلر قد تحدث عن « الحضارات » ، فان الحديث عند توينبي يدور حول « المدنيات القديمة » التي يعتبرها توينبي منطوية على نفسها ، فريدة من نوعها وفذة . وكل مدنية من هذه المدنيات تمر في نفس الحلقة المؤلفة من خمس مراحل : الولادة ، النمو ، الانعطاف (او التحول) ، الانحلال ، والسقوط . والمدنية التي تسقط ، تختفي دون أن تؤثر تأثيراً جوهريا على سير التاريخ العالمي .

فما هي الميزة التي يصنف توينبي « المدنيات » على اساسها ؟ ترتكز كل من هذه المدنيات على الافكار الدينية ، وحملة هذه الافكار هي الاقلية المبدعة ، التي تقود وراءها عامة الناس البطيئة الحركة (الخاملة) ، ويذكر توينبي في كتاباته المختلفة عددا غير ثابت من « المدنيات » . اما في اعماله الاخيرة فيؤكد ، وكأنه قد بقيت ثماني مدنيات هي : المدنية الهندية ، والصينية ، واليابانية ـ الكورية ، ومدنية الشرق الاقصى ، والمدنية العربية ، والبيزنطية ـ الارثوذكسية ، والروسية ـ الارثوذكسية ، والمدنية الغربية . وتقع كل من هذه « المدنيات » باستثناء المدنية الغربية ، في وضع الانحلال والتفكك . اما « المدنية الغربية » فيرى توينبي ، أنها تملك فرصا وامكانيات اكثر لتجنب الانحلال والسقوط . وتكمن هذه الفرص والامكانيات في الدين المسيحي ، الذي يشبه ، حسب راي توينبي ، البلسم المنقذ ، والذي سيحفظ المدنية الغربية الى الابد ، رغما عن اتجاهات التهديم وظواهر الانشقاق والانقسام والحرب الطبقية . غير ان توينبي لا يعبر عن ثقته الكاملة الاكيدة بأن « المدنية الغربية » ستبقى حية وستعيش .

وبشكل عام ، تعاني نظرية توينبي من التشاؤمية التاريخية . فهي تنفي طابع التطور الاجتماعي ، الارتقائي التقدمي . فتوينبي يؤكد ان التطور لا يمكن أن يجري الا بشكل دائري . و «المدنية» ، التي تسقط وتموت ، لاتقدم اية مساهمة في تقدم المجتمعات الانسانية الطويل بعيد المدى .

وبالرغم من وضوح الوقائع وجلائها ، وخاصة في العصر الحاضر ، ينفي توينبي وحدة التاريخ الانساني ، وعدم تجزأ السير التاريخي والعملية التاريخية . وبالطبع ، ينفي توينبي ايضا المنطق التاريخي الموضوعي ، معترفا فقط «بالقانون الالهي» الذي يدير مصير « المدنيات » .

ان نظرية « المدنيات الاقليمية » ، الرجعية اللاعلمية ، موجهة ، بسنانها ، ضد النظرية الماركسية عن التقدم الاجتماعي كتبدل طبيعي منطقي للتشكيلات الاجتماعية ــ الاقتصادية . فهي تحاول نفي الضرورة والحتمية التاريخية لقيام النظام الاشتراكي على كوكبنا .

ولا يسعى توينبي وحده وراء هذا الهدف ، بل تسعى اليه ايضا فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع البرجوازي كله . وليس من باب الصدفة أن أعلن السوسيولوجيون البرجوازيون الحملة ضد مفاهيم : « التطور » ، و « التقدم » و « النشوء والارتقاء » ، واعتبروها ، كمفاهيم ، من رواسب شكل التفكير قبل العلمي . وينحلون محل هذه المفاهيم كلها ، مفهوم غير محدد هو «التغيرات الاجتماعية » ، ويفهمون منه التغير في الظواهر الاجتماعية ،

الذي لا يمكنه ان يكشف لا الضرورة والمنطقية فقط، بل ولا يكشف ، حتى النزعة او الاتجاه المحدد (مثال مما هو في الاسفل الى ماهو في الاعلى) .

ان من الصعب جداً نفي واقع التغيرات في عصرنا الديناميكي الهائج ، ولهذا فالايديولوجيون البرجوازيون لا ينفون الحركة الاجتماعية نفسها ، بل ينفون اتجاهها ونزعتها ، وينفون طريق الانسانية التاريخي .

وقد قال غ. بيكير و آ. بوسكوف في مقدمة كتابهما « « لانعرف الى اين نذهب ، ولكننا نسير على الطريق » : ان هذا الاحساس ، سواء صُرّح به أم لم يصرح ، يعكس مظاهر كثيرة من نشاطنا اليومي ، لا في الولايات المتحدة الامريكية فقط ، بل في العالم كله »[1] . ويؤكد ايضا انه لا توجد اية رؤية للمستقبل موثوقة وأكيدة ، بل ولا يمكن حتى التنبؤ باتجاهات تطور الحوادث .

وهكذا تتميز السوسيولوجيا وفلسفة التاريخ البرجوازيتين بفقدان الافق التاريخي . هذا ، ومن ناحية اخرى ، فقد بدات نزعة اخرى ، مناقضة من حيث المظهر الخارجي ، تشق طريقها في السنوات الاخيرة . حيث تجري محاولات لرسم مخططات عامة للعملية الاجتماعية ، كما تظهر نظريات وتصورات تتطلع الى تعميمات تاريخية عريضة . وقد تعرفنا في الفصول السابقة على بعضها ، ولنتذكر على الاقل نظرية روستو عن

---

(١) غوفارد بيكر ، آلفين بوسكوف : النظرية السوسيولوجية المعاصرة في تعاقبها واختلافاتها . موسكو ١٩٦١ ص ٧ .

« مراحل النمو الاقتصادي » الخمسة . كما تثار الضجة والدعاية بشكل واسع حول النظريات السوسيولوجية التي تتحدث عن مختلف انواع « الثورات » مثل : « الثورة الصناعية الجديدة » و « ثورة في المداخيل » ، وبل وحتى « الثورة الجنسية » .

وليست هذا النظريات الا انعكاسا مغلوطا ومشوها ميتافيزيقيا ، لبعض الصفات الحقيقية لديالكتيك التطور الاجتماعي المعاصر . واما المهمة الاجتماعية ـ الطبقية لهذه النظريات ، فهي تصوير الراسمالية على هيأة المجتمع التقدمي الديناميكي المعبأ بالقوى . ويتحدث بعض هذه التصورات عن ثورات مختلفة خيالية ، بينما يجعل البعض الآخر من هذه النظريات ، بعض صفات الثورة العلمية ـ التكنيكية مطلقة ابدية. غير ان كل نظرية منها على حدة ، وكلها كمجموعة ، لا تكشف الافق الواقعي الحقيقي للتطور التاريخي ، ولا جوهر عصرنا الثوري الحقيقي . ويمكن تشبيه هذه النظريات بقناع دخاني مُوجّه ليخفي عن عيون العمال الطريق العريض الواسع لتطور الانسانية في العصر الراهن ، الا وهو طريق الانتقال من الراسمالية الى الاشتراكية .

ونقترب هنا الى الصفة المميزة لعلم الاجتماع البرجوازي المعاصر ، والتي هي مصدر وسبب الازمة التي يعانيها الا وهي العداء للاشتراكية والشيوعية .

فالماركسية ـ اللينينية هي نظرية علمية حقيقية ، عنى نشوؤها انقلابا ثوريا في تطور التعاليم والنظريات عن المجتمع.

وغدت ، بظهورها ، مهمة علم الاجتماع لا شرح العالم وتفسيره فحسب ، بل وتغييره ثوريا ، أيضا . وبهـــذا استند النشاط العملي للناس ، في خلق المجتمع الجديد ، الى اسس علمية متينة، كما تلقّى العلم ، بدوره ، دفعة كبرى من اجل تطوره الابداعي وإغنـــائه .

وقد قوبلت ايديولوجية البروليتاريا ، الثورية والعلميــة معا ، منذ ظهورها ، بعداء وحشي وهجمات مجنونة من جانب الطبقات المستغِلة المسيطرة . ونما هذا العداء ، وما زال ينمو بشكلٍ يتناسب طرديا مـــع النجاحات التي حققتها النظريـــة الماركسية ـ اللينينية . وغدا العداء للشيوعية الآن ، كرد فعل طبقي للبرجوازية على الشيوعية العلمية ، سلاحا فكريا سياسيا رئيسيا للبرجوازية واذنابها . وبانتصار اول ثورة اشتراكية في العالم ، امتد العداء للشيوعية من المجال الايديولوجي والصراع السياسي الداخلي ، الى مجال العلاقات الدولية ، وغدا اساس السياسة الخارجية للدول الامبريالية الجبارة .

ومعاداة الاشتراكية والشيوعية هي ، من جهة اخـرى ، عقبة كأداة في طريق تطور الفكر الاجتماعي ـ البرجوازي .

عندما ناضلت البرجوازية من اجل السلطة ، ووقفت ضد الانظمة الاقطاعية ـ العبودية ، ابرزت خيرة كبار الفلاسفة ، وعلماء الاجتماع والاقتصاديين ، الذين اثروا العلوم الاجتماعية بكثير من الافكار التقدمية . وقد عدّل ونقح ماركس وانجلز افضل هذه الافكار ، بشكل نقدي . أما عندما سيطرت البرجوازية

على السلطة السياسية وقوّتها ، وعنـدمـا نضجت واشتدت التناقضات التي تميز المجتمع الرأسمالـي ، وعندما ظهـرت البروليتاريا على المسرح السياسي كقوة سياسية مستقلة، عندها، وكما قال ماركس ، تدق ساعة الموت للاقتصاد السياسي البرجوازي العلمي ، وقد كتب ماركس حول هذا الموضوع قائلا : « ومنذ الآن بدأت الامور تسير لا على ان هذه النظرية او تلك صحيحة ام خاطئة ، بل على أنها مفيدة ام مضرة للرأسمال ، مناسبة ام غير مناسبة ، أتتفق مع العقل البوليسي أم لا . ويتخلى البحث العلمي المجرد عن مكانه لمعارك الكتّاب الرديئين المأجوريـن ، وتَحلُّ محل الابحاث والدراسات العلمية غير المفروضة محاباة مدافعة ، متحاملة ، واسترضائية »(١) .

وينطبق هذا الوصف على علم الاجتماع البرجوازي ككل . وكما اشار لينين ، يجب ان لا نثق بأية كلمة تصدر عن العلماء البرجوازيين ــ وهم القادورن على تقديم اعمال قيمة في حقـل الابحاث الاختصاصية والواقعية ــ اذا كانت هذه الكلمة تتعلق بالفلسفة ، او علم الاجتمـاع او الاقتصاد السياسي ، نظرا لأن هذه العلوم هي علوم ملتزمـة ، والالتزام البرجوازي لا يتفق والتحليل الموضوعي للحياة الاجتماعية في مميزاتها واتجاهاتهـا الاساسية الرئيسية .

وهذا لا يعني ، بالطبع ، ان كل عالِـم برجوازي مزيفٌ قاصِدٌ للعلم ومعاديٌ للشيوعية . غير ان النزاهة الذاتيـة عند العالِم لا تؤدي ، آليا ، الى نتيجة علمية حقيقية موضوعية .

(١) ماركس وانجلز ــ المؤلفات ج ٢٣ ص ١٧ .

فان قوة العادات ، ونظام التربية ، ونظام الحياة الاجتماعية كله، يبعد العالِم البرجوازي عن الماركسية ، وعن الديالكتيكية المادية، الطريقة العلمية الوحيدة للمعرفة ؛ ويضع العقبات والحواجز امام طريق ادراك الواقع الموضوعي ؛ ولا يستطيع العالِم القضاء على هذه العقبات الا بالانفصال عن طبقته ، والاخذ بوجهة نظر البروليتاريا . وهذا قرار صعب وعسير لا يحققه الا القليل ، غير ان القليلين الذين يحققون هذا القرار وينفذونه ، هم خيرة ممثلي العلم البرجوازي .

ويظهر ، في البلدان الراسمالية ، عدد غير قليل من المؤلفات والاعمال ، المكتوبة بروح تجريدية ـ اكاديمية وموضوعية غير متحيزة ، والتي لا توجد فيها هجمات مباشرة صريحة على الماركسية ، كما ان مؤلفيها بعيدون عن السياسة ، من حيث المظهر الخارجي . وبالطبع ، من المهم في الحرب الايديولوجية ، مراعاة قصد المؤلف الذاتي ، والتباينات المختلفة لمواقع العلماء البرجوازيين السياسية ، حيث ان كثيراً منهم ليسوا أعداء صريحين وثابتين للاشتراكية والماركسية . ولكن الاهم من ذلك ان ندرك بوضوح الدور الطبقي الموضوعي الذي تلعبه مؤلفاتهم ، المنطلقة عادة من مواقع المثالية والميتافيزيقية ، والتي تعطي صورة معكوسة للحياة الاجتماعية المعاصرة . ويستغل الدعاة البرجوازيون « المختصون » بمحاربة الماركسية ، الاستنتاجات الرجعية المأخوذة من الاعمال المكتوبة بروح أكاديمية علمية ، حيث يشبعون كل كلمة تصدر عنهم بسموم الكراهية للبلدان الاشتراكية والفلسفة الماركسية اللينينية . لهذا فكل الفكر الاجتماعي

البرجوازي معادي للماركسية وموجه ، في النهاية ، ضدها .

ويبرز اتجاه النظريات السوسيولوجية البرجوازية المعادية للماركسية ، عادة ، وراء ستار من الموضوعية . ويحاول السوسيولوجيون البرجوازيون آن ينفوا علاقة نظرياتهم بايديولوجية ما . ويقولون بأن السوسيولوجيا العلمية يجب ان تكون بعيدة عن تأثير ايةآيديولوجية او عقيدة . فالسوسيولوجيا، حسب رايهم ، هي علم لا فلسفي ، بل علم خاص ، تكنيكي تقريبا ، يقف في مواقع أعلى من الصراع العقائدي والسياسي الذي يجري في المجتمع المعاصر.

ويعتبر علماء الاجتماع البرجوازيون العقيدة (الايديولوجية) نظاما من الافكار الاجتماعية المضللة ، التي تحرّف وتشوه الحقيقة الواقعة ، والتي تستخدمها هذه الجماعة من الناس او تلك لأهداف سياسية معينة . وكما يقول عالم الاجتماع الامريكي د. بيل . فالايديولوجية هي : « تحويل الافكار الى عتلات اجتماعية »(١) . وتدار هذه العتلات من اجل التأثير على الرأي العام وعلى وعي الناس ، وفقا لأهداف سياسية معينة . فالعقيدة لا يعنيها ولا يهمها صحة مبادئها واوضاعها . فهي تهدف الى خدمة مصالح القوى المتصارعة ، الثورية او الرجعية، معبرة ، في شكل ترتيبي عقلي ، عن الدوافع اللاعقلية والباطنية لهذه المجموعات أو تلك من الناس . وليست الايديولوجية الا شكلا من اشكال الديانات ، او الديانات الكاذبة على الاصح .

(1) D. Bell. the End of ideology. on the Exhaustion of political ideas in the fifties. Glence, 1960, P. 71.

هكذا يحدد السوسيولوجيون المعاصرون مفهوم «العقيدة»:
ويَدعون الماركسيةَ عقيدةً قبل كل شيء .

وقد شاع الحديث ، في الوقت الحاضر ، في اوساط علماء الاجتماع البرجوازيين ، عن « نهاية الايديولوجية » ،وعن نشوء اللاعقائديـة في « المجتمع الصناعي » . ويؤكد د. بيل احـد « معارضي الايديولوجية » النشيطين اننا : « قـد شهدنا في السنوات العشر الاخيرة ، تهافت ايديولوجيات القرن التاسع عشر ، وخاصة الماركسية ، كأنظمة عقلية ، والتي كان باستطاعتها، ان تدعي حقيقة تفسيراتها للعالم »(١) .

ويعتبر د. بيل ، مثل اكثرية الايديولوجيين البرجوازيين المعاصرين ، الماركسية ايديولوجيةً عتيقة تنتمي الـى القـرن الماضي ، ولا تنطبق مطلقا على العصر الراهن . لقد برزت في هذا الاعتبار الرغبة النزقة الطائشة كواقع . فليس هذا القـول الا واحدة من المحاولات العديدة « لدفن » الماركسية ، وتزداد هذه المحاولات عناداً ، بتوسع وتعمق التأثير التغييري التبديلي العظيم لأفكار الماركسية الثورية في العالم كله .

غير ان ما يهمنا هو شيء آخر . فمن اجل فضح افتراءات وتخرصات اعداء الماركسية المعاصرين ، لابد من معرفة المحتوى الحقيقي لمفهوم « الايديولوجية » . ويعزو علمـاء الاجتمـاع البرجوازيون تفسير الايديولوجية ، المذكور أعلاه ، الى ماركس

(1) D. Bell. the End of ideology. on the Exhaustion of political ideas in the fifties, P. 16.

وانجلز . فقد دعا مؤسسا الماركسية ، وخاصة في اعمالهما الباكرة ، بالايديولوجية الوعيَ التحريفي التخيلي الوهمي لممثلي الطبقات المستغلة ، وغالبا ما كانت كلمة « الايديولوجية » بالنسبة لهما ، مرادفاً للمثالية ، غير ان ماركس وانجلز وضعا في مفهوم الايديولوجية معنىً آخر أوسع : فقد عنيا بالايديولوجية مجموع الآراء والافكار والمبادىء ، التي تنعكس فيها العلاقات الاجتماعية المادية من وجهة نظر مصالح مختلف الطبقات . ففي المجتمع الطبقي لا توجد ولا يمكن ان توجد ايديولوجية غير طبقية ، فكل طبقة من الطبقات تصوغ نظامها الشخصي الخاص ، الذي يضم الافكار السياسية والحقوقية والاخلاقية والادبية وغيرها ...

وقد تطور وتحدد ، بشكل مطرد ، مفهوم « الايديولوجيا » في اعمال ف. إي. لينين ، الذي أكد ، بحزم ، ان الماركسية هي إيديولوجية طبقية بروليتارية وعلمية معاً، وان المصالح البروليتارية الطبقية ، المفهومة بشكل صحيح ، تتفق ، كامل الاتفاق ، ومنطق التطور التاريخي ، كما تتفق والاتجاه الرئيسي للتقدم الاجتماعي . والعكس صحيح بالنسبة لمصالح البرجوازية الطبقية، في عصرنا . وهذا ما يحدد طابع ايديولوجيتها الرجعي واللاعلمي .

لقد كان علم الاجتماع ولا يزال ، جزءاً لا يتجزأ من الايديولوجيا . وهو جزء لا يتجزأ من الافكار . فالسوسيولوجيا علم غير اختصاصي ، بل علم فلسفي قبل كل شيء . وهي علم فلسفي للاسباب التالية :

أولاً : لأنها تقرر ، ولا تستطيع ان لاتقرر ، قضية الفلسفة

الاولى المطبقة في الحياة الاجتماعية .

ثانياً : ، لأنها تطرح وتقرر قضية قوانين التطور التاريخي العامة وقضية التقدم الاجتماعي ، واتجاهات العمليات الاجتماعية الهامة ونزعاتها .

ويخطىء اغلب علماء الاجتماع البرجوازيين، عندما يعتبرون علم الاجتماع علما محايدا ، من الناحية الايديولوجية ، و مُطَهراً من الفلسفة . فهم يرفضون ، جدلا ، تقرير قضية الفلسفة الرئيسية ، غير انهم يقررونها عمليا ، ويقررونها بروح المثالية ، الذاتية غالبا ، وهم بوضعهم لعلم الاجتماع ضمن أطر الابحاث التجريبية الضيقة ، يحاولون ابعاد العلم الاجتماعي عن تقرير مشاكل العصر الجذرية الرئيسية ، وتكمن وراء هذه المحاولات بواعث ايديولوجية واضحة ، بعيدة جدا عن خدمة العلم الغيرية (اللاانفعية) .

ويفهم هذا الواقع بعض العلماء البرجوازيين ، الذين يسخرون من اسطورة « حياد » علم الاجتماع البرجوازي . فمثلا، يقول عالم الاجتماع ، والاقتصادي السويسري المشهور **غ. ميوردال :** « لايوجد شكل آخر لدراسة الواقع الاجتماعي ، غير دراسته من وجهة نظر المثل الانسانية . « فالعلم الاجتماعي الغيري (الخالي من المصلحة) » لم يوجد ابدا ، ولا يمكن ان يوجد منطقيا . ويمثل مجال القيمة لمفاهيمنا الرئيسية، مصلحتنا في هذه القضية ، ويعطي الاتجاه لافكارنا والمغزى لاستنتاجاتنا .

فهو (اي مجال القيمة) يطرح القضايا ويقدم لهـا الاجوبة بآن واحد »(١) . ويقول ميوردال « ان العلم الاجتماعي الخالي من المصلحة » هو « هراء فارغ Nonsense » .

وعلى ضوء هذا القول فان تأكيـــدات السوسيولوجيين البرجوازيين عن لا إيديولوجية المجتمع المعاصر لا تصمد امام اي نقد . وكما حاول ، مثلا،عالما الاجتماع الامريكيين ز. برزيزنسكي و س. هانفتون ، أن يثبتا قضية وجود ايديولوجية ، فيالبلدان الاشتراكية ، على شكل الماركسية . امـــا في الولايات المتحـدة الامريكية وغيرها من البلدان « الديمقراطية » فكأنه لا توجد اية ايديولوجية ، وانما يوجد علم اجتماعي « صرف » . ؟ وحسب تأكيداتهما ، فمن الصعب جدا جعـــل المبـــادىء السياسية الامريكية ــ افكار الليبرالية والديمقراطية ، عقيدة وايديولوجية، وكأن هذه الافكار تسيطر في الولايات المتحدة الامريكية . ومن اجل تصنيف هذه المبادىء المذكورة كعقيدة (كإيديولوجية) ، « لا يوجد ارتباط ، ولا توجد اشياء محسوسة ملموسة »(٢) .

غير أن « الارتباط » و « الانتظام » وغيرها من المميزات المنطقية المشابهة ليست علامة اكيدة لمفهوم الايديولوجية . ان الدفاع الفكري عن اسس المجتمـــع الرأسمالي الاقتصاديـــة والسيـــاسية ، هـــي الوظيفة الرئيسية والسمـــة الاساسية للايديولوجية البرجوازية . ويمكن ان نكتشف هـــذه السمة في

---

(1) G. Myrdal. valvein social theory. London. 1958, P. 54.

(2) Z. Brzezinski and S. Hungton. Political power; USA / USSR. New - york, 1964, P. 20 .

في كتاب العالِمين الامريكيين المذكورين ، اللذان يعترفان انه في المجتمع الامريكي « كانت قدسية الملكية الشخصية ، والنفع الاجتماعي للمبادرة الشخصية في مقام المبادىء المطلقة »(١) .

ان مبدأ « قدسية الملكية الشخصية » وغيره من مبادىء العقيدة البرجوازية ، تعرقل الوصول الى الحقيقة الموضوعية في العلوم الاجتماعية . اما مبادىء العقيدة الماركسية ، فانها ، في حالة تطبيقها الصحيح ، لا تعرقل ، بل على العكس ، تساعد على الوصول الى هذه الحقيقة . والحقيقة في السوسيولوجيا ، كما في اي علم آخر ، هي حقيقة موضوعية ، لا ترتبط بالانسان ولا بالانسانية . ولا تتوقف هذه الحقيقة على الذاتية الطبقية ، بل هي نتيجة دراسة نزيهة وغير متحاملة للواقع ، وانعكاس للظواهر الاجتماعية ، كما هي موجودة في الواقع دون اية إضافات خارجية .

ولكن يمكن لمختلف الطبقات ان تنظر الى حقيقة واحدة من مواقع متناقضة ، كأن تقبل بها أو ترفضها . ويمكن الاقتناع ، بلا عناء ، بأن السوسيولوجيين البرجوازيين يناقشون ، كما يبدو ، حقائق واضحة بديهية ، أثبتتها حركة التاريخ وسيره .

فهم يتطلعون من اجل ان تحمل انظمتهم طابعا علميا ، وهم انفسهم يسخرون من وضع وجود القوانين الموضوعية في تطور المجتمع ، وينكرون مفهوم « القانون العلمي » نفسه . وما هذا العلم اذا كان خاليا من اية قوانين ؟ ؟

---

(١) نفس المصدر ص ٤٢ .

ان الايديولوجيين البرجوازيين يستغلون وجود المصاعب في تطور البلدان الاشتراكية ، ويشمتون من الاخطاء التي يرتكبها بعض الناس او بعض الاحزاب ، الناطقة باسم الماركسية .

وبما ان الماركسية ــ اللينينية هي علم ، فان دراستها ، وخاصة تطويرها الابداعي وتطبيقها العملي ، قضية معقدة جدا . ولكن اذا أخطأ الناس في الحساب ، فإنهم لا يقوضون سمعة الرياضيات ، كعلم ، وكذلك الامر هنا بالضبط ، فعلم الماركسية ــ اللينينية ليس مسؤولاً عن أناس يُحرّفونه ويبتذلونه ، اناس يسمون انفسهم ماركسيين ــ لينينيين ، والماركسية ــ اللينينية منهم براء في الواقع . ان تطبيق الماركسية ، بما فيها السوسيولوجيا الماركسية ، المتحرر من الجمود العقائدي Dogmatisme والتشويهات التحريفية ، يؤدي الى نتائج رائعة ذات قيمة تاريخية عظيمة .

وبالرغم من كثرة الانظمة التي اوجدها علماء الاجتماع البرجوازيون والفلاسفة الاجتماعيون ، فإنهم لا يستطيعوا ان يقترحوا على طبقتهم اية افكار بنّاءة ، وليس في استطاعتهم أن يرفعوا افكارا وأهدافا تقدمية ، قادرة على بث روح الحماس في طبقات الشعب الواسعة . وفي هذا تعبير عن البؤس الفكري لعلم الاجتماع البرجوازي .

الفصل السابع

نقد النظريات الاجتماعية السياسية والسوسيولوجية للتحريفية المعاصرة

تتصف المرحلة المعاصرة بتفاقم الصراع بين ايديولوجيتين. وكما هو معروف فمناوأة الشيوعية Anticommunisme هي السلاح الفكري ـ السياسي للبرجوازية الاحتكارية . وتستخدم الامبريالية كذلك ، بشكل واسع ، الانتهازية والتحريفية ذات الاشكال والالوان المختلفة . والانتهازية Opportunisme هي سياسة اخضاع مصالح الطبقة العاملة لمصالح البرجوازية ، سياسة خيانة المصالح والاهداف الجذرية للطبقة العاملة ولكل العمال . واما عندما تظهر الانتهازية تحت راية الاعتراف اللفظي بالماركسية ، مع طلب اعادة النظر (Revision) في مبادىء الماركسية الاساسية ، وتبديلها بنظام الافكار البرجوازية ، او البرجوازية الصغيرة ، فهذا يعني اننا نتعامل مع التحريفية Revisionisme .

وقد نشطت ، في السنوات الاخيرة ، التحريفية باتجاهيها اليميني « واليساري » ، منطلقة من المواقع البرجوازية ـ الشوفينية ، والمناوئة للماركسية . وموضوع حملتها الرئيسي هي اللينينية كمذهب الطبقة العاملة الاممي الوحيد ، والتطبيق العملي لها في الاتحاد السوفييتي والدول الاشتراكية الاخرى .

وجريا وراء مزيفي الماركسية ــ اللينينية المحترفين ، يعلن التحريفيون اليمينيون ان اللينينية هــي مذهب ديماغوجــي مهترىء ، او في افضل الاحوال ، مذهب صالح فقط للبلــدان ضعيفة التطور ، والتي يشكل فيها الفلاحون اغلبية السكان . فمثلا ، يقول التحريفــي النمساوي آرنست فيشر E. Fischer في كتابه « ماذا قال ماركس في الحقيقة » ، واصفا «الماركسية المعاصرة » ، فيذكر « اربعة اشكال من المعتقدات الماركسية » . ولا يجد بين هذه الاشكال اثرا للينينية . فاللينينية ، حسب ادعاء فيشر ، هي فلسفة اقليمية بحتة ، خاصتها الاساسية ، كما يزعم ، المبالغة في دور العامل الذاتي في التاريخ ، والمبالغة في استخدام الجماهير الفلاحية في الثورة(1) . ويكرر فيشر اوهام كثير من المعادين للماركسية ، والقائلة بوجود اختلاف جذري بين آراء ماركس وآراء لينين . فآراء الاول (ماركس) قائمة على الاعتراف بقوانين التطور الاجتماعي الموضوعية ، في حين ان آراء الثاني (لينين) تعتمد بشكل اكبر على العامل الذاتي والبدايــة الارادية في العملية التاريخية . وحسب تعبير فيشر فقــد كان ماركس حتميا Deterministe امــا لينيــن فهــو إرادي Voluntariste لا يعترف بدور قوانين التاريخ الموضوعية .

وليست هذه ، بالطبع ، الا محض اوهام. فاللينينية ــ هي ماركسية عصر تاريخي جديــد ، عصر الامبريالية والثورات البروليتارية ، وانتقال الانسانية من الراسمالية الى الاشتراكية.

---

(1) E. Fischer. was Marx wirklich sagte. wien - Frankfurt Zürich, 1968, S. 158.

واللينينية ، من حيث المنشأ ، هي مرحلةجديدةفيتطور الماركسية الابداعي ، اما من حيث البنية ، فالماركسية ـ اللينينية هـي مذهب واحد ، ونظام كامل مـن الآراء الفلسفية والاقتصاديـة والاجتماعية ـ السياسية . لقد طور لينين الماركسية في الظروف التاريخية الجديدة ، واغناها بأوضاع ومواضيع جديدة ، غير أن مبادىء الماركسية الاساسية بقيت ثابتة راسخة دون تغيير . وعلى وجه التخصيص ، عندما اعطى لينين قيمة كبرى لـدور العامل الذاتي ، فقد تمسك بشدة بالفهم المادي للتاريخ ، وأولوية الوجود الاجتماعي والقوانين الموضوعية للتطور التاريخي .

ولا اساس ايضا لمحاولات التحريفيين تصوير اللينينية على انها ماركسية « شرقية » صرفة أو حتى « روسية » . ويبدي التحريفيون ، في الاعوام الاخيرة ، نشاطا كبيرا محاولين تأسيس وصياغة « أشكال قومية » للماركسية ، و « نماذج » خاصـة للاشتراكية . ويؤكدون بأنهم الوحيدون المتميزون بطريقة التقرّب الابداعي اللاديماغوجي من الظروف القومية والتاريخية ـ المحددة لتطور العمليات الثورية . ويعتقدون بأن بلادهم يجب ان تسير الى الاشتراكية بطريق آخر يختلف تماما عن الطريق الـذي اكتشفه لينين والذي اثبتته تجربة البناء الاشتراكي في الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية الاخرى .

ومن الواجب ، بالطبع ، أخذ الظروف الموضوعيـة ـ التاريخية والخصائص القومية بعين الاعتبار ، ولكن بدون معرفة القوانين التاريخية العامة وتطبيقها الابداعي ، لا يمكن الاستفادة بشكل ناجح ، من الخصائص القوميـة للبلدان ، في مصلحـة

الاشتراكية . وقد قال لينين « بأن معرفة الخصائص الرئيسية للعصر ، هي وحدها ، يمكنها ان تكون قاعدة واساسا لاعتبار الخصائص الاكثر تفصيلا لهذا البلد او ذاك »(١) .

وعوضا عن ان يقوم التحريفيون بالتحليل الخلّاق الحقيقي لخصائص بلدانهم ، فإنهم يصلون الى الاستنتاج التقليدي ، الى نفي كل او بعض القوانين الشاملة ، التي تحدد مضمون المرحلة الانتقالية وتطور المجتمع الاشتراكي نفسه . غير ان رفض الاهتمام بمتطلبات القوانين التاريخية الموضوعية يؤدي الى اسوأ العواقب : الى اختلال اهم وظائف المجتمع الاشتراكي ، وتضخم عناصر العفوية ، والى عمليات ونتائج اجتماعية ، يصعب التحكم بها ، ويمكن ان تؤدي الى تهديد وجود اسس الاشتراكية .

ولعل محاولات الانتهازيين « اليساريين » لتجاهل القوانين الموضوعية لبناء الاشتراكية افضل مثال سلبي على ذلك .

وتحمل «النماذج» التحريفيةاليمينية ، لمايدعى «بالاشتراكية السوقية » أو اشتراكية السوق خطرا كبيرا ، فهي تحط من قيمة الوظائف التنظيمية ـ الاقتصادية للدولة الاشتراكية ، مما يؤدي الى المزاحمة بين المؤسسات ونمو البطالة وانتعاش عناصر الملكية الخاصة وغيرها .

ان نفي فعالية اللينينية وجوهرها الاممي ليس فقط مضرا من الناحية العملية ـ السياسية ، بل وغير صحيح من الناحية النظرية . وهناك ، في الواقع اشكال كثيرة من التشويهات

---

(١) ف. اي. لينين . المؤلفات الكاملة ج ٢٦ ص ١٤٢ .

التحريفية للماركسية ، اما الماركسية ـ اللينينية فهي مذهب الطبقة العاملة العالمية الثوري الصحيح .

ولم تنته المرحلة اللينينية لتطور الماركسية بموت لينين ، فهي لازالت مستمرة في الظروف الراهنة ، كما أن كل حزب شيوعي وعمالي ، مخلص لروح اللينينية الخلاقة ، يساهم في التطوير الفكري العام للماركسية ـ اللينينية .

وتعتمد الماركسية ـ اللينينية على تعميم ماضي الانسانية التاريخي كله ، إعتمادها على التحليل العلمي لطبيعة العصرالذي نعيشه . ويكشف هذا المذهب طرق تطور الانسانية المقبل . كما تعمم الفلسفة الماركسية ـ اللينينية ، كمنهج المعرفة العلمي ، منجزات العلوم الاجتماعية والطبيعية . ولهذا بالذات تنبض روح المعاصَرَة الحية في مقولات العلم الماركسي ـ اللينينيي ، وتنعكس فيه الاتجاهات المنطقية لتطور المجتمع . وتدل على القوة الحياتية والحيوية للماركسية ـ اللينينية ، جملة الممارسة الاجتماعية ـ التاريخية في عصرنا .

ماهي اسباب ظهور التحريفية في الحركة الشيوعية العالمية ؟ للاجابة على هذا السؤال يجب الرجوع الى مؤلفات لينين . فقد اكد لينين تجانس افكار ونزعات الانتهازية في مختلف البلدان(١) . وقد اشار لينين ، داعيا الانتهازية اتجاها عالميا ، الى ان الصفات العامة التي تميزها ، متعلقة بوحدة طراز الجذور الاجتماعية والطبقية للانتهازية ، وهذه الجذور هي اعمق

(١) ف. اي. لينين . المؤلفات الكاملة ج ٨ ص ٣٩٢ .

من الاختلافات القومية . وكما يقول لينين فإن وجود الجـذور الطبقية ، يوجب حتمية ظهور الاهتزازات والتأرجحات التحريفية في الحركة العمالية .

ان البروليتاريا ، في المجتمع البرجوازي محاطة بجماهير البرجوازية الصغيرة ، التي تَجَنَّدُ منها صفوفها ، وتتصل بها بآلاف من الدرجات والحدود الانتقالية . لهذا تتسرب ، بشكل دائم ، آراء البرجوازية الصغيرة الى صفوف الطبقة العاملـة ومنظماتها السياسية . كما ترشو البرجوازية الاحتكارية ، على حساب الربح الفاحش ، زعماء الطبقة العاملة الارستقراطيين ، والبيروقراطية العماليـة ، فيقوم هؤلاء بدور حامل التأثير البرجوازي الى جماهير العمال . ويمكن اظهار آلية (ميكانيزم) هذه الرشوة ، بسهولة ، بمثال الاشتراكيين ـ الديمقراطيين اليمينيين المعاصرين .

وبالرغم من ان الاشتراكيين اليمينيين المعاصرين قد بقوا انتهازيين ، فلا يصح اعتبارهـم تحريفيين Revisionistes « من انصار مذهب اعادة النظر في اسس الماركسية » فهم قـد رفضوا منـذ زمن ليس بقصير ، الماركسية ، كرفضهم لفلسفة مهترئة متقادمة . اما بالنسبة للتحريفية ، التي تظهر في صفوف الاحزاب الشيوعية ، وفي بعض البلدان الاشتراكية ، فهي ذات جذور طبقية أيضا . فالبرجوازية الصغيرة لاتوجد في البلدان الرأسمالية فقط ، بل وفي تلك البلدان الاشتراكية ، التي لم تحل فيها ، بشكل نهائي ، مهمات المرحلة الانتقالية . بل وحتى في البلدان الاشتراكية ، التي نشأت فيها التغييرات الاشتراكية،

حديثا بشكل عام ، تظهر فيها النظرات والتقاليد البرجوازية الصغيرة وغيرها من الظواهر الراسبة . وفي اوقات الازمات السياسية العنيفة ، ومنعطفات التاريخ الشديدة ، تنتعش وتنشط فيها ايديولوجية البرجوازية الصغيرة ، والبرجوازية، بشكل عام ، ويتفاقم الصراع الطبقي .

ويعتبر ضغط البيئة البرجوازية الصغيرة ، مصدرا اجتماعيا للارتجاجات الانتهازية اليسارية في الحركة العمالية ، ولمختلف اشكال الشذوذ والانحراف اليساريين في عملية البناء الاشتراكي .

وفي العصر الراهن ، الذي يتميز جوهره الرئيسي بصراع نظامين اجتماعيين متناقضين ، من الواجب ان نأخذ بعين الاعتبار المصادر الداخلية والخارجية المُغذّية للتحريفية . فالبرجوازية الامبريالية لا تؤثر على الطبقة العاملة في «بلدانها» فحسب ، بل وفي البلدان الاشتراكية ايضا . ومن اجل تحقيق هذا الهدف تستخدم وسائل الضغط السياسي ، والنشاط السياسي الخارجي ، وخاصة ، وسائل الاستدراج الايديولوجي والسيكولوجي (النفسي) للسكان . وإن الشعارات السياسية الرئيسية والحجج النظرية ، التي يرفعها التحريفيون ، كلها مستوحاة من الدعاية الاستعمارية المعادية للماركسية .

وتستخدم الامبريالية كل ما تملكه من وسائل من اجل التفريق بين الدول الاشتراكية و « تفتيت Erosion » العلاقات الاجتماعية فيها ، وتقويض بأس الدولة الاشتراكية . والدور

القيادي للاحزاب الماركسية ـ اللينينيـة ، والمواقـع المسيطرة للايديولوجية الاشتراكية . أما العناصر التحريفية والشوفينية في البلدان الاشتراكية ، فتلعب ، من الناحية الموضوعية،دور أعوان الامبريالية ، وحملة سياسة العداء للاشتراكية وعقيدتها .

وبالنسبة لكل القضايا العقائدية الهامة ، والمسائل الجذرية للتطور الاجتماعي ، تعرض التحريفية حلولا ، تكرر فيهـا وتكرس ، عمليا ، المبادىء الرئيسية للايديولوجية البرجوازية المعاصرة . وإحدى المصادر الفكرية للتحريفية اليمينية هـي السوسيولوجيا البرجوازية المعـاصرة ، وخاصة ، **اتجاهها** الصناعي . اما النظريـة الاجتماعية ـ السياسية للتحريفيـة « اليسارية » فلها مصادر فكرية اخرى . وأول ما يلفت النظر الانتقائية éclectisme المتطرفـة في هذا التزييف البـرجوازي الصغير للماركسية ـ اللينينية . والى جانب الاعتراف الشكلي ببعض المبادىء الماركسية ، تبدو في ايديولوجيـة التحريفيـة « اليسارية » ، بشكل واضح ، **الأفكار التروتسكية** (نظريـة الثورة الدائمة ، الاسراع المغامر لسير العمليـات التاريخيـة ، حربية الحياة الداخلية ، مداعبـة الشباب المعارضين للحزب الشيوعي . وما شابهها ...) ، **والنظرات الشعبية** للفلاحيـة ، كقوة محركة رئيسية للتاريخ ، **وعناصر الفوضويـة** المناديـة « بالعصيان » والفارغة من أي منهاج ايجابي ، وبعض افكـار الاشتراكية الطوباوية البرجوازية الصغيرة .

لقد انفصلت الانتهازية « اليسارية » نهائيا عن الفهم المادي للتاريخ . فهي تنطلق من أولوية الارادة على الشروط الموضوعية

لتطور المجتمع ، وتعتبر السياسة « قوة قائدة » ، يجب ان تأخذ بعين الاعتبار ، القوانين الاقتصادية الموضوعية ، كما تزعم الانتهازية . أما التحريفيون « اليساريون » فيتمسكون بنظرية العنف المثالية ، التي نقدها إنجلز . وقد بُعثت هذه النظرية ، تحت « نمط جديد » في نظرية « الابطال » و «الحشود» المثالية ، ووجدت تعبيرا عنها في عبادة الفرد التي تصل الى حد الترهات واللامعقولية .

ان الميزة الرئيسية للايديولوجيا البرجوازية المعاصرة هي : تمجيد الراسمالية ، بمختلف الوسائل ، والافتراء على الاشتراكية و « تدعيم وتشييد » لا ضرورة ولا منطق الانتقال الثوري من الراسمالية الى الاشتراكية . وتظهر هذه الميزة في التحريفية ايضا ، وعدا عن ذلك ، فالتحريفية ذات الاتجاه اليميني تعبر عنها بصراحة ، وبشكل مباشر في حين ان الاتجاه اليساري منها، يبدي هذا الميزة من وراء ستار .

والتحريفية ، يمينية كانت ام «يسارية» ، تبتعد عن المواقع البروليتارية الطبقية في تقييمها للراسمالية المعاصرة . اما التحريفية اليمينية فتكرر ببساطة الآراء البرجوازية التبريرية القائلة ، بأن الثورة العلمية ــ التكنيكية ، والتطور الهائل للقوى المنتجة ، قد غير ، وبشكل جذري ، الراسمالية وحولها الى نظام جديد لم يعرف سابقا . ومع ان هذا النظام ليس الاشتراكية ذاتها ، ولكنه ، على اية حال ، يقف في « طرف آخر » بعيدا عن الراسمالية . ويسمي الايديولوجيون البرجوازيون،ومن ورائهم ، التحريفيون اليمينيون هذا النظام الاسطوري بأسماء

مختلفة مثل : « الراسمالية الشعبية » و «دولة الرفاه الشامل»، « المجتمع الصناعي » و « المجتمع المتكوّن » وغيرها . . . . الا ان هذه التلاعبات اللفظية ، لا يمكنها اخفاء الحقيقة الساطعة، وهي انه ، بالرغم من التغييرات التي جرت في الراسمالية ، فالراسمالية حافظت وتحافظ على جوهرها ، وعلى محتواها الاساسي ، فهي تبقى نظاما استغلاليا ، وهي ، كنظام اجتماعي – اقتصادي تعاني ازمة تشتد وتتفاقم تدريجيا . ولا يستطيع اي تدخل من جانب الدولة الاحتكارية في الاقتصاد ، ولا اية محاولات لتنظيم هذا الاقتصاد ، ان تنقذ الراسمالية من التناقضات المفطورة عليها .

وقد يبدو من حيث المظهر ، ان الانتهازيين « اليساريين » يعطون تقييما مناقضا للراسمالية المعاصرة . فمطبوعاتهم مليئة بالشتائم واللعنات الكلامية الموجهة الى الامبريالية الامريكية . غير ان هذه الانفجارات الكلامية تخفي وراءها استسلام الانتهازيين « اليساريين » الحقيقي امام الامبريالية .

فالانتهازية « اليسارية » لا تثق في الطاقات الثورية للطبقة العاملة في البلدان الراسمالية المتطورة ، وكأنها تشارك، من طرف آخر ، الانتهازية اليمينية في قضية برجزة الطبقة العاملة وانسجام النظام الراسمالي وتكامله .

وليس تقييم التحريفية المعاصرة للمجتمع الاشتراكي وآفاق تطوره اقل خطأ . واحدى الافكار الرئيسية لعلم الاجتماع البرجوازي ، كما ذكرنا سابقا ، فكرة «المجتمع الصناعي الموحد»، هذا المجتمع الذي حل محل الراسمالية الكلاسيكية ، والذي سينشأ حتماً ، كما يدّعون ، في جوف النظام الاشتراكي .

ولقد تقبل التحريفيون اليمينيون ، بروح غير نقدية ، نظرية « المجتمع الصناعي الموحد » و « اللاايديولوجيا » وغيرها من النظريات ، فاعتبروها آخر منجزات « العلم السوسيولوجي » وأحدثها ، ودعوا الى اغناء النظرية السوسيولوجية للماركسية بها . وبروح نظرية « اللاايديولوجيا » يعملون ، بجهد ، على تعطيل مبادىء الماركسية ـ اللينينية وتفكيكها ، ويدعون الى التعايش السلمي في حقل الايديولوجيا . اما مبدأ حزبية « التزام » الايديولوجيا اللينينيي فيعتبروه مبدأ « مهترئا » و « ضيقا » و « ديماغوجيا » لايناسب ظروف العصر الصناعي ـ العلمي الجديد . فهذا اي. فيشر ، المطرود من صفوف الحزب الشيوعي النمساوي ، يتحدث لاعن التعايش فقط ، بل وعن تعاون الايديولوجيات المتناقضة . وينادي بالخروج من « حصن الايديولوجيا » الى الفضاء الرحب ، من اجل ايجاد الافكار المتقاربة والقيم الجامعة بين الايديولوجيتين البرجوازية والاشتراكية . ويقترح فيشر ابطال والغاء « العناوين » مثل : «برجوازي» و «اشتراكي»واستعمال: « حقيقي » و « كاذب » بدلا عنها عند تقييم الظواهر الاجتماعية.

ان فيشر وامثاله يتخلون عن المواقع الماركسية ـ اللينينية، وينتقلون الى مواقع الموضوعية البرجوازية . وليست الموضوعية البرجوازية الا شكلا من اشكال الحزبية (الالتزام) البرجوازية . ويعبر الالتزام البرجوازي عند التحريفية اليمينية عن نفسه في محاولات التحريفيين اليساريين « لنفي ايديولوجية » الماركسية ـ اللينينية ، وتجريدها من جوهرها الطبقي وروحها الثورية ، وتحويلها الى لوحة تجريدية لا تضر بالبرجوازية .

ومن الخطأ الكبير ، التقليل من خطر نظريات « المجتمع

الصناعي الموحد » و « اللاايديولوجيا » وغيرها من الآراء المشابهة، المعادية للماركسية ، والتي تستغلها التحريفية المعاصرة . وتلعب هذه التصورات دور الاساس « العلمي » للسياسة الامبريالية، ولتكتيك الحرب الايديولوجية الموجهة ضد الدول الاشتراكية . وتعير الامبريالية الآن اهتمامها الرئيسي الى «التطور السلمي» و « ليبيرالية » النظام الاشتراكي ، اي الى انقلابه وتجدده الراسمالي . ومن هذه المقدمات تنطلق السياسة المعروفة ، سياسة « نصب الجسور » ، المؤدية الى محاولات التغلغل الايديولوجي الى المجتمع الاشتراكي وافساده ونخره من الداخل . وأهم حاجز ومانع يعترض طريق تحول الدول الاشتراكية الى « مجتمع صناعي » من الطراز الغربي هي، حسب راي ساسة الامبريالية وايديولوجييها ، قوة الدول الاشتراكية والدور القيادي للحزب الشيوعي ، والمواقع المسيطرة التي تحتلها ايديولوجية الماركسية ـ اللينينية . وضد هذه العوامل بالذات ، توجه الدعاية المعادية للماركسية والاعمال التخريبية للعناصر التحريفية المعادية للاشتراكية .

ومما يلفت النظر التقارب الشديد بين ممثلي الامبريالية والتحريفية اليمينية من جهة ، وممثلي الانتهازية « اليسارية » من جهة ثانية ، في تقييمهم لطبيعة النظام الاشتراكي وآفاق تطوره . فهذا « شيخ » علم التاريخ البرجوازي آ. توينبي يعلن انه « بنهاية النصف الثاني من القرن العشرين لن تحمل كلمة « سوفييتي » و « اشتراكي » اي معنى خاص . نظرا لأن نظامي الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الامريكية سيصبحان،

في الواقع ، متماثلين ومتشابهين » (١).

اما الانتهازيون « اليساريون » فلا يريدون الانتظار حتى نهاية القــرن العشرين . فقد أعلنوا على الملأ أن عملـــية عودة الرأسمالية الى الاتحاد السوفييتي قد تمت الآن ، وانه قد نشأت من جديد « البرجوازية الجديدة » في الاتحاد السوفيتتي ، كما تجري فيه حرب طبقية متصارعة . ان سياسة وايديولوجيـة الانتهازيين « اليساريين » ، وسياسة وايديولوجية ممثلـــي الرأسمال الاحتكاري اليمينيين تنطلق ، بالطبع من مصادر طبقية واجتماعية مختلفة . ولكن هـــذين الاتجاهيـــن السياسيين الايديولوجيين يلتقيان ، حتما ، في نقطة ما ، ويتفقان ، نظـــرا لأنهما يوجهان نضالهما الى هدف واحد . فكلاهما معادي للاتحاد السوفييتي ، وكلاهما برجوازي – سوفيني .

وفي حمــــأة الصراع الفكري – السياسي بيــن الماركسية والتحريفية ، كانت تثار دائما قضايا التنظيم السياسي للمجتمع، والحرية والديمقراطية ، ووظائف الدولة الاشتراكية ، وقضية الدور القيادي للحزب الشيوعي في بناء الاشتراكية .

وبتطهير فلاديمير ايلتيش لينين لأفكار ماركس وانجلز ، حول الدولة والتنظيم السياسي للمجتمع ، من التشويهــــات التحريفية ، فقد طوّر هذه الافكار ودفعها الى الامام ، ورفعها الى درجة أعلى توافق العصر التاريخي الجديد ، كما كشف مغزى

(1) « The impact of the russian revolution. 1917 - 1967 » London, 1967, P. 26.

السلطة السوفييتية ، كأول دولة اشتراكية في العالم ، اكثر ديمقراطية من اية جمهورية من الجمهوريات البرجوازية البرلمانية. كما ابرز لينين الفكرة القائلة بالصيغ المختلفة لديكتاتورية الطبقة العاملة ، والتي اثبت التاريخ صحتها ، بشكل رائع ، فيما بعد . وقد رأى لينين في الدولة الاشتراكية السلاح الرئيسي والوسيلة الفعالة لاصلاح المجتمع على بدايات اشتراكية .

وتلتقي ، في هذه القضية ايضا ، التحريفية اليمينية و « اليسارية » ، من الناحية العملية . فكلا هذين النوعين من الانتهازية يصل الى نتائج واحدة : الى محاولة تجريد الطبقة العاملة من دورها القيادي في المجتمع ، ونسف اسس ديكتاتوريتها وتركها مشلولة بدون حزب سياسي نضالي .

اما التحريفية اليمينية فتنشط تحت راية نشر «الليبرالية» و « الديمقراطية » . اما في الواقع ، فهي تعمل على زعزعة آلية (ميكانيزم) الدولة الاشتراكية كلها ، وتبديلها بنظام سياسي متعدد الاحزاب ذو طابع برجوازي .

وتستغل الايديولوجيا البرجوازية ، بشكل متزايد ، اسطورة الديمقراطية والحرية « الصرفة » و « اللاطبقية » ، والتي كأنها تزدهر في المجتمع « الغربي » ، ولا توجد في الدول الاشتراكية . ويؤكد التحريفيون اليمينيون ، جريا وراء النظريات السوسيولوجية والحقوقية البرجوازية ، ان دولة « الاشتراكية الديمقراطية » لا يمكنها ان تكون ، الآن ، ذات محتوى طبقي ، وانها يجب ان لا تستخدم القهر ضد احد ، وان فكرة ديكتاتورية الطبقة العاملة ،

بشكل عام ، قد تقادمت واهترأت ، ولا يمكنهـــا ان تُطبّق في الدول المتطورة صناعيا ، الدول ذات التقاليد الديمقراطية العريقة .

ونجد النظرة البرجوازية الصغيرة والفوضوية نحـو دور الدولة الاشتراكية ، لدى التحريفية « اليسارية » أيضا ، التي لا ينفي ممثلوها لزوم ديكتاتورية البروليتاريا وضرورتهـــا . ولكنهم عمليا ، يخربون أسسها ، ويرفضون ، علنا ، المركزية الديمقراطية ، التي يستحيل بدونها ، على اجهزة ديكتاتوريـة الطبقة العاملة وكل المنظمات الاجتماعية ، ان تؤدي دورها بشكل طبيعـــي .

ان التحريفية ، اليمينية منها و « اليسارية » ، بعيدة عن روح الحزبية اللينينية ، فطبيعة التحريفية البرجوازية الصغيرة تناقض القواعد اللينينية للحياة الحزبية ، ومبـــدأ المركزيـة الديمقراطية في البناء الحزبي . وليس من باب الصدفة ، بل من الطبيعي جداً ، ان التحريفية ، مهما كان اتجاهها او نوعهـا ، تحاول قبل كل شيء ضرب الحزب الماركسي ـ اللينينيي وتخريب مبادئه التنظيمية . اما التحريفية اليمينية فتحـاول تجريـــد الحزب الشيوعي من دوره القيادي في البناء السياسي للمجتمع الاشتراكي وتحويله الى ما يشبه المنظمة الثقافيـــة او مجلس المنـاقشة .

واما التحريفية « اليسارية » فإما ان تحول الحزب الـى منظمة بيروقراطية ، الى اداة طيعة في أيدي الاوساط الحاكمة ، واما ان تحطم الحزب الشيوعي بشكل كامل ، اذا وقف عقبة في طريق اقامة نظام الحكم الفردي .

ويلاقي النشاط الخائن للتحريفية قبولا وتأييدا كاملين في اوساط الرجعية العالمية . فالدعاية الامبريالية ، وكذلك العناصر البرجوازية ـ الشوفينية والتحريفية ، بتوجيهها ، بشكل مصطنع ، اهتمام الرأي العام على النواقص والاخطاء التي تظهر في سير البناء الاشتراكي ، تحاول بث ضعف العزيمة ، وتقويض ثقة جماهير الشعب بالاشتراكية ، وبأفكار الماركسية ـ اللينينية وبضرورة الدور القيادي للحزب الماركسي في المجتمع الاشتراكي . وكان هذا الدور الرائد القيادي يشكل عقبة في طريق تنظيم المجتمع الاشتراكي على اسس ديمقراطية ! ! !

وقد اثبت لينين ان دور الحزب الشيوعي القيادي ليس مفروضا فرضا ، ولا من باب الصدفة ، بل أن جوهر العلاقات الاجتماعية في الاشتراكية ، ذاته ، يحدد هذا الدور ، ويشكل قانونا طبيعيا لتطوير المجتمع الجديد . وقد ايدت هذا الاستنتاج واثبتت صحته الممارسة العملية في العصر التاريخي الراهن . فالاشتراكية الحقيقية لا يمكن أن تقوم بدون الدور القيادي للحزب الماركسي ـ اللينيني .

وتتصف مرحلة التطور التاريخي المعاصرة . بحدة الصراع بين الاممية البروليتارية وحركة التعصب القومي البرجوازية، التي تظهر في اشكال مختلفة . وقد دعا لينين الشوفينية البرجوازية والاممية البروليتارية لاشعارين متعارضين فقط ، بل نظرتين متناقضتين للمسألة القومية(١) .

---

(١) أنظر ف.اي.لينين . المؤلفات الكاملة ج ٢٤ . ص ١٢٣ .

فالمبادىء اللينينية التي تجمع بشكل هارموني منسجم بين المصالح القومية للبلدان المختلفة وبين المصالح الاممية الشيوعية العالمية ، هي القاعدة آلتي تنشأ على أساسها وتتطور العلاقات بين الدول الاشتراكية ، هذه الدول التي يوحدها ويجمع شملها طراز واحد للبناء الاجتماعي والحكومي ، وهدف وآحد للتطور الاجتماعي ، وضرورة النضال المشترك ضد الامبريالية ، ومهمات مشتركة لمساعدة الحركة العمالية والتحررية ـ الوطنية ، ووحدة الايديولوجيا . وتبرز الاممية البروليتارية ، في الوقت نفسه ، كسياسة للدول الاشتراكية والاحزاب الشيوعية ، وكمبدأ هام للايديولوجية الماركسية ــ اللينينية .

وتنطلق الماركسية ــ اللينينية مـــن الوحدة الديالكتيكية للقوانين آلعامة لمرحلة الانتقال من الراسمالية الى الاشتراكية ، والخصائص المميزة للبلد ، الذي يقوم بهذا الانتقال ، ومن وحدة المهمات الامية والقومية للطبقة العاملة واضرابها ، آلتي عليهـا ان تقود النضال على جبهتين : ضد التقليد الاعمى الديماغوجي لسير عمليات البناء الاشتراكي من جهة ، وضد تشويه هـــذه العمليات بالروح التحريفية ــ الشوفينية .

اما التحريفية ، فمع انها لا ترفض الامية نظريا ، غيــر انها من الناحية العملية ، تفهم من آلامية طرفا واحدا ، يتضمن الاعتراف ، فقط ، بحقوق الامم المتساوية ، او تقديم المساعدة من طرف واحد فقط ، فهي اذن تحذف آلمهم والرئيسي مـــن مفهوم الامية وتطمسه وهو : ضرورة المساعدة المتبادلة،والتأييد

الاخوي ، ووحدة الدول الاشتراكية والاحـزاب الماركسية ـ اللينينية . وكما قال بريجينيف في خطابه في المؤتمر العالمـي للاحزاب الشيوعية والعمالية سنة ١٩٦٩ « تظهر الاممية الحقيقية في تاييد ودعم المجتمع الاشتراكي القائم من قبل كـل الاحزاب الاخوية . اننا نقيّم بشكل عالٍ موقف أصدقائنا ، الذيـن لا يهادنون الافتراءات المختلفة ضد الاشتراكية ويقاومونهـا . وهذا ، بالنسبة للشيوعيين ! ليس فقـط تعبير طبيعي عـن عواطفهم الاممية ، بل وايضا تقترب من الاممية ، كسياسة واقعية تخدم قضية الثورات . فكلنا ، مثلاً ، متفقون على أن الفرص الجديدة ، للنضال من اجـل السلام والديمقراطية والاستقلال الوطني والاشتراكية ، قد سنحت بفضل الدفعات الجذريـة لصالح الاشتراكية وضد الرأسمالية ، على النطاق الدولي. وهذا يعني شيئا آخر : ان اي ضعف في مواقع الاشتراكية في العالم ، لا يمكن ان لا يؤثـر ، بشكل سلبي علـى مواقع الاحـزاب الشيوعية كلها »(١) .

ان احـدى الصفـات المميزة للصراع الطبقي في الـوقت الراهن ، أن قضايا الانسية Humanisme وقيم الفرد الانساني تحتل المركز الاول . وكثيرا ما تبرز الدعاية الامبريالية ، ومـن ورائها التحريفية اليمينية ، تحت راية مغتصبة ، راية الانسية. ويصور التحريفيون اليمينيون من انفسهم انصارا «للاشتراكية

(١) ل. ي. بريجنيف . خطاب الامين العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي في المؤتمر العالمي للاحزاب الشيوعية والعمالية ، المنعقد في ٧ حزيران ١٩٦٩ . موسكو ، ١٩٦٩ ص ٤٢ ـ ٤٣ .

الانسانية » و « الاشتراكية ذات الوجه الانساني » ، التي يعارضون بها « الاشتراكية الادارية » القائمة على ضغط الجماعه والمجتمع للفرد . ان « الاشتراكية الانسانية » ليست الا شكلا آخر ، واسما ثانيا « لنموذج الاشتراكية السوقية » الذي تعرفنا عليه في الفصول السابقة . وفي الواقع ، فالتحريفيون اليمينيون يشنون هجوما على الفهم الماركسي - اللينينيني للانسية من مواقع الفوضوية والروح الفردية البرجوازية . ومن اجل هذا ، يستخدم التحريفيون اليمينيون ، بشكل واسع ، خيالات وأوهام محترفي العداء للشيوعية والماركسية ، كما يستخدمون كذلك النظريات السوسيولوجية للبرجوازية الصغيرة عن ازمة الحضارة وعن حتمية اغتراب الانسان في « المجتمع الصناعي » .

لقد اطلعنا سابقا على التفسير الذي يقدمه الايديولوجيون البرجوازيون لمشكلة اغتراب الفرد . ولا يضيف التحريفيون اليمينيون اي شيء مبدئي جديد لتقرير هذه القضية . فهم يؤكدون ، وكأن مشكلة الاغتراب لا تقرر ولا تحل ، من حيث المبدأ ، نظرا لأن الاغتراب ، كما يَدَّعون ، هو صفة انثروبولوجية خالدة في الفرد الانساني ، وجريا وراء السوسيولوجيين البرجوازيين ، يُعلنون ان « الشكل الغربي للمجتمع الصناعي »، أي الرأسمالية اقرب الى تحقيق المثل العليا الانسانية لكارل ماركس الشاب ، كما تتوفر فيه امكانيات اكبر للنضال ضد الاغتراب من « الشكل الشرقي للمجتمع الصناعي » ، اي الاتحاد السوفييتي والدول الاشتراكية الاخرى !! وبشكل عام ، تغدو « الانسية التجريدية » للتحريفيين اليمينيين واضحة جلية عند

ما يبداون بتطبيق مواقفها على الواقع الاشتراكي . كما ينكشف جوهر « انسية » الانتهازية اليمينية المضاد للثورة ويتعرّى على حقيقته في القضية التالية : حيث يزعمون بأن المظاهر الرئيسية للاغتراب في المجتمع هي ديكتاتورية البروليتاريا، والدور القيادي للحزب الشيوعي ، ومواقع الايديولوجية الماركسية – اللينينية المسيطرة ، وكذلك الشكل الاشتراكي للانتاج ولتوزيع المنتجات، هذا الشكل الذي هو ، كما يزعم التحريفيون ، « طبعة جديدة » لراسمالية الدولة ، قائم على استغلال « صفوة البيروقراطيين الحزبيين والتكنوقراطيين » للعمال . ومن هنا يصلون الى الاستنتاج القائل بأنه يجب محاربة اسس الاشتراكية في سبيل « الانسية » ومن اجلها ، وهذا ما يحاول فعله التحريفيون اليمينيون بكل ما اوتوا من قوة . وحسب تعبير التحريفيين اليمينيين ، فالانسان في الاشتراكية ايضا ، محكوم عليه بالوحدة والعزلة ، وتراجيدية الوجود ، نظرا لأن العلم والتقدم التكنيكي والايديولوجيا ومختلف المؤسسات الاجتماعية تقف كقوى معادية للفرد وغريبة عنه . واما الكاريكاتير (التشويه) الوجودي للاشتراكية ، فيعتبره التحريفيون اليمينيون تفسيرا حقيقيا صحيحا ، قائما على مصادر الماركسية الاولى . ان الدور الطبقي الموضوعي لمثل هذه « النظريات » التحريفية ، هو افساد المجتمع الاشتراكي ، وعلى الاخص ، المثقفين والطلاب الشباب عن طريق الافكار الرجعية ، المشبعة بالفلسفة والسوسيولوجيا البرجوازية المعاصرة .

وتتعرض انسية المذهب اللينيني وتجسيدها العملي في

الواقـــع الاشتراكي لهجمات عنيفة مـــن جانب التحريفيـــة « اليساريـــة » أيضا . فممثلوا التحريفيـــة « اليساريـــة » يحذفون مفهوم « الانسية » ذاته ، وكأنه مفهوم برجوازي . فهم لا يريدون رؤية اختلاف (الانسية) البروليتارية الجذري عـــن الانسية البرجوازية . والانتهازيون « اليساريون » بتشويههم الشنيع لطريقةمعالجةالماركسية ـ اللينينيةلقضيةالعلاقةالمتبادلة بين المجتمع والفرد ، يطمحون الى تحويل الانسان الى «لَوْلَبٍ لا يصدأ » لآلية الدولة ، التي تقودها ارادة انسان واحـــد ، وتحويله الى مُنفِّذ ، دون تفكير ، للاوامر المعطاة من الاعلى . ولا يدخل في نظرية « الاشتراكية » العسكرية وممارستها ، النضال من اجل سعادة الفرد العامـــل . ولهـــذا بالضبط ، يصور التحريفيون « اليساريون » الاهـتمام برفع المستوى المـــادي والثقافي للشعب كنشوء للانانية البرجوازية والفردية ، وينبدلون الحوافز المادية للعمل ، والتي لا يمكن بناء المجتمع الاشتراكـي بدون استخدامها ، بتسطيح برجوازي صغير . وهكذا ، تكمن احدى ظواهر نشوء الطرائقية المثالية عند التحريفية اليسارية، في المعارضة المصطنعة بين الدوافع المادية والاخلاقية للعمـل ، كما تكمن في محاولة بناء الاشتراكية بواسطة شعارات سياسية ومواعظ اخلاقية عارية ، ومنفصلة عن الحياة الواقعية .

وبالطبع فالماركسية ـ اللينينية خالية وبريئة من مواعظ البؤس النفاقية ، المدَّعى بأنها سعادة وخير ، وخالية ايضا من العبادة البرجوازية الضيقة للاشياء . وتُعلِّمنـا الماركسية ـ اللينينية ان الثروات المادية تُخلق وتوجد لتلبية المتطلبـــات

المعقولة المنطقية للناس ، كما انها شرط ضروري لتطوير المقدرات الانسانية وازدهار الفرد .

ان الانسية الكاذبة للانتهازيين اليمينيين واللاإنسية الحربية للانتهازيين « اليساريين » ليستا الا شكلين مختلفين للاشتراكية الكاذبة البرجوازية الصغيرة ، التي تناقض جذريا الماركسية ـ اللينينية ، اعلى صيغة للانسية الحقيقية . فالماركسية ـ اللينينة باكتشافها القوانين الموضوعية لتطور المجتمع ، وضعت الاساس العلمي لقضية تحرير العمال من الاضطهاد والاستغلال ، وقضية التطور الشامل ، من جميع النواحي ، للفرد العامل ، الذي يغدو في ظروف الاشتراكية ، الرأسمال الاساسي ، والقيمة الاساسية للمجتمع .

واللينينية هي تطور مُطّرد ابداعي لانسية ماركس وانجلز البروليتارية ، ويتجسد محتوى اللينينية الانساني ويتطور في نشاط الحزب الشيوعي السوفييتي والاحزاب الشيوعية الاخرى ، المخلصة لروح اللينينية الابداعية ، في نضالها من اجل السلام والديمقراطية والتقدم الاجتماعي والاشتراكية .

وتدل التجربة التاريخية ، وقبل كل شيء ، تجربة الحزب الشيوعي السوفييتي ، على قدرة الطبقة العاملة وطليعته الثورية على مقاومة التأثير البرجوازي والبرجوازي الصغير بنجاح ، وعلى مقاومة تأثير الامبريالية ، والسير على الخط الثوري في

الصراع السياسي والايديولوجي دون اي انحراف . كما يتوقف مصير الاشتراكية في بلدٍ ما ، على صحة سياسة الحزب الشيوعي، وقدرته على التطبيق الابداعي والخلاق لمبادىء الماركسية ـ اللينينية الراسخة ، لتقرير المهمات الصعبة والمختلفة من اجل بناء المجتمع الجديد .

وقد قال لينين انه بدون نظرية ثورية لا يمكن ان تقوم حركة ثورية . وينطبق هذا المبدأ ، بشكل كامل ، على مرحلة البناء الاشتراكي . ويزداد دور النظرية الماركسية ـ اللينينية في هذه المرحلة كثيرا . ولا يوجد ، ولا يمكن ان يوجد اي حياد في الصراع الايديولوجي . فأي اضعاف او انتقاص للايديولوجية الاشتراكية، سيستغله العدو الطبقي لتقوية مواقعه الايديولوجية . وان مبدأ حزبية (التزام) الايديولوجيا اللينيني ، الذي تسترشد به الاحزاب الماركسية ـ اللينينية هو سلاح حاد لابديل له في الصراع ضد التحريفية المعاصرة .

ان الامبريالية هي قوة عالمية ، والتحريفية قوة عالمية ايضا . وعلى الاحزاب الشيوعية والعمالية ان تواجه قوة اعدائها المجمعة ، بتوحيد صفوفها ، وصفوف الحركة العمالية العالمية كلها . وقد ظهر هذا الاتجاه في الاجتماع العالمي للاحزاب الشيوعية والعمالية الذي عقد في موسكو في حزيران سنة ١٩٦٩.

وفي الوثيقة الرئيسية للاجتماع المذكور ، وُجِّه نداء الى شعوب البلدان الاشتراكية ، والى البروليتاريا والشعوب المضطهدة من اجل أن توحد صفوفها في النضال المشترك ضد الامبريالية ، وفي سبيل السلام والتحرر الوطني والتقدم الاجتماعي والديمقراطية والاشتراكية .

الفهرس

عنوان الكتاب باللغة الاصلية :

Kritika Sovremennoï
Bourjouaznoï Sotsiologui

S. I. POPOV. اسم المؤلف

وافقت وزارة الاعلام مديرية الرقابة
على طبع وتداول هذا الكتاب تحت رقم ٤٧٧٩

« يعاني الفكر الاجتماعي البرجوازي المعاصر أزمة حادة ، فهو فقير بجوهره ، رغم تنوع الاتجاهات واختلاف المدارس فيه ، ورغم بريقها الخارجي » .

الجذور الاجتماعية الموضوعية والاخرى النظرية المعرفية الذاتية الكامنة وراء علم الاجتماع البرجوازي المعاصر .

كيف يمكننا أن ننقد هذا العلم نقداً ثورياً ؟

الموقف الذي يجب اتخاذه من علم الاجتماع البرجوازي المعاصر .

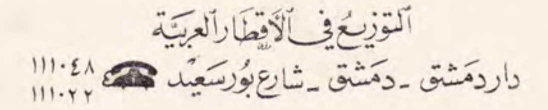
الوجه الآخر لعلم الاجتماع ، الوجه العلمي المادي ـ التاريخي .

كيف فقدت البرجوازية آفاق تطورها ، وقطعت صلاتها مع الفكر التقدمي ؟

الاتجاهات الرئيسية لعلم الاجتماع البرجوازي المعاصر .

تلك هي بعض المسائل التي يعالجها هذا الكتاب الذي يجمع بين السهولة والعمق . ويعرض س. ي. بوبوف في كتابه هذا الفكر الاجتماعي العالمي منذ نشوئه وحتى الوقت الراهن ، بمدارسه واتجاهاته المختلفة . ويبحث في الاتجاهات الرئيسية لعلم الاجتماع البرجوازي المعاصر وينقدها من وجهة نظر ماركسية علمية .

والكتاب معد للاختصاصيين والباحثين الاجتماعيين ، والدارسين والطلبة الجامعيين المهتمين بالعلوم الاجتماعية .


التوزيع في الأقطار العربية
دار دمشق ـ دمشق ـ شارع بورسعيد ☎ ١١١٠٤٨ ١١١٠٢٢

السعر : ٥٥٠ ق